السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ

تَرْبِيَةُ أُمَّةٍ وَبِنَاءُ دَوْلَةٍ

بقلم

صالح أحمد الشامي

المكتب الإسلامي

السيرة النبوية

تربية أمة وبناء دولة

بقلم

صالح أحمد الشامي

المكتب الإسلامي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثالثة

١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

المكتب الإسلامي

بيروت: ص.ب: ١١/٣٧٧١ - هاتف: ٤٥٦٢٨٠(٠٠٩٦١٥)
Web Site: www.almaktab-alislami.com
E-Mail: islamic_of@almaktab-alislami.com
عمّان: ص.ب: ١٨٢٠٦٥ - هاتف: ٤٦٥٦٦٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فهذه هي الطبعة الثالثة لهذا الكتاب، الذي هو نمط جديد في دراسة السيرة الشريفة، غايته رصد حركة الدعوة والتربية فيها. وقد سبق تقسيمه إلى ثلاثة أقسام، ورأيت أن أضيف في هذه الطبعة قسماً رابعاً تحت عنوان: «**الوصية بالثوابت**» أستكمل فيه ما سبق بيانه.

وهذا الكتاب هو واحد من مجموعة السيرة التي يسَّر الله لي إخراجها، وكان أولها كتاب «من معين السيرة» وهو أول كتاب خطته يدي.

وهنا يحسن بي أن أذكر قصة قد لا تهم القارئ، ولكني أضعها من باب الاعتراف بالجميل، ونسبة الفضل لأهله.

لم أفكر يومًا أن أكون كاتبًا، وإن كنت أخطب الجمعة، وألقي المحاضرات، وأشارك في جوانب أخرى من الثقافة.. واستمر هذا حتى تقدمت بي السنُّ وجاوزت الخامسة والأربعين.

وفي مجلس جمعني مع شيخنا فضيلة الشيخ زهير الشاويش - رحمه الله تعالى - جرى الحديث فيه عن الكتابة والتأليف.. فقلت: إني أفكر في الكتابة في موضوع «السيرة».. فما كان من الشيخ زهير إلا أن شجعني وأكد على ذلك بقوله: أنا بانتظار ما تكتبه لنطبعه..

وكانت معرفتي بالشيخ قديمة، ولكن مثل هذا الحديث لم يكن جرى من قبل، وكان لتشجيعه الفضل في ظهور «من معين السيرة» وما تلاه.

وكان هذا دأب الشيخ مع المبتدئين من أمثالي، وأعرف أكثر من واحد ممن كان للشيخ الفضل عليهم في هذا الشأن، حتى قيل في حق أحدهم: لولا الشيخ زهير ما راح فلان ولا جاء..

لم يكن فضل الشيخ وعمله في الميدان الثقافي قاصرًا على إنشاء «المكتب الإسلامي» ـ ذلك الصرح الذي عمل على نشر العلم والثقافة الإسلامية على مدى نصف قرن ـ بل لقد ساعد بعضهم وأخذ بأيديهم، فساهموا في إثراء العلم ونشره.

والآن، وقد غاب الشيخ عن مسرح الحياة منذ عام ـ رحمه الله ـ فأملنا كبير في ولديه ـ الأستاذين بلال وعلي حفظهما الله ـ أن يكملا المسيرة، وأن يستمر «المكتب الإسلامي» في العطاء كما كان على عهد والدهما رحمه الله.

كانت هذه الكلمة المختصرة وفاء بحق رأيت من واجبي أن أدلي به في مقدمة هذا الكتاب، وهي الفرصة الأولى التي سمحت بذلك.

واللهَ المسؤول أن يتقبل هذا العمل، ويجعله خالصاً له، إنه سميع الدعاء، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

غرة رجب سنة ١٤٣٥هـ
٢٠١٤/٤/٣٠م

وكتبه
صالح أحمد الشامي

مقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، حمداً طيباً مباركاً فيه، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين.

وَبَعْد:

كثيرة هي كتب السيرة...

وهذا دليل على وعي مفكري هذه الأمة لمكانة السيرة وأثرها في إحياء الإسلام في النفوس المؤمنة.

وإني إذ أسهم بهذا البحث في هذا الميدان، فإنه لن يكون بحثاً في السيرة التقليدية التي تعتمد الحديث عن الغزوات أساساً لها، كما أنه لن يكون بحثاً في الشمائل التي تعتمد صفاته ﷺ وأخلاقه أساساً للبحث.

وإنما أحاول رصد حركة الدعوة في السيرة. هذه الحركة التي رُبيت بها أمة وقامت عليها دولة.

وهي محاولة جديدة ـ كما أحسب ـ في بابها، بذلت جهدي في سبيل استكمال خطوطها العريضة. ومع ذلك فإني أشعر بتقصيري، ولعل مما

يشفع لي أنها خطوة على الطريق، لعل الله يهيء لها من يتابعها، أو يتيح لي في الأجل، فأتدارك ما فات.

واللّهَ أسأل ، أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكـريم ، إنه نعم المسؤول، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ربيع الأول ١٤١١ هـ
أيلول ١٩٩٠ م

صالح أحمد الشامي

مَنهج البحث

قسمت هذا البحث إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ويتحدث عن حركة الدعوة في مكة. وفيه ثلاثة أبواب:

الأول: ويتناول الحديث عن مراحل سير الدعوة.

الثاني: ويتحدث عن التربية في المرحلة المكية.

الثالث: ويتحدث عن مسارات التربية وسماتها.

القسم الثاني: ويتحدث عن الهجرة. وفيه فصلان.

الأول: ويبحث أمر الهجرة إلى الحبشة.

الثاني: ويبحث أمر الهجرة إلى المدينة.

القسم الثالث: ويتحدث عن حركة الدعوة في المدينة. وقد قسمتها إلى ثلاث مراحل. وفيه ثلاثة أبواب:

الأول: ويبحث المرحلة الأولى: من الهجرة إلى بـدر.

الثاني: ويبحث المرحلة الثانية: من بدر إلى صلح الحديبية.

الثالث: ويبحث المرحلة الثالثة: من الصلح إلى نهاية العهد النبوي وفي كل من هذه الأبواب الفصول التالية:

- بحث الحياة السياسية والعسكرية.
- بحث الوضع السكاني.
- بحث حركة الدعوة.
- بحث الوضع الاقتصادي.
- بحث التربية.

بين يدي الكتاب

١

إن مهمة «الرسول» هي إيصال «الرسالة».

وبما أن «رسالة الإسلام» هي «منهج الحياة» الذي أراد الله تعالى لعباده أن يسيروا على هديه، كان من رحمته تعالى بعباده أن جعل من مهمة «حامل الرسالة» أن يؤديها بياناً عملياً في واقع الحياة، بكل ما في هذا الواقع من ملابسات ومفاجآت، حتى تكون «حياته» مناراً لعباد الله في كل الظروف وعلى اختلاف الأيام.

وفي القرآن آيات كثيرة تبين هذا المعنى وتؤكده ومن ذلك:

قوله تعالى في سورة الأحزاب:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾[١].

وقوله تعالى في سورة آل عمران:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية الأولى: «هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب في صبره ومصابرته

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٢١.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٣١.

ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه عز وجل..».

ونحن كثيراً ما نستشهد بالآية الكريمة على ضرورة اتباعه ﷺ في كل أمر من أموره، وفي كل عمل من أعماله وفي كل شأن من شؤونه.. بحيث تكون سيرته نصب عيني كل مسلم فيتأسى به ويسير على هديه.

وإذا علمنا أن هذه الآية نزلت في مناسبة غزوة الأحزاب.. علمنا أن هذا التأسي ليس قاصراً على قضايا السلم، بل هو ألزم في أوقات الأزمات، حيث يكون التأسي به ﷺ ثباتاً في الجاش وقوة في الأعصاب وصبراً جميلاً في مواجهة المصاعب. وهذا هو الميدان الأول الذي نزلت الآية الكريمة في مواجهته.

قال سيد قطب رحمه الله: «وقد كان رسول الله ﷺ على الرغم من الهول المرعب والضيق المجهد، مثابة الأمان للمسلمين، ومصدر الثقة والرجاء والاطمئنان، وإن دراسة موقفه ﷺ في هذا الحادث الضخم[1]، لمما يرسم لقادة الجماعات والحركات طريقهم، وفيه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر..».

وتؤكد آية «آل عمران» معنى ما جاءت به آية الأحزاب، وتضيف إليه: أن اتباعه ﷺ والتأسي به، هو التعبير الصادق عن الحب لله تعالى، وهو بالتالي الوسيلة لحصول العبد على محبة الله تعالى له، وتلك هي الغاية التي يسعى إليها كل مسلم ومؤمن.

ونلفت النظر إلى أن الاتباع والتأسي أوسع دائرة من إطاعة الأمر واجتناب النهي، فالتأسي تتبع للأقوال والأفعال، في كل صغيرة وكبيرة، في العادات وفي العبادات، في الفروض والواجبات والمباحات.. في ذات العمل وفي طريقة أدائه، في القول وبالطريقة التي أدي بها هذا القول.. إنه التأسي بالمضمون والشكل.

---

(١) المقصود به غزوة الأحزاب.

ولقد فهم الصحابة رضي الله عنهم هذا المعنى في حياته ﷺ فنقلوا لنا كل ما شاهدوه أو سمعوه منه ﷺ، ونقلوا الطريقة والأسلوب.. طريقة الأكل والشرب والكلام والمشي.. وكل شيء، حتى ما كان من خاصة الإنسان في شؤون بيته.

نقل الصحابة لنا ذلك، وطبقوه تأسياً واقتداء.

فهذا ابن عمر رضي الله عنهما كان يأتي شجرة بين مكة والمدينة فيقيل تحتها ويخبر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك[1].

وهذا ابن عمر يقول: (لبس عمر قميصاً جديداً، ثم دعاني بشفرة فقال: مدَّ يا بني كم قميصي، وألزق يديك بأطراف أصابعي ثم اقطع ما فضل عنها، فقطعت من الكمين من جانبيه جميعاً، فصار فم الكم بعضه فوق بعض، فقلت له: يا أبته لو سويته بالمقص، فقال: دعه يا بني، هكذا رأيت رسول الله يفعل، فما زال عليه حتى تقطع، وكان ربما رأيت الخيوط تساقط على قدمه)[2].

إنه الاتباع والتأسي حتى في الأعمال العادية التي هي من باب المباحات.

* * *

على أن إمعان النظر في الآيتين الكريمتين يؤكد أن هذا التأسي والاتباع لا يصح أن يكون قاصراً على العمل الفردي الذي يقوم به الإنسان لذاته، بل ينبغي أن يتجاوز ذلك ليشمل الاتباع في الأعمال الجماعية، والتي كان ﷺ يقوم بها مع أصحابه.

كما أنه لا ينبغي أن نقف عند النظرة الجزئية التي تتناول سلوكه ﷺ

---

(١) حياة الصحابة للكاندهلوي ٣٥٦/٢ وقال: أخرجه البزار بإسناد لا بأس به، وقال الهيثمي: ورجاله موثقون.

(٢) المصدر السابق ٣٥٤/٢ نقلاً عن أبي نعيم في الحلية ٤٥/١.

من خلال الأعمال كلاً منها على حدة، بل علينا أن ننتقل إلى النظرة الكلية فندرس ترتيب هذه الأعمال والأقوال.. فكل منها كان يأتي في الوقت المناسب..

وبهذا الأسلوب من الدراسة والتتبع نستطيع الاهتداء إلى منهج الحركة..

إن الطريقة التي التزمها ﷺ في دعوته للناس، هي الوحيدة القادرة على الخروج بالناس مرة أخرى من ظلمات الجاهلية كلما عمَّت إلى نور الإسلام.

وحينما ننعم النظر في السيرة العطرة نجد أن الدعوة في مكة استغرقت ثلاثة عشر عاماً. وأن القسم الأكبر من القرآن نزل في مكة. ولم تقم بعدُ دولة، ولم تنزل آيات التشريع.. إنه أمر يستوقف الدعاة لدراسته إذا أرادوا استئناف حياة إسلامية.

إن تربية الأفراد طويلاً سبقت إقامة المجتمع الإسلامي، وإن التدريب على الصبر تربية للنفوس، سبق مطالبتها بالصبر في ميادين القتال.

إن تتبع حركة هذا الدين على يديه ﷺ ومعرفة ترتيبها الأول فالأول في محاولة للتأسي بها في تربية جيل يحمل الإسلام مرة أخرى، واجب على علماء هذه الأمة، ولعله من أول الواجبات.

إن سيرته ﷺ في مكة أو المدينة كانت تسير وفق مخطط إلهي.. وكانت كل خطوة منها جزئية من منهج الحركة في هذا الدين.. ومن الواجب التعرف على سير الحركة في هذا المخطط لنسلك السبيل السوي في الدعوة إلى الله تعالى.

إننا بحاجة إلى دراسة متأنية للسيرة لا باعتبارها أعمالًا وأقوالاً فحسب وإنما باعتبار هذه الأعمال والأقوال وردت في ترتيب زمني، ووفق أوليات روعي فيها الوضع النفسي وغيره للجماعة المسلمة.

إنه الجانب الآخر من التربية النبوية في إطارها الكلي، لا بد من البحث والدراسة لوضعه في متناول الأيدي المخلصة في دعوتها إلى الله عز وجل.

٢

(إنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها)[١].

تلك كلمة قالها إمام دار الهجرة، مالك بن أنس، رحمه الله، وهي تمثل النظرة الثاقبة التي ترشد إلى طريق الإصلاح. وما هي إلا المفهوم الواعي لما ورد من قوله ﷺ: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما، كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم»[٢].

والكتاب والسنة كانا مادة صلاح الأول..

على أن هذا الصلاح لم يكن دفعة واحدة، أو قفزة واحدة.. وإنما كان تربية خطت خطواتها على مراحل، بل إن القضية الواحدة ربما تناولها القرآن أو السنة على مراحل، وما قضية تحريم الخمر بخافية على القارىء الكريم.

وإذن، فهناك المادة التي يكون بها الصلاح، وهناك الطريقة لاستعمال هذه المادة، إنه لا يكفي أن نعرف الدواء بل لا بد من معرفة كيفية الاستعمال.

وإذا كان الأمر كذلك فإننا نؤكد على ضرورة التعرف على منهج الحركة في سيرته ﷺ حتى يتسنى لنا الاتباع بعد المعرفة، فنكون على هدي من السنة الشريفة في الموضوع وفي الشكل. وبهذا يصلح الآخر بما صلح به الأول.

---

(١) كتاب الشفا، للقاضي عياض، تحقيق البجاوي (٦٧٦/٢).
(٢) الموطأ، رقم الحديث (١٦٦٢).

القسم الأوّل

حركةُ الدَّعوةِ في مكّة

تركز الجهد في حركة الدعوة في مكة ـ والتي استمرت ثلاثة عشر عاماً ـ على إنشاء القاعدة الصلبة، التي أعدت لتساهم في تحمل مسؤولية العمل فيما بعد.

وكان الجهد مركزاً على تربية الأفراد تربية إيمانيـة تجعلهم قادرين على القيام بما يسند إليهم من مهـام. يحركهم الإيمان الذي استقر في قلوبهم، غايتهم رضوان الله تعالى.

وسوف يكون حديثنا عن ذلك من خلال ثلاثة أبواب:

الباب الأول

مراحل سير الدعوة في مكة

نحاول في هذا الباب بيان سير الدعوة بشكل عام إبان المرحلة المكية، والذي يبدو لي أنه يمكن تقسيمها إلى مرحلتين:

الأولى: وتنتهي بإسلام عمر رضي الله عنه.

والثانية: وتبدأ بعد ذلك وتستمر حتى بدء الهجرة إلى المدينة.

وقد دفعني إلى اعتبار إسلام عمر رضي الله عنه الحد الفاصل بين هاتين المرحلتين:

١ ــ لأن المسلمين قد عزّوا في أنفسهم بعده. فقد قال ابن مسعود: كان إسلام عمر عزاً وهجرته نصراً وإمارته رحمة، والله ما استطعنا أن نصلي حول البيت ظاهرين حتى أسلم عمر.

وقال صهيب: لما أسلم عمر قال المشركون: انتصف القوم منا.

٢ ــ وبإسلام عمر رضي الله عنه انتهى دور دار الأرقم التي كانت المركز السري إذ لا نجد لها ذكراً بعد ذلك.

ومن هذا المنطلق فإننا سنتحدث عن موضوع هذا الباب في فصلين:

الأول: ونتحدث فيه عن فترة الاستخفاء.

الثاني: ونتحدث فيه عن الجهر بالدعوة.

الفصل الأول

الاستخفاء بالدعوة

الدعوة سراً:

يذهب كثير من كتاب السيرة إلى اعتبار السنوات الثلاث الأولى التي أعقبت نزول الوحي عليه ﷺ فترة سرية بدأت الدعوة حياتها بها، وعلى هذا فقد بدأ ﷺ دعوته سراً.

ولا نجد تفصيلاً لما حدث في هذه السنوات الثلاث في المصادر، فهي لم تتوقف طويلاً عند ذكر هذه المدة، بل لم تفرد لها عنواناً مستقلاً، أو فصلاً خاصاً، وإنما ورد الحديث عنها مجملاً ضمن الحديث عن الدعوة.

فابن هشام - على سبيل المثال - يقول نقلاً عن ابن إسحاق: ثم إن الله عز وجل أمر رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه منه، وأن ينادي الناس بأمره، وأن يدعو إليه، وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين - فيما بلغني - من مبعثه..[1].

وأغفلت بعض المصادر ذكر هذه الفترة إغفالاً تاماً[2].

---

(١) السيرة النبوية، لابن هشام ١/٢٦٢.

(٢) ومن هذه المصادر: مغازي رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير (النسخة المستخرجة جمع وتحقيق الدكتور محمد مصطفى الأعظمي، من منشورات مكتب التربية العربي.

وقريباً من ذلك فعل ابن حزم في كتابه «جوامع السير» فإنه بعد ذكر المسلمين الأوائل، وقد عدَّ منهم ما يزيد على الأربعين قال: «ثم أعلن رسول الله بالدعاء إلى الله عز وجل، وجاهرته قريش بالعداوة والأذى...» ص ٥١.
=

لم يستخف ﷺ بدعوته:

والذي يبدو لي من الرجوع إلى النصوص ومقارنتها، أن النبي ﷺ لم يتأخر عن إعلان دعوته إلى الناس حسب ما أمره الله تعالى به يوماً واحداً، وليس في القرآن الكريم ما يشير إلى ما اصطلح عليه باسم «الدعوة السرية»، بل إننا نرى الآيات الكريمة الآمرة بالدعوة صريحة واضحة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾[1] ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾[2] ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[3]، ومن اليقين الذي لا شك فيه، أنه ﷺ قام بتنفيذ هذه الأوامر فور صدورها[4].

ولهذا المعنى ـ والله أعلم ـ لم يتوقف الإمام ابن القيم عند ما نسميه «الدعوة السرية» عندما تحدث عن مراحل جهاده ﷺ، بل قال: «وشرع [ﷺ] في الجهاد من حين بعث إلى أن توفاه الله عز وجل، فإنه لما نزل عليه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنذِرْ ۞ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۞ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ شمر عن ساق الدعوة، وقام في ذات الله أتم قيام، ودعا إلى الله ليلاً ونهاراً،

= فكلمة «أعلن» هي الكلمة الوحيدة التي تشير إلى أنه قبل ذلك لم يكن في حالة من الإعلان، وهذا لا يعني أنه كان في حالة من السر، فقد لا يعلن الإنسان عن أمر ومع ذلك لا يتوخى السرية فيه.

(١) سورة المدثر: الآيتان ١ ـ ٢. (٢) سورة الحجر: الآية ٩٤.

(٣) سورة الشعراء: الآية ٢١٤.

(٤) مما ورد ـ على سبيل المثال ـ بشأن آية الشعراء، ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما، عن ابن عباس قال: لما أنزل الله عز وجل: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ أتى النبي ﷺ الصفا، فصعد عليه ثم نادى: يا صباحاه، فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه، وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله ﷺ: «يا بني عبدالمطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟»، قالوا: نعم، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد». فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا؟ وأنزل الله: ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾.
وهكذا كانت مبادرته ﷺ سريعة لتنفيذ الأمر وكذلك شأنه في كل أوامر الله تعالى.

وسراً وجهاراً، ولما نزل عليه: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ ﴾ فصدع بأمر الله لا تأخذه فيه لومة لائم، فدعا إلى الله الصغير والكبير، والحر والعبد، والذكر والأنثى، والأحمر والأسود، والجن والإنس..»[1].

وأستطيع أن أؤكد ما ذهبت إليه بما رواه ابن هشام عن إسلام أبي بكر إذ قال: «فلما أسلم أبو بكر رضي الله عنه أظهر إسلامه ودعا إلى الله ورسوله»[2]. ومن المعروف أن أبا بكر رضي الله عنه من أوائل من أسلم إن لم يكن أول المسلمين، فكيف يُظهر إسلامه في الفترة التي افترض أن تكون سرية؟!.

إننا على يقين من أن الرسول ﷺ لم يستخفِ بدعوته في يوم من الأيام، منذ كلف بها[3]. وإن كانت في البدء موجهة إلى من يتوسم بهم الاستجابة وعدم الإنكار.

وهذا يفسر لنا عدم تظاهر قريش بالعداوة من اليوم الأول، وإنما استمعت وسكتت، ولعلها ظنت النبي ﷺ واحداً من المتألهين الذين عرفوا قبله ﷺ باسم الحنفاء. أمثال زيد بن عمرو بن نفيل، والذين لم يقف أحد في وجههم، بل تركوا وشأنهم.

قال ابن إسحاق: «فلما بادى رسول الله ﷺ قومه بالإسلام، وصدع به

(١) زاد المعاد، لابن القيم ١٢/٣ بتحقيق شعيب الأرنؤوط وعبدالقادر الأرنؤوط.
(٢) سيرة ابن هشام ٢٤٩/١.
(٣) ذهب إلى هذا الرأي الأستاذ محمد عزة دروزة في كتابه «سيرة الرسول صورة مقتبسة من القرآن الكريم» فقال: «إن الدعوة بدأت علنية وبقوة، خلافاً لما روي أنها بدأت سرية.. وكل ما يمكن أن يقال إزاء ما ورد في الروايات التي تروي أقوال بعض أصحاب رسول الله، مثل ما روي في قصة إسلام عمر حيث سأل: (أنحن على حق أم باطل، فقال له رسول الله ﷺ: «بل على حق»، فقال: ففيم التخفي إذن).. أن النبي ﷺ حماية لأصحابه كان يلزم الحذر والتحفظ في الصلاة والاجتماع بهم، غير أن دعوته للناس كانت وظلت جهرة، وهذا هو المعقول المتسق مع هدف الدعوة وإيمان النبي بالله ورسالته» ١٥٤/١ - ١٥٥.

كما أمره الله، لم يبتعد منه قومه ولم يردوا عليه ـ فيما بلغني ـ حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه وأجمعوا خلافه وعداوته»[1].

وإذن فقد بدأ ﷺ دعوته قوية صريحة، وقد أسلم عدد لا بأس به يقرب أو يزيد على عشرين صحابياً وصحابية ـ وهم الذين جاء في تراجمهم أن إسلامهم كان قبل دخول دار الأرقم[2] ـ ثم وقفت قريش في وجه الدعوة فاتخذ ﷺ دار الأرقم لا ليستخفي هو فيها، فقد كانت قريش كلها تعلم بدعوته، وإنما ليتيح لأتباعه الجدد الاستخفاء لدفع العدوان عن أنفسهم وقتاً ما[3]، ولأغراض أخرى سنتحدث عنها قريباً إن شاء الله.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٢٦٤.

(٢) ممن ذكر في إسلامهم أنه كان قبل دخول دار الأرقم:
خديجة أم المؤمنين، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن حارثة، وأبو بكر، وعثمان، والزبير، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيدالله، وأبو عبيدة بن الجراح، وأبو سلمة، والأرقم بن أبي الأرقم، وعبيدة بن الحارث، وسعيد بن زيد وزوجه فاطمة، وابن مسعود، وعياش بن أبي ربيعة، وعبدالله بن جحش، ومعمر بن الحارث، وحاطب بن عمرو، وواقد بن عبدالله بن مناف، وعثمان بن مظعون، وأخواه: عبدالله وقدامة، وعامر بن ربيعة، وخنيس بن حذافة.

(٣) هذا ما نراه الصواب في هذه القضية، ولا يعكر علينا النص الذي جاء في البداية نقلاً عن ابن إسحاق ٣/٢٤، والذي ينص على توقف علي حين دعي إلى الإسلام فقال له النبي ﷺ: «يا علي، إذا لم تسلم فاكتم..» وكره ﷺ أن يفشي سره قبل أن يستعلن أمره..
والجواب على هذا: أن هذا الخبر لم يورده ابن هشام، وربما كان ذلك لمطعن فيه، ثم إن هذا الخبر ورد في آخره ما يناقض الواقع. ففي تتمة الخبر: ففعل علي وأسلم ومكث يأتيه على خوف من أبي طالب وكتم علي إسلامه ولم يظهره. اهـ. ونتساءل لماذا الخوف من أبي طالب، وعليّ في هذه الفترة إنما كان يعيش مع الرسول ﷺ. كما نص عليه ابن هشام ١/٢٤٦.
وقد أورد ابن كثير بعد هذا الخبر مباشرة خبراً آخر من رواية ابن إسحاق بسنده يؤكد أن علياً كان في هذه الفترة في حجر النبي ﷺ.. وفي الخبر أيضاً أن أخ الأشعث بن قيس لأمه واسمه عفيف، كان تاجراً له علاقة بالعباس، فالتقيا أيام الحج قال: فبينا نحن إذ خرج رجل من خباء فقام يصلي تجاه الكعبة ثم خرجت امرأة فقامت تصلي وخرج غلام يصلي معه فقلت: يا عباس ما هذا الدين؟ فقال: =

دار الأرقم:

اتخذ الرسول ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم(1) - أحد المسلمين الأوائل - مركزاً لدعوته. ولا نعلم متى كان ذلك، وكل ما بين أيدينا يدل أن اتخاذها كان بعد إسلام عدد لا بأس به.

ويغلب على الظن أن اتخاذ هذه الدار إنما كان بعد أن أظهرت قريش عداوتها وصبت غضبها على بعض من أسلم.

وقد استمرت هذه الدار في أداء دورها الفعال حتى إسلام عمر بن الخطاب فيها، في ذي الحجة سنة ست من المبعث(2). وكان ذلك آخر العهد بها، إذ لم نسمع بعد ذلك ذكراً لها في حوادث السيرة. «فقد عزَّ أصحاب رسول الله ﷺ في أنفسهم حين أسلم عمر بعد إسلام حمزة» كما قال ابن هشام(3).

وقد شهدت هذه الدار إسلام ما يقرب من أربعين صحابياً، منهم عمار وصهيب، فقد أخرج ابن سعد عن أبي عبيدة بن محمد بن عمار قال: قال عمار بن ياسر رضي الله عنه (لقيت صهيب بن سنان على باب دار الأرقم، ورسول الله فيها، فقلت له ما تريد؟ قال لي: ما تريد أنت؟ فقلت: أردت أن أدخل على محمد فأسمع كلامه، قال: وأنا أريد ذلك، فدخلنا

= هذا محمد يزعم أن الله أرسله.. فقال عفيف: ليتني كنت آمنت يومئذ فكنت أكون ثانياً.

وروى هذا الخبر ابن جرير. وفيه دلالة على نفي ما جاء من طلب السرية - كما في الخبر الأول - فالذي يطلب السرية لا يخرج ليصلي أمام الناس.

(1) كانت هذه الدار على الصفا، وقد أسلم فيها ما يقرب من أربعين صحابياً، وكان آخرهم عمر، وعلى هذا فقد كان إسلام عمر رضي الله عنه بعد ما يزيد على ستين صحابياً.

(2) كما ذكره ابن سعد عن ابن المسيب، وحكى ابن الجوزي الاتفاق عليه [شرح الزرقاني على المواهب ١/٢٧٢].

(3) سيرة ابن هشام ١/٣٤٦.

عليه فعرض علينا الإسلام، ثم مكثنا يوماً على ذلك حتى أمسينا، ثم خرجنا ونحن مستخفون..)[1].

كما شهدت إسلام إياس وعامر ابني البكير وغيرهم..

ولم تكن دار الأرقم وحدها هي مكان اللقاء، وإن كانت ـ فيما يبدو ـ مكان توزيع المهمات، وبيان ضم بعض الصحابة إلى بعض[2] وغير ذلك، وكان هناك أماكن أخرى.

ففي أول مقام خطب به أبو بكر، في بدء الدعوة، ضرب ضرباً شديداً.. ثم حمل إلى بيته، وهم لا يشكون في موته، فلما أفاق سأل أمه عن رسول الله ﷺ فقالت: والله ما لي علم بصاحبك، فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب.. وجاءت أم جميل.. فسألها أبو بكر عن مكان رسول الله ﷺ.. فقالت: إنه في دار الأرقم[3].

وسؤال أبي بكر عن مكان وجود رسول الله ﷺ ـ وهو الرجل الذي قلما يفارقه ـ يعني أن هناك أكثر من مركز يلتقي به المؤمنون سراً، ويكون تحديد اللقاء في أحدها آنياً، وإلا فكيف تعرف أم جميل المكان ويجهله أبو بكر وهو لم يغب في هذه الحادثة عن رسول الله ﷺ إلا يوماً واحداً.

إن هذا ليدلنا على تعدد أماكن اللقاء بالنبي الكريم، وإلا فدار واحدة مثل دار الأرقم ستكون مكشوفة لقريش لو كان تردد المسلمين إليها يومياً كما هو الواقع الذي كان، من اجتماع الصحابة بالنبي صلى الله عليه وسلم.

لم يكن الاستخفاء عاماً:

قلنا إن النبي ﷺ لم يستخف بدعوته، وإنما أذن بذلك لبعض المسلمين مراعاة للأوضاع القاسية التي كان يتلقاها الذين يعلنون إسلامهم.

---

(١) طبقات ابن سعد ٣٤٧/٣.

(٢) كما حدث في ضم خباب بن الأرت إلى سعيد بن زيد.

(٣) انظر في تفصيل هذه الحادثة كتاب (من معين السيرة) للمؤلف ص ٦٢ ـ ٦٤.

وقد رأينا كيف أن أبا بكر أعلن إسلامه من يومه الأول، وأغلب الظن أن أكثر الذين أسلموا قبل دخول دار الأرقم كانوا قد استعلنوا بإسلامهم.

ومما يؤكد لنا إعلان عدد من المسلمين إسلامهم خلال هذه المرحلة المبكرة انتشار ذكر الإسلام حتى تجاوز مكة إلى أماكن أخرى ليست قريبة منها، ونكتفي بذكر الخبرين التاليين دلالة على ذلك.

١ ـ روى كل من البخاري ومسلم قصة إسلام أبي ذر في هذه المرحلة المبكرة، وفيها أنه أرسل أخاه يعلم له الخبر فلم يشفه.. فذهب إلى مكة يلتمس النبي ﷺ.. وكره أن يسأل عنه أحداً.. وبعد ثلاثة أيام قال له علي: (ما الذي أقدمك هذا البلد؟ قال: إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني فعلت، ففعل، فأخبره، فقال:.. فإذا أصبحت فاتبعني، فإني إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأني أريق الماء، فإن مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي، ففعل، فانطلق يقفوه حتى دخل على النبي ﷺ ودخل معه. وأسلم مكانه، فقال له النبي ﷺ: «ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري»، فقال: والذي نفسي بيده، لأصرخن بها بين ظهرانيهم، فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وثار القوم فضربوه..)[1].

ونتساءل لو كانت هذه المرحلة سرية مطلقة، فكيف وصل الخبر بظهور النبي ﷺ إلى سمع أبي ذر وهو في مضارب قومه؟.

٢ ـ وروى مسلم عن أبي أمامة قال: (قال عمرو بن عَبَسَةَ السلمي: كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً، فقعدت على راحلتي، فقدمت عليه، فإذا رسول الله ﷺ مستخفياً[2]، جُرءاء[3] عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة..)[4].

(١) رواه مسلم برقم ٢٤٧٤ والبخاري برقم ١٦٥٨.
(٢) بيَّنا فيما سبق المقصود من استخفائه صلى الله عليه وسلم.
(٣) جمع جريء. (٤) رواه مسلم برقم ٨٣٢.

ونتساءل مرة أخرى: كيف وصل الخبر إليه وهو بعيد عن مكة؟ لا شك بأن الاستخفاء كان لمن يرغب به.. ولو لم يكن كذلك لمنع النبي ﷺ أبا ذر - كما مر في الحديث السابق - من إعلان إسلامه.

الحكمة من فترة الاستخفاء:

تبين لنا مما سبق أن هذه الفترة استمرت حتى نهاية العام السادس من البعثة، يوم أسلم عمر، وظهر المسلمون، وانتهى دور دار الأرقم فيما يبدو.

وفي هذه الفترة كان الناس بين معلن ومستخف، فهذا عمر بن الخطاب قبل إسلامه يلتقي بأم عبدالله بنت أبي حثمة، زوج عامر بن ربيعة وهي تعد نفسها للرحيل مع زوجها إلى الحبشة، فيقول لها: إنه للانطلاق يا أم عبدالله؟ قالت: فقلت: نعم والله لنخرجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا.. إنها وزوجها بكل هذا الوضوح تعلن عن الخروج.. وعمر نفسه يوم أسلم بعد ذلك لم يكن يدري أن أخته وزوجها قد أسلما.. إنها قضية كانت متروكة للأفراد الذي يسلمون، فيكون إعلان إسلامهم حسب رغبتهم.

وإن الباحث في هذه الفترة من حياة الدعوة يجد أن هذا الاستخفاء كان ينطوي على أكثر من فائدة ومصلحة للمسلمين ومن ذلك:

١ ـ **إيصال المعلومات:** إن آيات القرآن الكريم كانت تنزل يتبع بعضها بعضاً وفيها التوجيهات الإلهية الكريمة، وكان لا بد لكل فرد مسلم من معرفة ذلك، فهذه الآيات هي التي تقود الجماعة في طريق الحق.. وقد وقفت قريش عقبة في سبيل هذا التبليغ، وقد حكى القرآن هذا الموقف، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾[1] وإذا كان هذا موقفهم فكيف يسمحون للرسول الكريم بالاجتماع بأصحابه ليبلغهم الوحي..؟.

---

(١) سورة فصلت: الآية ٢٦.

وفي سبيل هذا التبليغ كان المسلمون منقسمين إلى جماعات صغيرة يلتقون في البيوت على قراءة كلام الله تعالى وحفظه، ومن لا يستطيع الوصول إلى دار الأرقم كانت تصله الآيات مكتوبة، ويصل إليه من يتلوها عليه ويعلمه إياها. . وقد رأينا النموذج الواضح لهذه الجماعات في اجتماع سعيد بن زيد وزوجته فاطمة وخباب بن الأرت ورجل آخر لم يسمَّ حينما طرق الباب عليهم عمر وهم يقرؤون القرآن ويتدارسونه.

٢ ـ **تخفيف آلام الصحابة**: كانت عمليات القهر والإيذاء قائمة لمن عرف إسلامه وكان هؤلاء يأتون إلى دار الأرقم، أو إلى حيث يكون رسول الله ﷺ فيخفف آلامهم ويمسح جراحهم ويثبتهم. . وقد جاء أبو بكر يوماً بعد أن ضرب ضرباً شديداً في المسجد، جاء إلى دار الأرقم. . فأكب عليه رسول الله ﷺ فقبله. . ورق له رقة شديدة[1].

٣ ـ **الابتعاد عن الفتنة**: من واقعية هذا الدين أنه لا يطلب من الناس ما لا يطيقون، وبما أن الناس ليسوا جميعاً في مستوى واحد في قدرتهم على تحمل الفتنة، فإن الاستخفاء يتيح لبعضهم بعض الأمن ولو إلى مدة من الزمن قبل أن يكتشف أمرهم، وقد كان ﷺ حريصاً على إبعاد الأذى عن أتباعه ما أمكنه ذلك.

٤ ـ **التدرب والاستعداد**: وتعد فترة الاستخفاء مرحلة تدرب على واقع جديد يتدرب فيه المسلم على المفاهيم الجديدة، كما يتعرف على أعضاء مجتمعه الجديد، مما يقوي صلة المسلمين ببعضهم، ويرفع من معنوياتهم. . وهذا ما يجعلهم أكثر قدرة على تحمل البلاء عند وقوعه إذا ما انكشف أمرهم.

٥ ـ **رصد حركة الأعداء**: وكان من فوائد الاستخفاء رصد حركة أعداء الدعوة بحيث تستطيع الجماعة أخذ زمام المبادرة في الحذر منهم، وإبطال ما يسعون له.

---

(١) انظر (من معين السيرة) ص ٦٩ ـ ٧٢.

والمثال القريب لذلك، ما فعله نعيم بن عبدالله النحام، فإنه لما رأى عمر متوشحاً سيفه، شك في أمره وارتاب في مقصده مما دفعه إلى سؤاله فقال: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد هذا الصابىء.. فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ فقال: وأي أهل بيتي؟ قال: ابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة.

إن استخفاء نعيم بإسلامه أتاح له أن يحوِّل هذا التيار القوي عما أراده إلى وجهة أخرى، وأن يهون له من شأن نفسه التي تعاظمت، ولو كان معلناً إسلامه لما استطاع أن يتعرض له، فضلاً عن أن يثنيه عن عزمه.

الفصل الثاني

الجهر بالدعوة

نتناول في هذا الفصل أمر الجهر بالدعوة، فنبحث أولاً حركة جهره ﷺ بالدعوة، ومراحل تصعيد هذا الجهر، ثم نبحث مشاركة الصحابة رضي الله عنهم ودورهم في هذا الميدان.

جهره ﷺ بالدعوة:

رأينا في الفصل السابق كيف أنه ﷺ أعلن عن مهمته دون تأخيرٍ يومَ نزل الوحي يطالبه بالقيام بمهمة الإنذار.

ورأينا أن الدعوة قد بدأت هادئة قبل إنكار قريش. . ، وفي ظل تلك الفترة كان إسلام من أسلم قبل دخول دار الأرقم.

ثم كان دخول دار الأرقم عقب وقوف قريش في وجه الدعوة وصدها عن سبيل الله، وقد ظلت هذه الدار مركزاً من مراكز اللقاء بين النبي ﷺ وبين أتباعه حتى نهاية العام السادس من البعثة.

ولكن هذا لا يعني أن الرسول الكريم ظلت دعوته محصورة في إطار قريش وأهل مكة. فإن النصوص التي بين أيدينا تبين أنه ﷺ مع مطلع العام الرابع من بعثته اتجه إلى إعلان دعوته والجهر بها إلى غير قريش حيث بدأ يفتش عن قوم يحمونه حتى يبلغ دعوة الله تعالى.

أخرج الإمام أحمد عن جابر قال: (مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم: عكاظ ومجنة، وفي المواسم، يقول: «من يؤويني؟ من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة»، فلا يجد أحداً يؤويه

ولا ينصره، حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر فيأتيه قومه وذوو رحمه فيقولون: احذر غلام قريش لا يفتنك، ويمضي بين رحالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع..)[1].

وأخرج أبو نعيم في دلائل النبوة (ص ١٠١) عن عبدالله بن كعب بن مالك رضي الله عنهما قال: (أقام رسول الله ﷺ ثلاث سنين من نبوته مستخفياً، ثم أعلن في الرابعة، فدعا عشر سنين، يوافي الموسم يتبع الحاج في منازلهم بعكاظ ومجنة وذي المجاز، يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالة ربه عز وجل ولهم الجنة، فلا يجد أحداً ينصره، حتى إنه يسأل عن القبائل ومنازلهم قبيلة قبيلة..)[2].

إن هذين الخبرين وغيرهما يبينان أن دعوته ﷺ كانت في الأعوام الثلاثة الأولى قاصرة على أهل مكة، ثم بدأ يتطلع إلى غير قريش مع مطلع العام الرابع واستمر كذلك عشر سنين وهي بقية إقامته في مكة، وما ذاك إلا لما رآه من العناد والمقاومة لدعوته من أهل مكة.

ولقد وجد ﷺ في مواسم الحج، ومواسم الأسواق قبل الحج وبعده فرصة مناسبة لعرض دعوته، كما رأينا في النصين السابقين..

ومما يلفت النظر في عرضه ﷺ نفسه على القبائل، أنه لم يعد يطلب إيمان الذين يعرض عليهم أمره، وإنما كان يطلب منهم إيواءه ونصرته حتى يبلغ الرسالة، إنه يطلب حمايته لتأمين حرية الكلمة وإيصالها إلى الأسماع، وهو لا يلزم أحداً بقبول ما جاء به..

---

(١) حياة الصحابة للكاندهلوي ٢٤٥/١، وقال: وقد رواه أحمد أيضاً والبيهقي من غير هذا الطريق أيضاً، وهذا إسناد جيد على شرط مسلم ولم يخرجوه، كذا في البداية ١٥٩/٣.
وقال الحافظ في فتح الباري ١٥٨/٧: إسناده حسن، وصححه الحاكم وابن حبان.
وقال الهيثمي ٤٦/٦: ورجاله أحمد رجال الصحيح.

(٢) حياة الصحابة للكاندهلوي ٩٢/١.

ولقد بذل ﷺ جهوداً مضنية في هذا المجال ولكن المقاومة الإعلامية التي نظمتها قريش كانت تحول دون الوصول إلى ثمرة ما.

روى الإمام أحمد وغيره عن ربيعة بن عباد من بني الدئل - وكان جاهلياً فأسلم - قال: (رأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول: «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضيء الوجه أحول، ذو غديرتين يقول: إنه صابىء كاذب، يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه فقالوا: هذا عمه أبو لهب)(١).

قال ابن إسحاق: فكان رسول الله ﷺ على ذلك من أمره، كلما اجتمع له الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام، ويعرض عليهم نفسه، وما جاء به من الهدى والرحمة، وهو لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصدى له، فدعاه إلى الله، وعرض عليه ما عنده(٢).

واستمر رسول الله ﷺ على دعوته تلك حتى العام العاشر من البعثة، وفيه توفي عمه أبو طالب، الذي بذل في حمايته الشيء الكثير، وعندها نالت قريش من النبي ﷺ من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياته.. وعندها فكر في البحث عن مكان لدعوته خارج مكة.

وكانت الطائف أقرب المدن إلى مكة.. وخرج إليها يبحث عن أرض صلبة يقيم عليها بناء دعوته، ولكنه قوبل برد سيء ومعاملة قاسية.. وعاد ثانية إلى مكة ليتابع بذل الجهد.. عسى الله أن يأتي بالفرج من عنده..

وكان ذلك في موسم العام الحادي عشر من البعثة حيث كانت البيعة الأولى مع الأنصار.. وكانت الهجرة بعد ذلك.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١٣٩/٣.
(٢) سيرة ابن هشام ٤٢٥/١.

جهر الصحابة بالدعوة:

بالنسبة للصحابة ـ رضي الله عنهم ـ هناك جهر بالإسلام، وهناك جهر بالدعوة، وما الجهر بالإسلام ـ في بدء هذه الفترة ـ إلا الدعوة القوية إليه بلسان الحال وهو أبلغ من لسان المقال.

وقد بينا في الفصل السابق أن أمر الاستخفاء بالإسلام من قبل بعض الصحابة الأول قد انتهى مع إسلام عمر وهذا لا يعني أن الصحابة لم يظهروا إسلامهم حتى ذلك الوقت، بل إن القلة هي التي ظلت مستترة بإسلامها حتى ذلك الوقت.

إن عمليات التعذيب التي نظمت ضد المسلمين قد بدأت بعد بدء الدعوة بقليل.. وما تلقي العذاب والصبر عليه إلا الإعلان القوي عن هذا الجهر.

ولما اشتد البلاء.. وجّه الرسول ﷺ أصحابه إلى الهجرة إلى الحبشة.. وكانت هذه الهجرة الإعلان الثاني عن الانتماء القوي لهذا الدين..

ثم كان إسلام عمر بعد إسلام حمزة رضي الله عنهما الدافع القوي لاستعلان البقية الباقية ممن لم يظهر إسلامه حتى ذلك الوقت(١).

لا شك بأن هذه الأساليب ـ التعذيب.. الهجرة ـ في الإعلان عن الإسلام كانت من القوة بحيث تصل إلى قلوب المشركين فتضعهم أمام سؤال مهم هو: ما هو هذا الدين الذي يتحمل معتنقوه كل هذا الابتلاء في سبيله، بل ويغادرون وطنهم من أجله..؟ وكفى بهذا من جهر عملي بالإسلام، دعوة إلى هذا الدين.

وما من شك في أن المسلمين الأوائل قاموا بدور فعال في الدعوة إلى

---

(١) قال عبدالله بن مسعود: ما كنا نقدر أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه [سيرة ابن هشام ٣٤٢/١ ورواه ابن أبي شيبة والطبراني كما في شرح الزرقاني على المواهب ٢٧٧/١].

هذا الدين، فهذا أبو بكر رضي الله عنه يدعو عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبدالرحمٰن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله، فلما استجابوا له جاء بهم إلى رسول الله ﷺ حيث أعلنوا إسلامهم..

ولقد كانت الدعوة مهمة كل مسلم.. فكان الواحد منهم إذا توسم الخير في إنسان دعاه إلى الإسلام فإن استجاب وجهه إلى دار الأرقم حيث يلتقي بالرسول ﷺ وقد رأينا كيف التقى عمار وصهيب على باب دار الأرقم دون موعد، وسأل كل منهما الآخر عن سبب مجيئه.. ونسأل: كيف عرف كل منهما مكان الرسول الكريم لولا أن الذين دعوهما أعلموهما بذلك.

على أن الدعوة من الصحابة لم تبق في هذه الحدود الفردية، ولكنها تجاوزت ذلك لتدخل دور الدعوة العامة. ونكتفي بمثالين على ذلك.

● قال ابن إسحاق وحدثني يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه قال: كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: اجتمع يوماً أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط(١)، فمن رجل يسمعهموه؟ فقال عبدالله بن مسعود: أنا، قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه، قال: دعوني فإن الله سيمنعني. قال: فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتها، حتى قام عند المقام، ثم قرأ ﴿بسم الله الرحمٰن الرحيم﴾ رافعاً بها صوته ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ..﴾ قال: ثم استقبلها يقرؤها. قال: فتأملوه، فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أم عبد؟ قال: ثم قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد، فقاموا إليه، فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه، وقد أثروا في وجهه، فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك، فقال: ما كان أعداء الله أهون علي منهم الآن، ولئن شئتم

---

(١) أي من غير الرسول صلى الله عليه وسلم.

لأغادينهم بمثلها غداً، قالوا: لا، حسبك، قد أسمعتهم ما يكرهون[1].

● جاء في البداية: عن القاسم بن محمد عن عائشة قالت: لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً ألح أبو بكر على رسول الله ﷺ في الظهور، فقال: «يا أبا بكر إنا قليل»، فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله ﷺ، وتفرق المسلمون في نواحي المسجد، كل رجل في عشيرته، وقام أبو بكر في الناس خطيباً، ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله ورسوله ﷺ، وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين. .[2].

حدث هذا والمسلمون ما زالوا في دار الأرقم.

* * *

نستطيع القول بأنه بعد الخروج من دار الأرقم، قد أصبح للمسلمين في مكة وجودهم الظاهر، وأصبح عددهم لا بأس به، الأمر الذي وجدت فيه قريش خطراً على كيانها، فصعَّدت من عمليات الإيذاء. .

وهذا ما دعا النبي ﷺ إلى توجيه أصحابه إلى الهجرة إلى الحبشة للمرة الثانية. . وكان عدد المهاجرين كبيراً، كان عدد الرجال يزيد على الثمانين وبلغ عدد النساء ثماني عشرة امرأة. .

وعلى الرغم من قلة الذين لم يهاجروا إلى الحبشة في المرة الثانية، فإن الأخبار تبين الوجود الظاهر للمسلمين في مكة، وإصرارهم على ممارسة حياتهم بشكل صحيح، يملأ نفوسهم إرادة قوية وإيمان صادق يجعلهم لا يكترثون بالضغوط مهما كان حجمها.

فهذا أبو بكر يردّ جوار ابن الدغنة الذي أجاره حين أراد الخروج إلى الحبشة، يردّه لأن قريشاً أرادت منعه من جهره بتلاوة القرآن الكريم في المسجد الذي ابتناه في بيته لنفسه. .

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٣١٤ - ٣١٥.

(٢) البداية والنهاية ٣/٣٠.

وهذا عثمان بن مظعون ـ بعد عودته من الحبشة ـ يرد جوار الوليد بن المغيرة مكتفياً بجوار الله تعالى.

ولم تعد لقريش الهيبة التي كانت من قبل وانحسر الخوف من نفوس المسلمين وتدربوا على تحمل الآلام..

وبات المسلمون يلتقون بالنبي الكريم في كل وقت، وفي المسجد الحرام، وعلى رؤوس الأشهاد.

فهذا خباب بن الأرت يأتي إلى الرسول ﷺ ـ كما في البخاري ـ وهو متوسد في ظل الكعبة، يطلب منه الدعاء، بعد أن لقي هو والمسلمون الشدة من المشركين..[1].

وأصبحت لقاءات النبي الكريم بأصحابه علنية، وقد سجل القرآن واحداً منها، وما هو إلا مثل للواقع الاجتماعي يومئذ، وأن المسلمين يجتمعون في وضح النهار.

قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۞ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[2].

---

(١) روى البخاري برقم ٣٦١٢ عن خباب بن الأرت قال: (شكونا إلى رسول الله ﷺ ـ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة ـ قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: «كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالميشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاك الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه. والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»).

(٢) سورة الأنعام: الآيتان ٥١ ـ ٥٢.

قال ابن كثير: روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: (مر الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده خباب وصهيب وبلال وعمار، فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء؟ فنزل فيهم ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ . . ﴾).

وروى مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: (كنا مع النبي ﷺ ستة نفر فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا. قال: وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل وبلال، ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾)[1].

وهكذا نجد أن ستة نفر من المسلمين يجتمعون بالنبي الكريم على مرأى ومسمع من قريش..[2].

تلك هي الخطوط العريضة لسير الدعوة في مكة حتى بدء الهجرة إلى المدينة..

---

(١) صحيح الإمام مسلم، رقم الحديث ٢٤١٣.

(٢) كان هذا الحادث بعد عودة ابن مسعود من الهجرة الثانية إلى الحبشة، حين عاد ثلاثة وثلاثون صحابياً إلى مكة حين سمعوا بمهاجره ﷺ إلى المدينة [انظر تحقيق ذلك في كتاب (نظرات في دراسة السيرة) للمؤلف].

الباب الثاني

التربية في المرحلة المكيّة

نتحدث في هذا الباب عن الثوابت الأساسية للتربية في المرحلة المكية. وذلك في أربعة فصول:

الأول: ونتحدث فيه عن الأساس الذي تقوم عليه التربية.

الثاني: ونتحدث فيه عن العدَّة لهذه التربية.

الثالث: ونتحدث فيه عن التصور الصحيح لعالمية الدعوة.

الرابع: ونتحدث فيه عن الغاية التي هي بناء القاعدة الصلبة.

الفصل الأول

العقيدة هي الأساس

«لا إله إلا الله، محمد رسول الله»:

تلك هي الكلمة التي كان رسول الله ﷺ يطلب من الناس أن يقولوها.

وتلك الكلمة هي الباب الذي يُدخَل منه إلى الإسلام..

وبها يعلن المسلم هويته، فهذا أبو ذر يقف في المسجد الحرام ليرفع صوته قائلاً: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله» وكان ذلك كافياً ليثور القوم عليه..[1].

وهذا رسول الله ﷺ يطوف على الناس في موسم الحج، ليقول لهم: «يا أيها الناس، قولوا: «لا إله إلا الله» تفلحوا»[2].

إنها كلمة، ولكنها كلمة متميزة..

جاء القوم إلى أبي طالب حين قرب أجله يكلمونه بأمر رسول الله ﷺ.. وحضر ﷺ ليقول لهم: «كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم» فقال أبو جهل: نعم وأبيك، وعشر كلمات. قال: تقولون: «لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه..» فصفقوا بأيديهم..[3].

---

(١) متفق عليه، وهو عند مسلم برقم ٢٤٧٤، وعند البخاري برقم ٣٥٢٢.

(٢) أخرجه الطبراني، وقال الهيثمي: رجاله ثقات. انظر حياة الصحابة للكاندهلوي ١/٧٢.

(٣) سيرة ابن هشام ١/٤١٧.

تلك هي الكلمة المطلوبة، ولقد فهم المسلمون المقصود منها، كما فهمه الكافرون على حد سواء، فهمها المسلمون فالتزموا بما تفرضه عليهم من مسؤوليات، وقاومها الكافرون لأنهم فهموا معناها وما يترتب عليها من ذهاب كيانهم، وتحطم طغيانهم، وتهافت أساطيرهم وأوهامهم.

إن هذه الشهادة تقوم على ركنين:

الأول: وبه يكون الإقرار بالعبودية لله تعالى وحده..

والثاني: ويعني أن معرفة كيفية الالتزام بالعبودية لله تعالى إنما يكون بالتلقي عن رسول الله..

وهكذا تنحسر من حياة المسلم كل الضلالات والأوهام.. ويصبح منقاداً لهذا الرسول الكريم يتلقى عنه ما يأتيه به، في ثقة كاملة، وإيمان لا يتزعزع.

تلك هي القاعدة التي تقوم عليها حياة المؤمن، تنساب إلى القلب بسهولة ويسر لأنها تمثل الحقيقة التي لا شك فيها، ولهذا تتقبلها الفطرة لأنها الصفاء الذي لم يخالطه الغبش..

وكان من حكمة الله تعالى، أن جعل لترسيخ هذه القاعدة ـ على بساطتها ـ المدة الكافية، وهي الفترة المكية، فقد ظل الوحي ينزل ثلاثة عشر عاماً ليوضح هذه القاعدة ضمن التطبيق العملي في واقع الحياة..

ظل القرآن في كل تلك الآيات التي نزلت في مكة يقرر هذه القاعدة تارة، وينفي عنها كل لبس تارة أخرى، ويناقش العقائد الباطلة تارة ثالثة.. وهكذا.

كان المشركون من قريش يقرون بأن الله تعالى هو الخالق.. وقد سجل القرآن هذا الموقف، ولكنهم كانوا يجعلون معه شركاء وجاءت الآيات لتقرر أمر الوحدانية بشكل واضح لا لبس فيه ولا غموض..

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ * وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾(١).

ودحض القرآن حجتهم في قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾(٢)... كما وجه إلى إعمال العقل في نفي الشريك عنه تعالى:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ * لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾(٣).

وجاءت سورة الإخلاص لتؤكد الوحدانية وتنفي الطرف الآخر من الشرك وهو اعتقاد الولد لله ـ سبحانه عما يصفون ـ فقالت:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾(٤).

وتتابعت الآيات لتقرر كل القضايا الأخرى المرتبطة بأمر الألوهية.. فالشعائر التعبدية كلها لا تكون إلا لله..

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ..﴾(٥).

والدين ـ الذي من معانيه الخضوع ـ لا يكون إلا لله.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ..﴾(٦).

---

(١) سورة النحل: الآيتان ٥١ ـ ٥٢. (٢) سورة الزمر: الآية ٣.
(٣) سورة الأنبياء: الآيات ٢١ ـ ٢٣. (٤) سورة الإخلاص.
(٥) سورة الأنعام: الآيتان ١٦٢ ـ ١٦٣. (٦) سورة الزمر: الآيتان ٢ ـ ٣.

﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۗ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١).

والانصياع لا يكون إلا لحكم الله تعالى..

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (٢).

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ۚ﴾ (٣).

وهكذا تتابعت الآيات لتجلو بوضوح كل أمر يتعلق بهذا الشأن حتى وصلت بالمؤمن إلى التصور الصحيح والكامل الشامل في شأن الألوهية.. يقابلـه في الطرف الآخر أمر العبودية لله وشموله لجميع تصرفات العبد..

* * *

وكان من حكمته تعالى أيضاً أن بين حقيقة الرسالة والرسول.. وكان هذا البيان ضرورياً حتى لا يحصل الزيغ والانحراف الذي حصل في الأمم السابقة في هذا الصدد.

وكثيراً ما كان تقرير بعض هذه الحقائق ـ على الرغم من وضوحها ـ أثناء مناقشة المشركين والرد عليهم حول تصورهم عما ينبغي أن يكون عليه الرسول ونستطيع أن نلخص الأمور الرئيسة بالآتي:

*** تقرير بشرية الرسول ﷺ:**

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ..﴾ (٤).

ولقد اعترض المشركون أن يكون الرسول بشراً فقالوا:

﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ

---

(١) سورة غافر: الآية ٦٥.
(٢) سورة يوسف: الآية ٤٠.
(٣) سورة الشورى: الآية ٢١.
(٤) سورة الكهف: الآية ١١٠.

﴿إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾[1].

ورد الله تعالى عليهم بقوله:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ..﴾[2].

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۞ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾[3].

*** إنه رسول مثل الرسل السابقين:**

وسيرة هؤلاء الرسل في تاريخ الأمم معروفة تتداولها الأجيال. إنهم أعلام الهدى في الأمم. وجاء القرآن ليؤكد هذا الأمر ليستقر حقيقة من حقائق هذا الدين.

﴿يسٓ ۞ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۞ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ..﴾[4].

*** مهمته تبليغ الرسالة:**

فهو لا يتصرف بشيء من عنده، كما لا تصرف له في الكون، وليس له شيء من صفات الألوهية..

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[5].

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٧.
(٢) سورة الفرقان: الآية ٢٠.
(٣) سورة الأنبياء: الآيتان ٧ ـ ٨.
(٤) سورة يٓس: الآيات ١ ـ ٤.
(٥) سورة الأحقاف: الآية ٩.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾(1).

﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾(2).

*** إنه ذو خلق عظيم:**

وهو بشر من الناس ولكنه فطر على الأخلاق الفاضلة، فهي خلقه الذي يتخلق به ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(3).

هذا الخلق العظيم الذي يكون به أسوة للناس، وبه يسع الناس على اختلاف طبائعهم، وبه يخاطب الناس على قدر عقولهم..

* * *

وهكذا وخلال سنوات مكة تعلم الصحابة من خلال الوقائع وبالتطبيق العملي أنه لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

يلجؤون إلى الله تعالى، يدعونه خوفاً وطمعاً، يتجهون إليه بعباداتهم ودعائهم، يحمدونه أن هداهم للإيمان..

ويتعاملون مع رسولهم الكريم من منطلق الحقائق التي ذكرناها، والتي وجههم القرآن إليها.

لقد رأوا فيه من الرحمة بهم والعطف عليهم ما لا يجده الولد من والده. فهذا زيد بن حارثة يرفض الذهاب مع والده إلى أهله وعشيرته ويؤثر البقاء قريباً منه صلى الله عليه وسلم.

---

(1) سورة الملك: الآيتان ٢٥، ٢٦. (2) سورة الأنعام: الآية ٣٥.
(3) سورة القلم: الآية ٤.

وتعلموا من خلال الواقع أنه ﷺ لا يعلم الغيب وأنه بشر.. فهاهم المشركون يسألونه - بتعليم من اليهود - عن فتية ذهبوا في الدهر. فقال لهم ﷺ: «أخبركم بما سألتم غداً»، ولم يستثن.. فمكث ﷺ خمس عشرة ليلة لا يأتيه الوحي.. ثم نزل ليعطيه الجواب في سورة الكهف وليقول له:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ..﴾(١).

ولقد كانت أياماً مؤلمة للرسول الكريم ولصحابته الكرام.. وهم يسمعون قول الكافرين: وعدنا محمد غداً، واليوم خمس عشرة ليلة..

ولكنهم تعلموا أن الأمور بيد الله تعالى، لم يتعلموها نظرية تقرأ، وإنما عايشوا ذلك ساعة بعد ساعة.. واستقر في يقينهم أن الله فعال لما يريد.. وأن الرسول ﷺ إنما هو مبلغ ومنذر، يقود الناس إلى طريق الحق بأمر الله تعالى.

* * *

والإيمان بالغيب ركن من أركان هذه العقيدة..

يشمل الإيمان بوجود الملائكة وبوجود الجن.. والإيمان باليوم الآخر.

ولم يناقش القرآن المكي قضية من القضايا بالتفصيل الذي عرض فيه لأمر اليوم الآخر.

إنها قضية البعث بعد الموت.

وقضية الحساب والجزاء..

وقضية الجنة والنار.

وقد أنكر المشركون القضية الأولى.. وبالتالي القضايا التي تتبعها، ولشدة تعنت المشركين وتكذيبهم باليوم الآخر، كثرت الآيات التي قررت

---

(١) سورة الكهف: الآيتان ٢٣ - ٢٤.

وجود هذا اليوم وبرهنت عليه بأساليب متعددة كل واحد منها كان كافياً لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وحكت لنا سورة يس جانباً من هذا الإنكار ومناقشته، فقالت: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . . ﴾[1].

وبعد هذا البرهان البين كانت هناك نقلة أخرى للفت النظر إلى ما هو أكبر: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ . . ﴾[2].

وفي سورة ق ينقل القرآن الكريم قول الكافرين ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ ثم يكون الجواب بعد جولة في ملكوت السماوات والأرض.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ * وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾[3].

وفي سورة القيامة يقول تعالى:

---

(1) سورة يس: الآيتان ٧٨ ـ ٧٩. (2) سورة يس: الآيتان ٨١ ـ ٨٢.
(3) سورة ق: الآيات ٣، ٦ ـ ١١.

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾[1].

ولم يكتف القرآن الكريم بتقرير القضية الأولى قضية البعث. بل تناول يوم الحساب بتفصيل كبير وتناول ذكر الجزئيات فيه، حتى غدا القارىء للآيات وكأنه في ذلك اليوم، يسمع النقاش، وينظر إلى الأعضاء وهي تشهد على صاحبها.. وينظر إلى الكافر وهو يتمنى لو كان تراباً..

وفيما بعد الحساب يكون الجزاء.. الجنة أو النار.

وتناول القرآن أيضاً وصف الجنة ونعيمها، كما تناول وصف النار وعذابها حتى باتت كل منهما تتراءى للإنسان حقيقة واقعة أمام ناظريه..

إنها حقائق من عالم الغيب يقررها القرآن الكريم ليستكمل بها بناء العقيدة في نفس المسلم.

* * *

تلك هي الخطوط الكبرى لهذه العقيدة، التي تصدى لها القرآن المكي خلال ثلاثة عشر عاماً، ووقف عندها لا يتجاوزها، وكانت غايته تقريرها في النفوس بحيث تكون عقيدة ثابتة مستقرة، مبنية على الوعي والنظر والمعايشة..

إن القرآن المكي وهو يؤكد على هذه القضية، إنما يؤكد على قيام تصور إسلامي كامل في نفس كل فرد مسلم يتبين من خلاله مكانه في هذا الوجود ومكانته.

«لقد كان هذا القرآن المكي يفسر للإنسان سر وجوده ووجود هذا الكون من حوله.. كان يقول له: من هو؟ ومن أين جاء، وكيف جاء، ولماذا جاء؟ وإلى أين يذهب في نهاية المطاف، من ذا الذي جاء به من العدم

---

(١) سورة القيامة: الآيات ١ ـ ٤.

المجهول؟ ومن ذا الذي يذهب به وما مصيره هناك؟.. وكان يقول له: ما هذا الوجود الذي يحسه ويراه، والذي يحس أن وراءه غيباً يستشرفه ولا يراه؟ من أنشأ هذا الوجود المليء بالأسرار؟ من ذا يدبره ومن ذا يحوره؟.. وكان يقول له كذلك: كيف يتعامل مع خالق هذا الكون، ومع الكون أيضاً، وكيف يتعامل العباد مع خالق العباد»[1].

لقد كانت العقيدة بهذا المعنى الشامل، والذي تجاوز أن يكون علماً نظرياً إلى تفاعل نفسي واجتماعي، كانت قوامَ التربية التي انتهجها الإسلام في مكة وربى أبناءه عليها.

(١) في ظلال القرآن ٢/١٠٠٤.

الفصل الثاني

الصبر هو العدة

لم يكن تغيير الواقع الجاهلي وتحويله إلى واقع مسلم بالأمر اليسير، إنه يحتاج إلى الجهد الكبير، والإرادة القوية.

وهذا الجهد لا يمكن المضي في بذله إلا إذا تدربت إرادة صاحبه على التحمل، وعلى الصبر فهو العدة دائماً في بلوغ الأهداف الكبيرة.

والصبر ليس موعظة تستمع، أو درساً يحفظ، إنه مواقف تُختبر بها صلابة الإرادة، وقوة تحملها في الميادين المختلفة.

ولذلك كان التدريب عليه يحتاج إلى فترة من الزمن، ينتقل الإنسان فيه من موقف إلى آخر أشد منه وهكذا..

وهذا مايفسر لنا تأكيد القرآن المكي على الأمر بالتزام الصبر في وقت مبكر: «ذلك أن الله سبحانه يعلم ضخامة الجهد الذي تقتضيه الاستقامة على الطريق بين شتى النوازع والدوافع، والذي يقتضيه القيام على دعوة الله في الأرض بين شتى الصراعات والعقبات.. لا بد من الصبر في هذا كله، لا بد من الصبر على الطاعات، والصبر عن المعاصي، والصبر على جهاد المشاقين لله، والصبر على الكيد بشتى صنوفه، والصبر على بطء النصر، والصبر على بعد الشقة، والصبر على انتفاش الباطل، والصبر على قلة الناصر، والصبر على طول الطريق الشائك، والصبر على التواء النفوس، وضلال القلوب، وثقلة العناد، ومضاضة الإعراض..»[1].

---

(١) في ظلال القرآن ١/١٤١.

لقد وقفت الجاهلية بكل قوتها، وبكل طغيانها، في وجه هذه الدعوة، واستعملت كل الوسائل للصد عن سبيل الله.. كل ذلك يحدث والدعوة ما تزال في مهدها.. فكان لا بد أن تكون العدة في مواجهة هذا الطاغوت هو تربية الإرادة بالصبر لتستطيع المضي في الطريق حتى يتحقق أمر الله في إقامة هذا الدين.

ولا شك بأن الإنسان المؤمن ينتابه الضعف عندما يطول الزمن ويبطء الوصول إلى النتائج.. فكانت آيات الصبر بمثابة محطات تقوية تشحذ الهمة وتدفعها إلى المضي في الطريق مرة أخرى وبعزم قوي.

ولا شك بأن القضية البارزة في مكة على مسرح الأحداث، هي ما تعرض له المؤمنون من الإيذاء والابتلاء على أيدي المشركين، ولم يكن الرسول ﷺ بمنجاة من ذلك.

ولذلك كان الحث على الصبر تنزل به الآيات بأساليب متنوعة، منها ذكر ما أصاب الرسل من البلاء وكيف صبروا عليه.

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ..﴾[1].

ولقد كان الاستهزاء من الوسائل الأولى التي قاوم بها المشركون الدعوة، ذلك أنه يثبط الهمم، وتضيق به الصدور، والقرآن يعرض لذكر الأنبياء السابقين وما أصابهم في هذا الجانب ليكون ذلك تسلية للنبي ﷺ وللمؤمنين:

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[2].

﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ...... وَلَقَدِ

(١) سورة الأنعام: الآية ٣٤. (٢) سورة الأنعام: الآية ١٠.

ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[1].

إنه طريق النبوات ولا بد من الصبر..

وإذا كان الاستهزاء لم يعرقل سير الدعوة، فقد لجأ الكفر إلى اتخاذ وسائل أخرى تعتمد على التأثير النفسي من الوصف بالسحر والجنون والشعر.. وكانت الآيات الكريمة تنزل لتسليته ﷺ، ودعوته إلى الصبر على ما يقولون.. ولكثرة هذه الأقوال وتداولها بين الكافرين.. تكرر التذكير بالصبر على ذلك مرة بعد مرة:

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ .. ﴾[2].

﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ .. ﴾[3].

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ .. ﴾[4].

وكلما طالت المعركة مع الكفر نزلت الآيات لتطمئن الرسول والمؤمنين أنهم على الحق، وأن عليهم الصبر على متابعة الطريق..

﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ .. ﴾[5].

﴿ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ .. ﴾[6].

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾[7].

---

(1) سورة الأنبياء: الآيات ٣٦ ـ ٤١.
(2) سورة قٓ: الآية ٣٩.
(3) سورة صٓ: الآية ١٧.
(4) سورة طه: الآية ١٣٠.
(5) سورة يونس: الآية ١٠٩.
(6) سورة هود: الآية ٤٩.
(7) سورة غافر: الآية ٥٥.

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾[(1)].

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا . . ﴾[(2)].

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾[(3)].

وآيات. . وآيات تحث المؤمنين على الصبر، وتجعله صفة لازمة لهم ينالون عليها الأجر عند الله تعالى. ففي سورة الفرقان بعد وصف عباد الرحمٰن: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾[(4)] وفي سورة العصر: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾[(5)] وفي سورة البلد: ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾[(6)] وفي سورة الزمر: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[(7)].

لقد امتد نزول آيات الصبر على طول الفترة المكية يقود خطوات المؤمنين خطوة بعد خطوة، فتدربوا على تحمل المشاق وتحمل الأذى، وضبط الإرادة، وألا تكون تصرفاتهم ردود فعل، كما تدربوا على الالتزام بما يرد عن الله تعالى. . والانضباط مع أوامر رسوله صلى الله عليه وسلم. .

وفي ضوء ما سبق تظهر حكمة من حكم منع القتال في مكة «إنه كان يراد تطويع نفوس المؤمنين من العرب للصبر امتثالاً للأمر، وخضوعاً للقيادة، وانتظاراً للإذن، وقد كانوا في الجاهلية شديدي الحماسة، يستجيبون لأول ناعق، ولا يصبرون على الضيم. . وبناء الأمة المسلمة التي

---

(1) سورة غافر: الآية ٧٧.
(2) سورة الطور: الآية ٤٨.
(3) سورة الروم: الآية ٦٠.
(4) سورة الفرقان: الآية ٧٥.
(5) سورة العصر: الآية ٣.
(6) سورة البلد: الآية ١٧.
(7) سورة الزمر: الآية ١٠.

تنهض بالدور العظيم الذي نيطت به هذه الأمة يقتضي ضبط هذه الصفات النفسية، وتطويعها لقيادة تقدر وتدبر، وتطاع فيما تقدر وتدبر، حتى لو كانت هذه الطاعة على حساب الأعصاب التي تعودت الاندفاع والحماسة، والخفة للهيجاء عند أول داع.. ومن ثم استطاع رجال من طراز عمر بن الخطاب في حميته، وحمزة بن عبدالمطلب في فتوته، وأمثالهما من أشداء المؤمنين الأوائل، أن يصبروا للضيم يصيب الفئة المسلمة، وأن يربطوا على أعصابهم في انتظار أمر رسول الله ﷺ، وأن يخضعوا لأمر القيادة العليا وهي تقول لهم: ﴿ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾[1].. ومن ثم وقع التوازن.. في هذه النفوس التي كانت تعد لأمر عظيم»[2].

ولما كانت القضية قضية تربية وإعداد، فإن المربي هو الذي يستطيع تقدير مقياس النجاح، وإلى أي مستوى وصل تلاميذه..

وفي ضوء ذلك نستطيع فهم حديث خباب رضي الله عنه؟ قال:

(شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع فوق رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصده ذلك عن دينه. والله ليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»)[3].

إن خباباً رضي الله عنه كان واحداً من الطليعة التي عذبت في الله، وفي البخاري أنه كان اكتوى سبعاً في بطنه..[4] فهو يشكو من مرارة البلاء، ولكن المربي الكريم ﷺ كان واضحاً لديه أن الأمر لم تستكمل عملية الإعداد له، وأنه ما زالت اختبارات على المؤمنين أن يمروا بها. ثم

---

(1) سورة النساء: الآية ٧٧.

(2) في ظلال القرآن ١/١٨٥.

(3) رواه البخاري برقم ٣٦١٢.

(4) رواه البخاري برقم ٦٤٣٠.

طمأنه إلى النتيجة وهي تمام ذلك الأمر الذي هو قيام الإسلام، بعد أن هون عليه من مصابه إذا قيس بما ذكره النبي الكريم عن مصاب الدعاة في الأمم السابقة..

إنه لا ينبغي إغفال عامل الزمن في أي عملية تربوية، يضاف إلى ذلك مقدار التجارب المطروحة على مسرح الأحداث، ونوعية تلك التجارب.

الفصل الثالث

التصور الصحيح عن عالمية الدعوة

جاء في سيرة ابن هشام في صدد الحديث عن غزوة تبوك:

«.. وكان رسول الله ﷺ قلما يخرج في غزوة إلا كنى عنها.. إلا ما كان في غزوة تبوك، فإنه بينها للناس، لبعد الشقة وشدة الزمان، وكثرة العدو الذي يصمد له، ليتأهب الناس لذلك أهبته..»[1].

تلك سنته ﷺ في الأمور التي بعدت غايتها، وتحتاج إلى أخذ الأهبة وإعداد العدة..

وتلك جزئية بنيت على إدراك عميق منه ﷺ لمنهج الدعوة وسير حركتها. فإن الغاية البعيدة والطريق الطويلة تحتاج إلى العدة المتناسبة معها، كما تحتاج إلى معرفة مسبقة بها لمن يريدون السير فيها..

والدعوة منذ أيامها الأولى كانت واضحة المعالم بأنها دعوة عالمية، غايتها إقامة حكم الله في الأرض كل الأرض.. ولذلك كان الحديث في الآية الأولى نزولاً عن الإنسان، جنس الإنسان.

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[2].

ولقد كان هذا المفهوم واضحاً من الأيام الأولى، يتحدث عنه الرسول ﷺ تقريراً، ويفهمه الصحابة مسلَّمة من المسلمات الإيمانية..

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٥١٦.

(٢) سورة العلق: الآيات ١ ـ ٥.

فقد رأينا في حديث خباب ـ الذي سبق قريباً ـ قوله ﷺ: «والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الركب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله..».

وفي المناقشة التي حصلت في بيت أبي طالب بين كبار قريش وبينه ﷺ قال لهم: «كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم..»(١).

كان الأمر من الوضوح لديه ﷺ ولدى أصحابه بما لا يدع مجالاً لأدنى ريبة، وإن نظرة سريعة في القرآن المكي بشكل عام لتؤكد ذلك بوضوح.

فالآيات المكية تتحدث عن الإنسان ـ جنس الإنسان ـ وتخاطب الإنسان.. بغض النظر عن وطنه وعن قومه..

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾(٢).

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾(٣).

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾(٤).

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴾(٥).

﴿ يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۞ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴾(٦).

﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴾(٧).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾(٨).

---

(١) سيرة ابن هشام ٤١٧/١.
(٢) سورة المؤمنون: الآية ١٢.
(٣) سورة لقمان: الآية ١٤.
(٤) سورة النجم: الآية ٣٩.
(٥) سورة القيامة: الآية ٣.
(٦) سورة القيامة: الآيتان ١٣ ـ ١٤.
(٧) سورة النازعات: الآية ٣٥.
(٨) سورة الانفطار: الآية ٦.

وقد تتعامل الآيات مع الصفات السلوكية المكتسبة للإنسان فتكون النظرة إليه إما من خلال صفات الخير أو من خلال صفات الشر، بغض النظر أيضاً عن قومه وجنسه وأرضه وزمنه..

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾[1].

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[2].

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[3].

وهكذا فإن التعامل مع هذا الإنسان من خلال برّه وتقواه، أو من خلال طغيانه وكفره.

لقد كان واضحاً كل الوضوح في لغة القرآن المكي عالمية هذه الدعوة وإنسانية هذا الدين، فهو ليس لشعب أو لعرق أو لقوم.. إنه لجميع الناس، لا في عصر واحد وإنما على تعاقب العصور..

ومع كل هذا الوضوح، فإن الله عز وجل أراد أن تكون هذه القضية واضحة بينة فنصَّ على ذلك صراحة في آيات من القرآن المكي نذكر منها[4]:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ * لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾[5].

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[6].

---

(١) سورة النبأ: الآية ٣١.
(٢) سورة النازعات: الآيات ٣٧ - ٤١.
(٣) سورة الانفطار: الآيتان ١٣ - ١٤.
(٤) نذكر هذه الآيات بحسب ترتيب نزولها.
(٥) سورة التكوير: الآيتان ٢٧ - ٢٨.
(٦) سورة الأعراف: الآية ١٥٨.

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[1].

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2].

﴿ إِنَّ فِى هَـٰذَا لَبَلَـٰغًا لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ ۝ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾[3].

كان هذا البيان ضرورة ليعلم حجم المهمة الملقاة على عاتق المؤمنين، ليعدوا أنفسهم لذلك، وليكونوا على بينة من أمرهم.

إن هذه المهمة من الضخامة بحيث احتاجت إلى تربية خاصة ولمدة غير يسيرة، وضخامة المهمة يفسر لنا الحاجة إلى طول المدة، كما يفسر لنا اختيار تلك النوعية من العدة النفسية التي اختيرت لتكون الزاد في أداء هذه المهمة.

إنها حلقات مترابطة يتمم بعضها بعضاً، ويشدُّ بعضها بعضاً في سبيل إيجاد القاعدة الصلبة..

(١) سورة الفرقان: الآية ١. (٢) سورة سبأ: الآية ٢٨.
(٣) سورة الأنبياء: الآيتان ١٠٦ ـ ١٠٧.

الفصل الرابع

القاعدة الصلبة

بدا واضحاً منذ اللحظة الأولى لدعوة الرسول ﷺ أن هـذه الدعـوة استقطبت المؤمنين الأُول لتشكل منهم **تجمعاً** عضوياً متماسكاً يقوم على آصرة العقيدة، حيث تزول الفوارق.. ويصبح المؤمنون أخـوة في الله.. المعتق والمعتَق. والسيد والعبد والمرأة والرجل.

وبدا أن هذا التجمع يزداد يوماً بعد يوم.. الأمر الذي دفع قريشاً للوقوف في وجه هذا الكيان الجديد.

وهكـذا «وُلِدَت الحـركة الإسـلامية على محـك الشـدة، فلم تكـد الجاهلية ـ ممثلة في قريش ـ تحس بالخطر الحقيقي الذي يتهددها من دعوة «أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله» وما تمثله من ثورة على كل سلطان أرضي لا يستمد من سلطان الله، ومن تمرد نهائي على كل طـاغوت في الأرض والفـرار منه إلى الله. ثم بـالخـطر الجـدي من التجمـع الحـركي العضوي الجديد الذي أنشأته هذه الدعوة تحت قيادة رسول الله ﷺ، هذا التجمع الذي يدين منذ اليوم الأول بالطاعة لله ولرسول الله، ويتمرد ويخرج على القيـادة الجـاهليـة الممثلة في قـريش والأوضـاع السـائـدة في هـذه الجاهلية».

«لم تكد الجاهلية.. تحس بهذا الخطر وذاك حتى شنتها حرباً شعواء على الدعوة الجديدة، وعلى التجمـع الجديـد، وعلى القيادة الجـديدة، وحتى أرصدت لها كل ما في جعبتها من أذى، ومن كيد، ومن فتنة»..

«وعندئذ تعرض كل فرد في التجمع الإسلامي الجديد للأذى والفتنة بكل صنوفها، إلى حد إهدار الدم في كثير من الأحيان. ويومئذ لم يكن يقدم على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، والانضمام إلى التجمع الإسلامي الوليد، والدينونة لقيادته الجديدة، إلا كل من نذر نفسه لله، وتهيأ لاحتمال الأذى و الفتنة والجوع والغربة والعذاب والموت في أبشع الصور في بعض الأحيان».

«بذلك تكونت للإسلام قاعدة صلبة، من أصلب العناصر عوداً في المجتمع العربي، فأما العناصر التي لم تحتمل هذه الضغوط فقد فتنت عن دينها وارتدت إلى الجاهلية مرة أخرى، وكان هذا النوع قليلاً، فقد كان الأمر كله معروفاً مكشوفاً من قبل، فلم يكن يقدم ابتداء على الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام، وقطع الطريق الشائك الخطر المرهوب إلا العناصر المختارة الممتازة الفريدة التكوين»[1].

وإنه مما زاد من صلابة هذه القاعدة، أن هذه الدعوة لم تقم على عرض المغريات من المادة والمتاع والمال، ولم تمنِّ معتنقيها بالوعود البراقة فيما ينتظرهم من المناصب والمغانم.. لم يكن شيء من ذلك.

نعم، كان هناك وعد واحد، هو رضوان الله تعالى والجنة في الدار الآخرة. فقد مر رسول الله ﷺ بآل ياسر وهم يعذبون، فلم يكن أكثر من أن قال لهم: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة»[2].

لقد كانت الغاية أن تنشأ هذه القلوب المؤمنة على درجة عالية من الصلابة والقوة، ولا يكون ذلك إلا بالتجرد من أمنيات النفس المتعلقة بمتاع الدنيا، وصرف ذلك كله إلى التعلق بالآخرة..

ولقد استطاعت تلك القلوب أن ترتقي إلى هذا الأفق العالي، ذلك

---

(١) في ظلال القرآن ٣/١٥٧٠ - ١٥٧١.

(٢) قال الشيخ ناصر الألباني في تخريجه لأحاديث (فقه السيرة): حديث حسن صحيح.

أنها كانت تتعامل مع الوحي غضاً، فتسمع كلمات الله تعالى تبين لها أجر الساعين إلى رضوانه.. وتبين لها ذلك النعيم الذي لا يزول.

«إن صورة الآخرة في هذا الدين بلغت غايتها من السعة والعمق والوضوح [في القرآن المكي].. حتى بات عالم الآخرة في حسِّ الأمة المسلمة أثبت وأوضح وأعمق من عالم الدنيا الذي يعيشونه فعلاً..»[1].

إن هذه الحقيقة تفسر لنا تلك الصلابة التي تكسرت عليها عنجهية قريش.. فقد ماتت سمية أم عمار تحت التعذيب، ومات ياسر زوجها كذلك، لم يتراجعا عن إيمانهما كما كان مطلوباً منهما ذلك، إن الموت في هذه الحالة يعني أن إرادة المقهور المعذَّب أكبر من قوة وإرادة الطاغية الذي يقوم على فتنته، وإن قوة هذا المؤمن، وهو مجرد من كل سلاح، أكبر من قوة ذاك الطاغية على الرغم من امتلاكه لكل الأسلحة.

وهذه جارية لبني المؤمِّل تعلن إسلامها، وهي امرأة رقيقة، فهي ضعيفة في المفهوم الجاهلي من جهات عدة.. لأنها امرأة.. ولأنها أمة.. ولأنها.. وكان عمر بن الخطاب يعذبها لتترك إسلامها - وهو يومئذ مشرك - وهو يضربها حتى إذا ملَّ قال: إني أعتذر إليك، إني لم أتركك إلا ملالة..[2].

ونتساءل من الأقوى.. المرأة التي صبرت على البلاء والتعذيب حتى ملَّ عمر، أم عمر وهو يومئذ فتى قريش ورجلها؟.

إنها صلابة الإيمان.

ولقد كانت هذه الصلابة دافعاً للتأمل من قبل المشركين، إن هذا الصبر الذي تحلى به هؤلاء المؤمنون، وهذا الثبات على المنهج.. كان

---

(١) في ظلال القرآن ٣/١٤٠٨.
(٢) سيرة ابن هشام ١/٣١٩.

يدخل إلى نفوس المشركين - من حيث لا يشعرون - بالإعجاب والإكبار. الأمر الذي يدعوهم إلى النظر في هذه القيم التي يؤمن بها هؤلاء ويموتون في سبيلها.

نعم لقد استطاع الرعيل الأول من المؤمنين أن يكـونوا القـاعدة الصلبـة التي قام عليها المجتمع الإسلامي فيما بعد. وما ذاك إلا بفضل تلك التربية الإيمانية التي كان الرسول الكريم ينشئهم عليها.

البَـابُ الثالِث

مَسَارَاتُ العَمَلِيَّةِ التَرْبَوِيَّةِ فِي مَكَّـةَ وَسِمَـاتُها

تحدثنا في الباب السابق عن أركان التربية. . ونتحدث في هذا الباب عن مسارات التربية وسماتها.

ذلك أن النفس الإنسانية مخلوق معقد التركيب، وكان من حكمة الله تعالى، خالق هذا الإنسان، أن تناول المنهج الإلهي هذه النفس من كل جوانبها في آن واحد، فكانت هذه التربية تسير في توازن عام على جميع جبهات هذه النفس.

ومن أجل الدراسة، فإننا نكتفي بالمسارات الرئيسة فنبحث:

- **في الفصل الأول:** التربية الذاتية للنفس.
- **وفي الفصل الثاني:** التربية في المواجهة الخارجية.
- **وفي الفصل الثالث:** المسار الاجتماعي للتربية.
- **وفي الفصل الرابع:** المسار الاقتصادي للتربية.
- **ونختم البحث بالفصل الخامس:** فنتحدث فيه عن سمات هذه التربية.

الفصل الأول

التربية الذاتية للنفس

نتناول في هذا الفصل سير التربية للنفس من داخلها، والذي سار في اتجاهين معاً كل منهما يتعاون مع الآخر:

الاتجاه الأول: وغايته الوصول إلى نظافة النفس من رواسب الجاهلية.

الاتجاه الثاني: وغايته تثبيت أركان البناء الخلقي في نفوس القاعدة المختارة.

التخلص من رواسب الجاهلية:

قلنا إن العقيدة هي قوام هذه التربية، ومنذ البدء، ومع النطق بشهادة الحق يصبح التلقي في أمور الحياة كلها ـ لكل مسلم ـ عن الرسول الذي شهد له بأنه المبلغ عن الله تعالى.

وينتج عن هذا موقف آخر، هو الحذر من كل ما هو مرتبط بالحياة الجاهلية السابقة..

وكان لا بد من التخلص من كل الرواسب الجاهلية باعتبارها نتاجاً منبثقاً من الفكر الجاهلي، وبما أن الإسلام دين واقعي فإنه أتاح الوقت الكافي للوصول إلى النظافة المطلوبة.. وكان ذلك طول المرحلة المكية.

لم يكن من الممكن شطب الجاهلية من حياة الناس بجرة قلم، وإن واقعاً اجتماعياً يدين له الناس بكل ما فيه يحتاج إلى الهدوء والأناة لاقتلاع جذوره من داخل النفوس.

ولقد كان من حكمة المنهج في خطته للتخلص من تلك الرواسب أنه سلك للقضاء عليها مسلكين: الأول ويقوم على بيان الخطأ والانحراف فيها. وضرورة الابتعاد عنها، والثاني: هو أن الأوامر الجديدة التي جاءت لتقرر المنهج الأخلاقي في حياة المسلم. كانت تقوم بدورها تلقائياً.. فكل خلق إسلامي، كان يلغي راسبة جاهلية ليقوم مقامها.

ونحن لا نريد أن نقول إن مكة ـ وهي مركز الدعوة الأول وبلغتها نزل القرآن ـ كانت مقراً للسوء.. فذلك أمر يتعارض مع الواقع، فما كان اختيارها مركزاً للدعوة عن عبث، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فهي من حيث الوضع الاجتماعي ونظام السيادة فيها.. لعلها المكان الوحيد الذي كان يسمح بنشوء دعوة كدعوة الإسلام[1].

ولكنا نلفت النظر باختصار شديد إلى بعض معالم الواقع الاجتماعي الذي أخذ أبعاده يومئذ في نفوس القوم، ومن ذلك:

ـ سيطرة الفكر الوثني على العقيدة.

ـ سيطرة النظام القبلي على الحياة الاجتماعية، وشيخ القبيلة عادة هو أكبر الأفراد سناً إذا توفرت فيه الشروط الأخرى وأهمها كثرة المال..

ولذلك فالرياسة لا تكون إلا للأغنياء، وقد سجل القرآن ذلك حين اعترض الكافرون على نزول القرآن على الرسول الكريم فقال:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[2].

«يقصدون بالقريتين مكة والطائف، ولقد كان رسول الله ﷺ من ذؤابة قريش، ثم من ذؤابة بني هاشم، وهم في العلية من العرب، كما كان شخصه ﷺ معروفاً بسمو الخلق في بيئته قبل بعثته، ولكنه لم يكن زعيم قبيلة، ولا رئيس عشيرة في بيئة تعتز بمثل هذه القيم القبلية»[3].

---

(١) انظر تفصيل هذا البحث في «في ظلال القرآن» ٥/٣١٤٢ ـ ٣١٤٤.

(٢) سورة الزخرف: الآية ٣١.

(٣) في ظلال القرآن ٥/٣١٨٦.

وإن تتمة الآيات الكريمة بعد الآية السابقة تبين بوضوح أن العامل الأول هو الثراء المادي[1].

ـ والفرد مرتبط ارتباطاً كاملاً بقبيلته.. في الخير والشر.

ـ وكانت مكة وادياً غير ذي زرع، ولذلك نمت التجارة فيها. وهي بدورها تقوم على رأس المال.. وهكذا وبالمعاملات التجارية للقوم شعروا بأن المال هو مصدر الربح، ولهذا انتشر الربا بينهم، واستغلّ القوي الضعيف، والغني الفقير..

وحينما ينتشر النظام الربوي تنحسر الأخلاق الفاضلة، من مساعدة للمحتاج وعمل خير يسعف الضعفاء.. لأن انتشار هذه القيم يفسد السوق الربوية.. ولهذا قُهر اليتيم ونُهر السائل وحُرم المسكين..

ـ وكان لمجالس اللهو والشراب والقمار رواد كثر، حيث القيان وإثارة الشهوات.. والزنا..

ـ وكانت المرأة سيئة الحال في وضعها العام تنطلق حياتها من استقبال سيىء، ذكره القرآن الكريم بقوله:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ..﴾[2].

ثم هي بعد ذلك لا نصيب لها في الميراث لأنها لا تقاتل.. والطلاق بيد الرجل دونما قيد من عدد.

ـ واليتامى قلما ترعى حقوقهم..

هذا بعض ما كان قائماً لا ينكره أحد.. وكان التغيير من خلال النفوس التي آمنت، بتغييرها أولاً ثم التغيير بها ثانياً..

---

(١) قال تعالى بعد الآية المذكورة: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا..﴾.

(٢) سورة النحل: الآية ٥٨.

ومن المعلوم أن مكة لم تكن مكاناً لنزول آيات التشريع، وإنما عالج القرآن فيها أمر العقيدة، ومع ذلك فقد تناول كل هذه القضايا إما بالقضاء عليها وابتعاد المؤمنين عنها وإما بالتمهيد لتحريمها في المستقبل..

ونذكر مرة أخرى باختصار شديد معالجة القرآن المكي تلك المظاهر الجاهلية واجتثاثها من نفوس المؤمنين!

ـ قامت عقيدة التوحيد لتقضي على الوثنية في النفوس قضاء مبرماً، ولشدَّ ما عني القرآن المكي بذلك..

ـ أصبح الولاء لله ورسوله وقد عنيت الآيات الكريمة ببيان ذلك.

ـ وأصبح ارتباط الفرد بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

ـ ووجه القرآن إلى أداء الواجب تجاه الفقراء. ومن ذلك الابتعاد عن الربا:

﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾[1].

ثم كانت معالجة بقية الجوانب وغيرها عن طريق الآيات التي تناولت الجانب الأخلاقي مما سنعرض لبعضه بعد قليل.

المنهج الخلقي:

إن هذا الدين وحدة متماسكة، لا يمكن فصل الحكم الأخلاقي فيه عن الحكم الشرعي، ولا ينفصل فيه الحكم الاقتصادي عن الحكم الاجتماعي.. ولكنا ونحن نتحدث عن مرحلية التربية في بناء الجيل الأول

---

(١) سورة الروم: الآيتان ٣٨ ـ ٣٩.

نلمح أن الأحكام التي تناولها القرآن المكي يغلب عليها الطابع الأخلاقي، وبتعبير آخر لم تكن الدعوة إليها عن طريق الأمر وإنما عن طريق التوجيه، وتلك سمة مميزة للحكم الأخلاقي.

نستطيع القول بعد هذه المقدمة الوجيزة: بأن المنهج الأخلاقي قد استكمل بناءه في نفوس المسلمين في المرحلة المكية، ولئن كان القرآن لم يتناول كل الجزئيات بالبحث فقد أكد على الأسس والأركان، وألح عليها بأساليب متعددة.

ويحسن بنا أن نستعرض بعض الآيات المكية في هذا الصدد:

ركز القرآن الكريم على الأمور الكلية، فحضَّ على الخطوط العامة للفضيلة وليس من باب المصادفات أن تنزل سورة العصر في وقت مبكر، هذه السورة القصيرة التي نصت على تحقق الخسارة لجنس الإنسان كله إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات..

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[1].

والعمل الصالح عنوان عام يعرفه الناس بفطرتهم، فهذه خديجة رضي الله عنها عندما قصَّ عليها ﷺ حديثه في نزول الوحي قالت: «كلا، والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق..»[2] وهذا هو العمل الصالح الذي تحض عليه السورة..

وقد تكرر هذا الحث على الإيمان والعمل الصالح خلال المرحلة المكية كلها بل والمدنية أيضاً، ذلك أنه هو الخط العام في البناء الأخلاقي.

---

(١) سورة العصر.

(٢) حديث بدء الوحي في صحيح البخاري. رقم (٣).

كما ألح القرآن أيضاً على تزكية النفس وطهارتها. . وذلك هو الخط الموازي للعمل الصالح، الذي هو العمل الإيجابي، بينما التزكية عمل تطهير وتنظيف من الدنس. قال تعالى:

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ . . ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾(٤).

والتزكية إنما تكون بترك الإثم ظاهره وباطنه، ذلك أن الإسلام يقوم على الصدق الكامل الذي يطابق فيه القول العمل، ويطابقان ـ في الوقت نفسه ـ النية والضمير. . ولهذا يأتي التأكيد على ترك الإثم من الجانبين حتى يتساوق السلوك الخلقي بعضه مع بعض من كل جوانبه. قال تعالى:

﴿ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴾(٥).

وإذا ما انتقلنا إلى التفصيل وجدنا أنفسنا أمام آيات وآيات ونكتفي بإيراد بعضها دون تصنيف من حيث الموضوع، لأن غايتنا ـ هنا ـ بيان التركيز في القرآن المكي على البناء الخلقي، قال تعالى:

---

(١) سورة الشمس: الآيات ٧ ـ ١٠.
(٢) سورة الأعلى: الآية ١٤.
(٣) سورة طه: الآية ٧٦.
(٤) سورة فاطر: الآية ١٨.
(٥) سورة الأنعام: الآية ١٢٠.

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ (١).

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾ (٢).

﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ * وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ (٣).

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ (٤).

ويؤكد القرآن المكي على بر الوالدين ومعاملتهما المعاملة الحسنة، وقد ورد ذلك في ثلاث سور: الإسراء والعنكبوت ولقمان (٥).

وتتحدث سورة الفرقان عن عباد الرحمٰن فتقول: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ

(١) سورة المؤمنون: الآيات ١ ـ ٨. (٢) سورة النحل: الآيتان ٩٠ ـ ٩١.
(٣) سورة لقمان: الآيات ١٧ ـ ١٩. (٤) سورة الليل: الآيات ٥ ـ ١٠.
(٥) الآية ٢٤ من سورة الإسراء، والآية ٨ من سورة العنكبوت، والآية ١٤ من سورة لقمان.

﴿ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾.
﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ۞ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾. ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ (١).

وفي ميدان المحظورات يلفت القرآن المكي النظر إلى جوانب كثيرة نذكر منها قوله تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (٢).

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۞ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣).

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) ﴾ (٤).

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ

---

(١) سورة الفرقان: الآيات ٦٣، ٦٧ - ٦٨، ٧٢.
(٢) سورة الأعراف: الآية ٣٣.
(٣) سورة الأنعام: الآيتان ١٥١ - ١٥٢.
(٤) سورة الإسراء: الآية ٣٢.

يُرَآءُونَ * وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾[1].

* * *

وهكذا سارت هذه التربية مزيلة آثار الجاهلية بانية معالم الحق والخير في النفس المسلمة. سارت هادئة رضيَّة، يندفع المؤمنون عن رغبة وطواعية لتطبيق التوجيهات القرآنية التي تتابع نزول الوحي بها..

إن المؤمن يومئذ كان حريصاً كل الحرص على المسارعة لتنفيذ تلك التوجيهات الإلهية رغبةً وحباً، يدفعه إلى ذلك إيمانه، ولذا لم يكن بحاجة إلى لغة التهديد والوعيد في حال عدم التنفيذ، تلك اللغة التي نراها واضحة في حديث القرآن الكريم عن بني إسرائيل.

وإذا تدبرنا الآيات التي سبق ذكرها نلمح فيها جميعاً تلك الظاهرة الواضحة التي تبدو من خلالها روح الحنان والعطف والتوجيه الندي.. حتى إن فعل «الأمر» يؤتى به بالأسلوب الذي يذهب منه قسوة الأمر ويحوله إلى توجيه حبيب إلى النفس..

انظر معي كيف كانت التوجيهات تلقى إلى القوم:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ.. ﴾[2].

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ.. ﴾[3].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ.. ﴾[4].

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا.. ﴾[5].

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ.. ﴾[6].

---

(١) سورة الماعون: الآيات ٤ ـ ٧.
(٢) سورة المؤمنون: الآية ١.
(٣) سورة الأعلى: الآية ١٤.
(٤) سورة النحل: الآية ٩٠.
(٥) سورة الفرقان: الآية ٦٣.
(٦) سورة الأعراف: الآية ٣٣.

﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ . . ﴾[1].

وهكذا عدل الأسلوب القرآني في غالب الأحيان من أسلوب الإنشاء إلى أسلوب الإخبار ليكون ذلك أدعى للتقبل، فالمخاطب متجاوب ومنفذ وراغب . .

(١) سورة الأنعام: الآية ١٥١.

الفصل الثاني

التربية للمواجهة الخارجية

قلنا إن الإسلام كان يسير بتربية الجماعة الأولى في أكثر من مسار في آن واحد.

وها هو في الوقت الذي يحارب فيه الرواسب الجاهلية في النفس، ويحارب الشح والحرص، ويبني الخير.. كان يبني هذه النفوس في مسار آخر لتستطيع الوقوف صامدة في معركتها مع الشر والباطل والطغيان في واقع الحياة.

معركة في داخل النفس لإصلاحها، ومعركة أخرى بالنفس لإصلاح الواقع بها من حولها.

وهذه المعركة مفروضة على المؤمنين، وهي في حقيقتها معركة عقيدة.. وكان على المؤمنين في مكة أن يثبتوا ويصبروا..

فلم يكد رسول الله ﷺ يعلن بدعوته، حتى وثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، ويفتنونهم عن دينهم. وكانوا أشد قسوة في معاملتهم على المستضعفين من المسلمين، فكانوا يعذبونهم برمضاء مكة إذا اشتد الحر..[1].

وهكذا بدأت الحملة عامة على الجميع، ولكن رسول الله ﷺ قد حماه الله بعمه أبي طالب. ونشأت حالة من الخوف نتيجة لهذه المعاملة القاسية، الأمر الذي أوقف حركة الدعوة أو بطّأها إلى حين.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٢٦٨ و٣١٧.

ونتيجة لشدة هذه الهجمة الجاهلية الشرسة كان المسلمون أحد رجلين، منهم من ثبت وعصمه الله تعالى، ومنهم من فتن من شدة البلاء الذي يصيبه[1]، وهم القلة القليلة.

قال ابن إسحاق: وحدثني حكيم بن جبير عن سعيد بن جبير، قال: قلت لعبدالله بن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟ قال: (نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضر الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له: اللات والعزى آلهك من دون الله؟ فيقول: نعم، حتى إن الجعل ليمر بهم فيقولون له: أهذا الجعل آلهك من دون الله فيقول: نعم، افتداء منهم مما يبلغون من جهده)[2].

ومن المعلوم أن سميَّة أم عمار، وزوجها ياسر، قد ماتا تحت التعذيب. وقد تحمل عمار ما شاء الله أن يتحمل حتى وصل إلى مرحلة الإعياء.. ولم يتركوه حتى نال من الرسول ﷺ ثم جاءه يبكي، ويسأله ﷺ: «فكيف تجد قلبك؟» قال: أجده مطمئناً بالإيمان، فقال: «يا عمار إن عادوا فعد»، وأنزل الله تعالى:

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[3].

وعذب بلال..

وعذب خباب..

وعذب صهيب..

وعذب غيرهم وغيرهم.. وكانت موجة من البلاء قاسية نالت الضعفاء في الساحات العامة، ونالت غيرهم كل إنسان ضمن قبيلته.

---

(1) سيرة ابن هشام ٣١٧/١. (2) سيرة ابن هشام ٣٢٠/١.

(3) سورة النحل: الآية ١٠٦. والحادثة ذكرها ابن كثير في تفسيره عند ذكر هذه الآية.

وكان من نتيجة هذه الموجة، أن مات من مات تحت التعذيب، وصبر من صبر.. وفتن من فتن.. وهكذا تخلصت الدعوة منذ البدء ممن لم يكن أهلاً لحملها.. وكانت المرحلة الأولى من الاختبار.

وثبت الآخرون على الرغم من استمرار عمليات التعذيب. ذلك أن الصبر إنما يكون عند الصدمة الأولى.. ومن تحمل البلاء في المرة الأولى فهو أقدر على تحمله في المرة الثانية.

ففي حادثة عبدالله بن مسعود حين جهر بالقرآن لأول مرة في الحرم، وقام إليه المشركون فضربوه حتى أثروا في وجهه. قال له أصحابه: هذا الذي خشينا عليك، فقال: ما كان أعداء الله أهون علي منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غداً.. [1].

وهي كلمة من ابن مسعود تستحق التدبر والفهم. فكثيراً ما يكون الخوف والوهم بلاء أكبر من البلاء المتوقع نفسه، ولما حلَّ هذا الأمر بابن مسعود وجد أن الأمر أقل مما كان يقدِّر..

ويوضح سعد بن أبي وقاص هذا المعنى أيضاً بقوله: (كنا قوماً يصيبنا ظلف[2] العيش وشدته بمكة مع رسول الله ﷺ، فلما أصابنا البلاء اعترفنا لذلك ومرنا[3] عليه وصبرنا له..)[4].

ورأينا في مثال سابق كيف صبرت جارية بني المؤمل لتعذيب عمر بن الخطاب حتى كان يملّ من ذلك.

ولا شك بأن لقاء الصحابة بالرسول ﷺ ـ الذي كان يخفف من آلامهم ويمسح جراحهم ـ كان له الأثر الكبير في استمرار الصبر ومتابعة الطريق.

---

(١) سيرة ابن هشام ٣١٥/١.
(٢) أي بؤسه وشدته وخشونته.
(٣) أي: اعتدنا وداومنا.
(٤) حياة الصحابة للكاندهلوي ٣١٢/١ نقلاً عن الحلية لأبي نعيم ٩٣/١.

ولقد كانت الآيات الكريمة تبث فيهم روح الثبات، ونعتقد أن سورة البروج كان نزولها في هذه الفترة العصيبة لتشد من عزائم المؤمنين، وتبين لهم أن هذا الطريق يحتاج إلى الجهد الكبير وأن الجزاء مقابل ذلك عند الله كبير.. ولنستمع إلى جانب من هذه السورة الكريمة:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ..﴾[1].

«إن القيمة الكبرى في ميزان الله هي قيمة العقيدة، وإن السلعة الرائجة في سوق الله هي سلعة الإيمان، وإن النصر في أرفع صوره هو انتصار الروح على المادة، وانتصار العقيدة على الألم، وانتصار الإيمان على الفتنة.. وفي هذا الحادث انتصرت أرواح المؤمنين على الخوف والألم، وانتصرت على جواذب الأرض والحياة وانتصرت على الفتنة انتصاراً يشرف الجنس البشري كله في جميع الأعصار.. وهذا هو الانتصار».

«إن الناس جميعاً يموتون، وتختلف الأسباب، ولكن الناس جميعاً لا ينتصرون هذا الانتصار، ولا يرتفعون هذا الارتفاع، ولا يتحررون هذا التحرر، ولا ينطلقون هذا الانطلاق إلى هذه الآفاق.. إنما هو اختيار الله وتكريمه لفئة كريمة من عباده لتشارك الناس في الموت، وتنفرد دون الناس في المجد. المجد في الملأ الأعلى، وفي دنيا الناس..»[2].

---

(١) سورة البروج: الآيات ١ - ١١.

(٢) معالم في الطريق. لسيد قطب. بحث: هذا هو الطريق.

لا شك بأن تلك المعاني كانت بعض ما يجول بخاطرهم وهم يتلقون صنوف البلاء على أيدي المشركين.

* * *

وثبتت القاعدة الصلبة وتجاوزت الصدمة الأولى بنجاح كبير..

وكان الذين يعلنون إسلامهم بعد ذلك يعلمون مسبقاً ما ينتظرهم، ولذا فقد كانت نفوسهم مهيأة لذلك. ولم يحصل بعد المرة الأولى أن فتن مسلم وافتتن لهذا السبب الذي ذكرناه.

ولا يعني هذا أن قريشاً قد تحسن موقفها أو أنها هادنت الدعوة. فقد كان على كل مسلم يعلن إسلامه أن ينال الضرب والشتم. وهذا ما أصاب عمر بن الخطاب يوم إسلامه. فقد ثاروا إليه فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم، فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم.. وفي رواية البخاري أنهم أحاطوا ببيته ولم يدفعهم عنه إلا العاص بن وائل السهمي..

واستمر البلاء كذلك.. يتجدد كلما كانت هناك مناسبة.. فهذا ابن مسعود يضرب ضرباً شديداً يوم قرأ القرآن في الحرم. وهذا أبو بكر يضرب كذلك يوم خطب في الحرم. وهذا أبو ذر يضرب يوم أعلن إسلامه.

على أن هذا لم يمنع استمرار الدعوة ودخول الناس في الإسلام، وإن كان عاملاً من عوامل التريث لدى بعض من كان لهم رغبة في الدخول في هذا الدين.

وقد تفننت قريش بألوان المضايقات. فكان أبو جهل إذا سمع بالرجل قد أسلم، له شرف ومنعة أنبّه وأخزاه، وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفهن حلمك ولنضعن شرفك، وإن كان تاجراً قال: والله لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك، وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به[1].

* * *

(١) سيرة ابن هشام ١/٣٢٠.

ودعا رسول الله ﷺ أصحابه إلى الهجرة إلى الحبشة فقال: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد. وهي أرض صدق، حتى يجعل الله، لكم فرجاً مما أنتم فيه»[١].

وكانت الهجرة الأولى إلى الحبشة..

وكانت الهجرة الثانية إلى الحبشة..

ويعلل بعضهم رجوع مهاجري الهجرة الأولى بقصة الغرانيق الباطلة[٢]، وبعضهم يعلل ذلك بوصول خبر كاذب إليهم بأن قريشاً أسلمت.. والذي نراه أن شدة ارتباط العربي بقومه وأرضه كانت عاملاً نفسياً مهماً في هذه العودة..[٣].

ثم كانت الهجرة الثانية. وكان عدد أفرادها يزيد على الثمانين رجلاً. .ولا شك بأن هذه الهجرة أدت أغراضها فقد عاش المسلمون فترة من الزمن هناك كانت لهم الحرية في ممارسة شعائرهم..

وكان لها أهداف تربوية أخرى. ذلك أن هؤلاء المسلمين الأُوَل كانوا قد تحملوا البلاء في نفوسهم سخرية واستهزاء، وفي إجسادهم ضرباً وتعذيباً. وفي أموالهم وتجارتهم كساداً. تحملوا كل ذلك راضين، ومرنت نفوسهم على ذلك، وكان هناك أمر آخر ينبغي أن يتدربوا عليه وهو ترك الوطن من أجل العقيدة. حتى تكون العقيدة هي كل شيء.

وكان من حكمة الله أن يسَّر لهم هذه الهجرة. والذي يدفعني إلى هذا الرأي أني نظرت في أسماء المهاجرين إلى الحبشة فلم أجد بينهم بلالاً ولا صهيباً، وأما عمار فمشكوك في هجرته الأمر الذي يدفع إلى التساؤل بأنه لو كانت الهجرة إلى الحبشة هرباً من الاضطهاد لكان هؤلاء أولى بها. ولكنها

---

(١) سيرة ابن هشام ٣٢١/١.

(٢) انظر دليل ذلك تفصيلاً في كتاب (أضواء على دراسة السيرة) للمؤلف.

(٣) انظر تفصيل ذلك في المرجع السابق.

كانت تربية على أمر نفسي لم يكن بلال وصهيب وعمار بحاجة إليه فهم ليسوا من قريش. ومكة ليست بلدهم الأصل ولذا فلن يصعب عليهم تركه لو طلب منهم ذلك.

ومهما يكن من أمر فقد وقعت الهجرة، وبرهن المسلمون عملياً أنهم يقدمون عقيدتهم على بلدهم وأهلهم وقومهم، وذلك انتصار كبير يعرفه ويعرف قيمته كل المغرَّبين عن أوطانهم والمبعَدين عن أهلهم..

* * *

نستطيع القول الآن ـ وبعد تلك المعاناة المتعددة الجوانب ـ بأن هذه التربية قد استطاعت الوصول بالمسلمين الأُوَل إلى درجة القوة، وأنهم استطاعوا التخلص من ضعفهم النفسي والجسدي مستعينين بالصبر والصلاة ومن الجوانب البارزة في هذه القوة ضبط أنفسهم تنفيذاً لقوله تعالى: ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[1] وذلك طول مدة وجودهم في مكة.

إن العربي بطبيعته يأبى الضيم والذل. ولقد كانت الحماسة والاندفاع

(١) سورة النساء: الآية ٧٧. قال ابن كثير: كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة.. وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة منها: قلة العدد... ومنها: كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام.. ا.هـ.

أقول: وقد قال عمر يوم إسلامه مخاطباً المشركين:.. فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمائة لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا. [سيرة ابن هشام ٣٤٩/١] وما ذاك إلا لشعور منه بأهمية العدد في هذا الميدان.

وقال سيد قطب رحمه الله مشيراً إلى بعض حكمة هذا الموقف: «إن البيئة العربية كانت بيئة نخوة، تثور لصاحب الحق الذي يقع عليه الأذى، واحتمال المسلمين للأذى وصبرهم على عقيدتهم كان أقرب إلى استثارة هذه النخوة في صف الإسلام والمسلمين وهذا ما حدث بالقياس إلى حادث الشِّعب وحصر بني هاشم فيه، فقد ثارت النخوة ضد هذا الحصار، ومزقت العهد الذي حوته الصحيفة» [في ظلال القرآن ٣١٦٦/٥] وانظر أيضاً ١٨٥/١ من الظلال.

تدفع بعض الأحيان بعض المسلمين إلى اللجوء إلى السلاح للدفاع عن النفس وعن الكرامة ولكن الأمر صدر إليهم بالمنع.. ولقد التزموا بذلك والآية السابقة تشير إلى هذا الموقف الذي استمر الالتزام به حتى الهجرة إلى المدينة، فقد كان الحماس شديداً في بيعة العقبة الثانية حتى قال العباس بن عبادة لرسول الله ﷺ: إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا، فقال له: «لم نؤمر بذلك..»(١).

هذا الموقف من ضبط النفس طول تلك المدة، وعلى كثرة الحوادث التي أصابت المسلمين من ضرب واستذلال.. تؤكد أن قوة ضبط الأعصاب وقوة التحكم بالإرادة وفقاً للأوامر قد وصلت إلى الدرجة المطلوبة وأن تلك التربية قد آتت ثمارها.

ويقول سيد قطب رحمه الله في تحليل هذا الموقف:

«إن البيئة العربية كانت بيئة حرب ومسارعة إلى السيف، وأعصاب متوفزة لا تخضع لنظام، والتوازن في الشخصية الإسلامية كان يقتضي كبح جماح هذا التوفز الدائم، وإخضاعها لهدف وتعويدها الصبر وضبط الأعصاب، مع إشعار النفوس باستعلاء العقيدة على كل نزوة وكل مغنم، ومن ثم كانت الدعوة إلى الصبر على الأذى متفقة مع منهج التربية الذي يهدف إلى التوازن في الشخصية الإسلامية وتعليمها الصبر والثبات والمضي في الطريق»(٢).

ومما ينبغي التأكيد عليه أن الأمر بالامتناع عن القتال كان أمراً عارضاً لأسباب محلية، ذلك أن الله تعالى وصف المؤمنين في سورة الشورى فقال: ﴿.. وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۞ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ۞ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٤٤٨.

(٢) في ظلال القرآن ٥/٣١٦٦ - ٣١٦٧.

﴿وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ . . ﴾[1].

والآيات هنا مكية نزلت في الوقت الذي منع فيه دفع الأذى ورد العدوان ومع ذلك فهي تصف المؤمنين بأنهم: ﴿ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴾. ذلك أنها تقرر صفة أصيلة لا بد من وجودها في نفس المسلم بقطع النظر عن الظروف الطارئة.

إن «ذكر هذه الصفة في القرآن المكي ذو دلالة خاصة. . فهي تقرير لصفة أساسية في الجماعة المسلمة، صفة الانتصار من البغي، وعدم الخضوع للظلم، وهذا طبيعي بالنسبة لجماعة أخرجت للناس لتكون خير أمة، لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. وتهيمن على حياة البشرية بالحق والعدل، وهي عزيزة بالله ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2] فمن طبيعة هذه الجماعة ووظيفتها أن تنتصر من البغي وأن تدفع العدوان، وإذا كانت هناك فترة اقتضت لأسباب محلية في مكة، ولمقتضيات تربوية في حياة المسلمين الأوائل من العرب خاصة أن يكفوا أيديهم ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فذلك أمر عارض لا يتعلق بخصائص الجماعة الثابتة الأصيلة»[3].

* * *

كانت الهجرة إلى الحبشة - إذن - برهاناً على القوة التي وصل إليها هؤلاء المهاجرون رجالاً ونساءً.

ولكن عدداً لا بأس به من المؤمنين لم يهاجر، وظل مقيماً في مكة، إما لأنه وجد من يحميه من قرابته، وإما لأنه قد مَرُنَ على تحمل الأذى. .

وحدثت في العام العاشر من البعثة حادثة الإسراء والمعراج، ولم يحضر مهاجرو الحبشة حديثه ﷺ وهو يروي الحادثة. . وإنما حضره الذين لم يهاجروا.

---

(١) سورة الشورى: الآيات ٣٨ - ٤٠. (٢) سورة المنافقون: الآية ٨.

(٣) في ظلال القرآن ٥/٣١٦٦.

وحدّث الرسول ﷺ قريشاً بحديثه.. فكذبوه..

ووصل الخبر إلى أبي بكر فقال: «لئن قال ذلك لقد صدق» قالوا له: فتصدقه؟ قال: «نعم، إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه في خبر السماء في غدوة أو روحة»[1].

وكذلك كان أمر المؤمنين..

ولكن فئة منهم افتتنت. قال ابن كثير: «.. ثم رجع رسول الله ﷺإلى مكة، فأخبر أنه أسري به فافتتن ناس كثير، كانوا قد صلوا معه»[2] وفي سيرة ابن هشام «فارتد كثير ممن كان أسلم»[3].

إن المعجزات وسيلة للدعوة إلى الإيمان، ولكن معجزة الإسراء كانت وسيلة لتنقية الصف من الضعفاء، وإسقاط الذين هم على حرف..

ولقد كان هذا الاختبار من حيث مادته في أمر اعتقادي، غير قابل للمساومة فيه، وهو الثقة المطلقة بصدق الرسول ﷺ وصدق إخباره وكل ما يصدر عنه، وهو أمر أساسي تحدثنا عنه عندما تحدثنا عن العقيدة، في شأن التلقي على الرسول الكريم.

إنها قضية ينبغي ألا تساورها الشكوك. وهي قضية عقلية، كما رأينا، في موقف أبي بكر. وهو موقف كل المؤمنين الصادقين..

ونعتقد أن هؤلاء الذين ارتدوا كانوا حديثي عهد بهذا الدين، لم يمروا بالاختبارات القاسية التي مر بها المؤمنون الصادقون، وقد أثر عليهم ذلك الجو العام من الهرج والمرج الذي قامت به قريش عند سماعها للخبر..

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٣٩٩.
(٢) تفسير ابن كثير في مقدمة سورة الإسراء.
(٣) ج ١ ص ٣٩٨.

ومهما يكن من أمر فقد حصل التمحيص للصف الإسلامي، وسقطت الشوائب وتابع المؤمنون الصادقون سيرتهم برعاية الله تعالى، موقنين بقوله تعالى:

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۞ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ..﴾[1].

وبهذا أثبت الفريق الآخر - الذين ظلوا في مكة - قوتهم بعد أن سقط من سقط. وبهذا وصل الصف المسلم إلى مرتبة التناسق، التي لا بد من الوصول إليها في تكوين القاعدة الصلبة. ذلك أن «الجماعة حين يوجد فيها الأقوياء كل القوة لا يغنيها هذا إذا وجدت اللبنات المخلخلة في الصف بكثرة، ولا بد من التناسق مع اختلاف المستويات» كما يقول سيد رحمه الله[2].

---

(١) سورة النجم: الآيتان ٢ - ٣.

(٢) في ظلال القرآن ٢/٧٠٤.

الفصل الثالث

المسار الاجتماعي للتربية

تربية الفرد في إطار الجماعة:

إنَّ وجود «جماعة» ضرورة مهمة لتحقيق هذا الدين، بل إن الإسلام لا يتصور قيامه إلا في جماعة.

ولأصالة هذا المعنى في بناء هذا الدين، كان التطبيق العملي له في دنيا الواقع في وقت مبكر، يوم اتخذ الرسول ﷺ دار الأرقم مركزاً لدعوته.

وما ندري أيهما كان أولاً، اتخاذ دار الأرقم أم نزول سورة العصر[1]؟ ذلك أن سورة العصر تبين بوضوح أن دعوة الإسلام لا تكون إلا في جماعة. قال تعالى:

﴿ وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾[2].

و«التواصي» بالحق والصبر لا يتصور إلا في جماعة يوصي بعضهم بعضاً..

وقد أكد القرآن الكريم هذا المعنى في سورة البلد لدى حديثه عن أصحاب اليمين فقال:

﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ .. ﴾[3].

---

(١) رقم نزول سورة العصر «١٣» ولم يسبقها إلا السور القصار.

(٢) سورة العصر بكاملها

(٣) رقم نزول سورة البلد هو «٣٥». ورقم الآية ١٧.

جاء في الظلال في تفسير هذه الآية:

«والتواصي به [الصبر] يقرر درجة وراء درجة الصبر ذاته. درجة تماسك الجماعة المؤمنة، وتواصيها على معنى الصبر، وتعاونها على تكاليف الإيمان، فهي أعضاء متجاوبة الحس، تشعر جميعاً شعوراً واحداً بمشقة الجهاد لتحقيق الإيمان في الأرض وحمل تكاليفه، فيوصي بعضها بعضاً بالصبر على العبء المشترك، ويثبت بعضها بعضاً فلا تتخاذل، ويقوي بعضها بعضاً فلا تنهزم.. وهو إيحاء بواجب المؤمن في الجماعة المؤمنة».

و«التواصي» يعني فعالية زائدة على العمل ذاته، فهو يعني أن يحقق الفرد في ذاته المعنى المطلوب. ثم يحث غيره عليه ويتعاون الجميع.. فتبرز صورة مشرقة لجماعة متضامنة واعية خيرة.

إن هذه المشاركة التي تشير إليها السورتان، بل تقررانها حقيقة قائمة، لها دورها الفعال في رفع قوة الجماعة، ورفع قدرتها على التحمل والصبر، ورفع فاعليتها على العطاء في شتى مجالات الخير.

إنها صورة عجيبة يتحسسها الخيال وهو يقف عند لفظ «تواصوا» إن كل فرد في المجموعة يوصي غيره، وهو بدوره يُوصَى من غيره، وبهذا يظهر التماسك القوي الذي يريد القرآن أن تكون عليه جماعة المسلمين[1].

ثم جاءت سورة الشورى لتؤكد هذا المعنى بشكل جلي واضح أثناء حديثها عن الذين آمنوا فقال تعالى:

---

(١) توصل علماء الاقتصاد إلى أن واحد + واحد لا تساوي اثنين [١ + ١ ≠ ٢] بمعنى أن عملاً ما ينجزه عامل في ساعتين، فإنا لو جمعنا عليه عاملين معاً لأنجزاه في أقل من ساعة.. وهذا يعني أن روح الجماعة في عالم الاقتصاد تساوي قيمة مادية..
وقد قرر الإسلام هذا في ميدان الروح وعالم القيم، مع الفارق الكبير عن المثل الذي ضربناه، يساوي الفارق بين الروح والمادة.

﴿ . . وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[1].

نعم هكذا: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ وذلك في مكة وقبل أن تقوم دولة، إن القرآن الكريم هنا يقرر طابع الجماعة المسلمة قبل قيام الدولة وبعد قيامها، فهو يريد أن تكون هذه الصفة من صفاتها الثابتة.

وبدهي أن الشورى لا تكون إلا في جماعة..

واضح بعد هذا أن التربية في مكة، ومن وقت مبكر، أرست في نفوس المؤمنين مكانة الجماعة، وأن الفرد المؤمن جزء لا يتجزأ من هذه الجماعة. ولقد وعى المؤمنون هذا الأمر وعياً كاملاً برهنت عليه الوقائع والأحداث.

آصرة العقيدة:

قلت من قبل: إن التربية في مكة ـ بكل مساراتها ـ قوامها العقيدة، وإذا كان لكل جماعة من الجماعات الإنسانية رابطاً تجتمع عليه. فإن آصرة التجمع لدى المؤمنين هي العقيدة.

كان الرابط الذي اجتمع العرب عليه هو رابط الدم والنسب، والعشيرة والقبيلة والقوم، .. ومن هذا المنطلق جاء التصنيف الاجتماعي لديهم..

وفي مناقشة بين الأخنس وأبي جهل. بعد سماعهما القرآن من الرسول ﷺ قال الأخنس: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي

---

(١) الآية ٣٨ ورقم السورة نزولاً هو «٦٩».

رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه[1].

إذن كان الدافع إلى التكذيب هو الارتباط القبلي..

وكان على المسلم، وهو يعلن إسلامه، أن يشعر أن آصرة جديدة برزت في حياته ليرتبط مع الآخرين على أساسها هي آصرة العقيدة، إنه أصبح جزءاً من مجموعة «الذين آمنوا» التي يتحدث عنها القرآن..

ومما زاد هذا الرابط وضوحاً، ذلك البلاء الذي صب على المؤمنين دفعة واحدة في البدء، ثم صب على كل من آمن بعد ذلك. وهكذا وجد المؤمنون أنفسهم في صف واحد يعاملون من منطلق واحد. وبسبب واحد هو إيمانهم وعقيدتهم.

وإذا كان الأهل والقرابة هم الذين يقومون على عمليات التعذيب والتنكيل، فقد كانت الحركة التلقائية هي الانحياز إلى المؤمنين وهكذا أخذت «الجماعة» دورها في ميدان الأحداث..

حين أسلم خالد بن سعيد بن العاص أنبَّه أبوه، وضربه بمقرعة حتى كسرها على رأسه، وقال: والله لأمنعنك القوت، فقال خالد: إن منعتني فإن الله يرزقني ما أعيش به، وانصرف إلى رسول الله ﷺ فكان يكرمه، ويكون معه[2].

وهكذا حصلت المفاصلة بفعل الواقع العملي الذي واجهه المؤمنون من أهلهم وعشيرتهم، فابتعد الأبناء عن الآباء والأهل..

جاء حصين - والد عمران - إلى النبي ﷺ، وأصحابه متوافرون وبينهم عمران، وفي ذلك المجلس أعلن حصين إسلامه، فلما أسلم قام إليه

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٣١٦.

(٢) البداية ٣/٣٢، وقال في حياة الصحابة للكاندهلوي ١/٤٣: هو عند ابن سعد ٤/٩٤ والحاكم ٣/٢٤٨.

عمران فقبل رأسه ويديه ورجليه، فلما رأى ذلك النبي ﷺ بكى، وقال: «بكيت من صنيع عمران، دخل حصين وهو كافر فلم يقم إليه عمران، ولم يلتفت ناحيته، فلما أسلم قضى حقه فدخلني من ذلك الرأفة»[1].

على أن الإسلام قد تناول العلاقة بين الابن ووالديه الكافرين. وبيَّن ضرورة الإحسان فيها، وذلك في ثلاث سور مكية هي الإسراء والعنكبوت ولقمان، ففي سورة العنكبوت جاء قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا..﴾[2] وفي سورة لقمان: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[3]، ذلك واجب المسلم. ولكن ما ذنبه إذا كانا لا يرضيان إلا بكفره؟.

واستطاع الإسلام بتربيته الاجتماعية هذه أن يصل إلى مدى بعيد في ربط الفرد بالجماعة، بحيث لم يعد الفرد يتحسس آلام الآخرين بل يعيشها حقيقة وواقعاً. وهذا مستوى لم تصل إليه تربية أخرى على الإطلاق.

عندما رجع عثمان بن مظعون من الهجرة الأولى إلى الحبشة دخل مكة في جوار الوليد بن المغيرة. فلما رأى إيذاء المشركين للمسلمين ـ وهو آمن ـ رد عليه جواره..

صعب على عثمان أن يتميز على إخوانه ممن هم تحت التعذيب، ووجد أن السياط التي تدمي الجلد وتمزقه أقل على نفسه مما يعانيه حينما يكون في العافية، وإخوانه في الشدة.. إنها التربية التي جعلت من المسلمين جسداً واحداً..

---

(1) الإصابة لابن حجر ١/٣٣٧. (2) سورة العنكبوت: الآية ٨.

(3) سورة لقمان: الآية ١٥.

مفهوم «المساواة»:

أوجدت الجاهليات حواجز وفواصل بين الناس، من الدم والنسب، والأرض والقوم، والعشيرة، واللون واللغة والجنس والعنصر، والحرفة والغنى والفقر.. ووصلت هذه الفواصل في بعض الأحيان إلى أن يكون بعضهم أرباباً لبعض..

وجاء الإسلام منذ البدء ليقرر أن الناس جميعاً ينبغي أن يخضعوا لله تعالى، وأن ينفذوا أوامره.. وبهذا المعنى هم سواء، لا فرق بين غني وفقير ولا بين ذكر وأنثى، ولا بين عبد وحر، ولا بين أبيض وأسود.. وتذوب هنا الأجناس والأوطان والألوان واللغات.. وسائر هذه الحواجز المصطنعة.

قد يتسابق الناس ويرتفع بعضهم على بعض.. ولكن بالعمل الصالح وبالتقوى.. وهذا الارتفاع يظل رصيداً في الحياة الآخرة، أما في الحياة الدنيا فالناس سواء..

وهكذا عاش المسلمون الأوائل في ظل هذه التربية يلتقي بلال وأبو بكر وعمار وصهيب وعلي وعثمان.. على صعيد واحد. لا يشعر أحدهم أن له الفضل على الآخرين..

هذه المفاهيم لم يكن من السهل على غير المؤمنين أن يرتقوا إلى فهمها، ذلك أن الإيمان إنما هو نقطة تحول في حياة الإنسان من حيث الفكر والسلوك والعمل ومن حيث النظر إلى الموازين والقيم..

كان الصحابة يجلسون إلى الرسول الكريم ﷺ في الحرم، وذلك بعد أن تجاوزوا مرحلة الاستخفاء.. وحدث أن كان حوله مرة بلال وابن مسعود وغيرهما.. فمر عليه أشراف قريش، ورغبوا في الاستماع إليه ولكنهم أنفوا أن يجلسوا مع هؤلاء.. فطلبوا منه أن يبعد عنه هؤلاء إذا جلسوا إليه.. ورغب الرسول ﷺ في إيمانهم وغلب على ظنه أن ذلك ربما كان الوسيلة

إليه.. ولكن الآيات الكريمة نزلت لتصحح الاجتهاد الذي ذهب إليه الرسول الكريم ﷺ، وما كان يبغي من روائه إلا نصرة الدعوة وكسب عناصر جديدة.. ونزل قوله تعالى:

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾(١).

كان هذا في مكة والدعوة أحوج ما تكون إلى الأنصار والأتباع. ولكن القيم التي جاء بها الإسلام لا ينبغي أن تخدش من أجل أحد مهما كان شأنه. والإسلام لا يدخل إليه إلا من باب الخضوع الكامل لمفاهيمه.. وإلا لم يكن إسلاماً..

وتتدخل الآيات الكريمة مرة أخرى لتؤكد هذا المعنى في قصة عبدالله بن أم مكتوم.. فنزل قوله تعالى:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۞ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۞ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ..﴾(٢).

وهكذا يتقرر في نفوس المؤمنين أن قيم الأرض وموازينها لا مكان لها في ميزان الله تعالى..

وبهذا استأصل الإسلام من نفوس أفراده كل الجراثيم الخبيثة من الكبر والتعالي على الناس، فطهر هذه النفوس وزكاها، واستقرت قيمه الخالدة في دنيا المؤمنين.

لا هجرة إلى مكة:

وإذا كنا في صدد الحديث عن مسار التربية الاجتماعية في النفوس. فإنه يحسن بنا أن نعرج في الحديث على بنية الجماعة المسلمة في مكة.

يلاحظ في هذه البنية أنها ظلت قاصرة على المسلمين من أهل مكة أو من هو مقيم بها. وأما الذين أسلموا ممن هم من خارجها فإنهم لم يؤذن لهم بالإقامة فيها.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٥٢.

(٢) سورة عبس. الآيات الأولى من السورة. وارجع إلى تفسيرها في الظلال، فهو كلام نفيس لا تجده في غيره.

ففي حديث إسلام أبي ذر: أنه ﷺ قال له بعد إسلامه: «ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري»(١).

وفي قصة إسلام عمرو بن عبسة قال: فقلت إني متبعك قال [ﷺ]: «إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا. ألا ترى حالي وحال الناس؟ ولكن ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فائتني»(٢).

إن الذين أسلموا في مكة كان لهم من يحميهم من قبائلهم وعشائرهم، نعم إنهم قد اضطهدوا وعذبوا ولكن ذلك لم يصل إلى درجة الموت تحت التعذيب كالذي حصل لياسر وزوجته سمية إذ لم يكن لهما قبيلة في مكة. أما من كانت له قبيلة فإنها كانت تحول دون ذلك.

قال ابن إسحاق: مشى رجال إلى هشام بن الوليد، حين أسلم أخوه الوليد بن الوليد، وكانوا أجمعوا على أن يأخذوا فتية منهم كانوا قد أسلموا، منهم: سلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة. قال: فقالوا له ـ وخشوا شرهم ـ: إنا قد أردنا أن نعاتب هؤلاء الفتية على الدين الذي أحدثوا. فإنا نأمن بذلك في غيرهم. قال: هذا، فعليكم به فعاتبوه، وإياكم ونفسه، فأقسم بالله لئن قتلتموه لأقتلن أشرفكم رجلاً..(٣).

وهكذا كان الوضع لمن هو في مكة من أهلها، وأما الأرقاء فقد يسَّر الله لهم أبا بكر وأمثاله من المسلمين الذين كانوا يحررونهم.

كانت رغبته ﷺ ألا يحمل المسلمون ما لا طاقة لهم به أو ما يمكن تفاديه، فالذين يسلمون من خارج مكة لا ناصر لهم فيها، وبقاؤهم فيها ليس وراءه حكمة في الوقت الذي كان ﷺ يفتش فيه عن مكان آمن لأصحابه، فكان أمره برجوعهم إلى أقوامهم، حتى إذا سمعوا بظهوره جاؤوا إليه.

وهذا يدل دلالة واضحة على قناعته ﷺ وفي وقت مبكر أن مكة لن تكون مكاناً لقيام دولة الإسلام.

---

(١) رواه مسلم برقم ٢٤٧٤. (٢) رواه مسلم برقم ٨٣٢.

(٣) سيرة ابن هشام ١/٣٢١.

الفصل الرابع

المسار الاقتصادي للتربية

لا أريد في هذا الفصل الحديث عن الاقتصاد كنظام، وإنما أردت بيان استعماله في هذه المرحلة ـ المكية ـ من قبل قريش كسلاح في وجه الدعوة، وبيان الموقف التربوي والعملي من قبل المؤمنين في مقابل ذلك.

الصد عن الدعوة:

سبق الحديث عن مكة، وأنها بلد تجاري، وأن أصحاب رؤوس المال هم المتنفذون فيها، ذلك أن الرئاسة لا ينالها إلا من كان قادراً على الإنفاق، فالقلة القليلة هي التي تملك المال، وبسبب تعاملها بالربا نما المال في أيديها وكثر كثرة فاحشة.. وفي مقابل ذلك لم يبق لعامة الناس إلا شظف العيش وخشونته.

وهؤلاء الناس من الأغنياء وأصحاب المكانة يغلظ عادة طبعهم ويظنون أن الناس إنما يقادون من خلال بطونهم..

ولهذا لما بدأ ﷺ دعوته إلى الإسلام واستعملت الأسلحة المتنوعة في الصد عن سبيل الله، كان من جملتها العامل الاقتصادي.

وقد كان التضييق على المسلمين في سبل عيشهم وتكسيد تجارتهم واحداً من الضغوط التي مورست.. كما سبق وذكرت قول أبي جهل في ذلك.

ولقد كان كثير من أصحاب رسول الله ﷺ من الفتيان الذين ما زالوا في بيوت أهليهم ولم يستقلوا بحياة خاصة، ولقد عذب هؤلاء بالتجويع في

جملة ما عذبوا به، وقد رأينا من أمثلة ذلك ما سبق ذكره قريباً عن خالد بن سعيد بن العاص..

وأخرج أحمد عن خباب قال: كنت رجلاً قيناً(١)، وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه، فقال: لا والله، لا أقضيك حتى تكفر بمحمد، فقلت: لا والله، لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث. قال: فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثَمَّ مال وولد فأعطيك. فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا..﴾(٢).

وبهذا الأسلوب سارت الأمور على الصعيد الفردي..

ولكن الأمر لما تفاقم، وبدا أن أمر الإسلام ماض في طريقه.. اتخذت قريش قرارها الذي عرف في كتب السيرة باسم «خبر الصحيفة».

قال ابن إسحاق: فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقراراً، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، وأن عمر قد أسلم، فكان هو وحمزة بن عبدالمطلب مع رسول الله ﷺ وأصحابه، وجعل الإسلام يفشو في القبائل، اجتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم، وبني المطلب، على أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم(٣).

وهذا الأمر وإن لم يكن يتناول جميع المسلمين، لأنه كان خاصاً ببني هاشم وبني المطلب، مسلمهم وكافرهم، إلا أن جميع المسلمين عاشوه ألماً وضيقاً، وكيف لا يكون ذلك والمستهدف رسول الله ﷺ.

---

(١) القين: الحداد، وكان خباب يصنع السيوف.

(٢) رواه البخاري أيضاً برقم ١٠٦٠ ومسلم برقم ٢٧٩٥. والآية من سورة مريم برقم ٧٧.

(٣) سيرة ابن هشام ١/ ٣٥٠.

وهكذا لم تدخر قريش جهداً في الصد عن سبيل الله وبكل الوسائل المتاحة.

التوجيه القرآني:

قرن القرآن المكي بين الصلاة والزكاة في بعض آياته، ففي سورة النمل نجد قوله تعالى:

﴿ طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ * هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (١).

وقال تعالى في سورة لقمان:

﴿ الٓمٓ * تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (٢).

ويلاحظ في النصين الكريمين أن الحديث عن الزكاة كان في معرض الوصف وليس في سياق الأمر، ومن المعروف أن الزكاة لم تفرض إلا في المدينة، ولعل هذا كان تمهيداً لذلك.

كما كثرت الآيات التي تتحدث عن الإنفاق وأجر المنفقين نذكر منها:

قوله تعالى: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً .. ﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (٤).

---

(١) سورة النمل: الآيات ١ ـ ٣.
(٢) سورة لقمان: الآيات ١ ـ ٤.
(٣) سورة إبراهيم: الآية ٣١.
(٤) سورة الروم: الآية ٣٨.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴾ (١).

ويلاحظ في أسلوب هذه الآيات الكريمة وغيرها مما ورد في هذا الصدد في القرآن المكي أنه قائم على الحض والترغيب..

كما يلاحظ أنه لم يكن هناك تحديد لمقدار الإنفاق المطلوب بل ترك الأمر مفتوحاً ليتناسب البذل والعطاء مع قدرة المعطي من جانب ومع الحاجة المطروحة من جانب آخر.

وأراد القرآن أيضاً من المؤمنين الابتعاد عن الربا، وإن لم يكن أمر التحريم واضحاً، فقال تعالى:

﴿ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ﴾ (٢).

وواضح من الأسلوب القرآني أن الربا كان استغلالاً لحاجة الضعفاء وأن الزكاة ينبغي أن تكون البديل له في التعامل بين المسلمين.

التربية والواقع العملي:

وانطلاقاً من الآيات الكريمة التي تتابعت في الفترة المكية، ومن خلال الواقع المحيط بالمسلمين في مكة، كانت المعالجة العملية لأوضاع المسلمين المالية والمعاشية. وقد استعانوا على ما أصابهم بالأمور التالية والتي كان بعضها بالمبادرة الشخصية، وكان بعضها الآخر بتوجيه الرسول ﷺ. ومن ذلك:

١ ـ الصبر: وقد تحدثت في الباب الثاني من هذا القسم عنه باعتباره العدة في أمر التربية بشكل عام، ونلاحظ هنا جانباً من التطبيق له..

---

(١) سورة فاطر: الآية ٢٩.
(٢) سورة الروم: الآية ٣٩.

أخرج أبو نعيم عن سعد بن أبي وقاص قال: (كنا قوماً يصيبنا ظلف العيش بمكة مع رسول الله ﷺ وشدته، فلما أصابنا البلاء اعترفنا لذلك ومرنا عليه وصبرنا له، ولقد رأيتني مع رسول الله ﷺ بمكة خرجت من الليل أبول، وإذا أنا أسمع بقعقعة شيء تحت بولي، فإذا قطعة جلد بعير، فأخذتها فغسلتها ثم أحرقتها، فوضعتها بين حجرين، ثم أستفها[1]، وشربت عليها من الماء، فقويت عليها ثلاثاً)[2].

ولقد صبر النبي ﷺ ومن معه في حصار الشعب، حتى استثار صبرهم حمية بعض القوم من أمثال المطعم بن عدي، وهشام بن عمرو، وزمعة بن الأسود فقاموا بأمر نقض تلك الصحيفة الظالمة.

وهكذا مرن القوم على الصبر ـ كما قال سعد ـ فكان وسيلة آتت ثمارها في التغلب على الأزمات.

٢ ـ البذل والإنفاق: وما من شك بأن المؤمنين قد ساهموا مساهمة فعالة في البذل والإنفاق، كل بحسبه، تنفيذاً للتوجيهات القرآنية أولاً، وشعوراً بالمسؤولية ثانياً، ولقد رأينا كيف رد عثمان بن مظعون جوار الوليد حتى لا يتميز على إخوانه من المسلمين في الأمن، وإذا كان الأمر قد وصل بالمشاعر إلى هذا المستوى فما نعتقد أن مسلماً يومئذ يقبل من نفسه أن يبيت في حال من الشبع ومسلم آخر بحاجة إلى ما يسد رمقه ثم لا يفعل وهو قادر على ذلك.

ومن الأمثلة التي سجلتها السيرة في ميدان الإنفاق، ما بذله أبو بكر الصديق رضي الله عنه في تحرير الأرقاء المسلمين تخليصاً لهم من العذاب الذي أوقعه سادتهم عليهم. فأعتق بلالاً وعامر بن فهيرة، وأم عبيس، وزنيرة، والنهدية، وبنتها، وجارية بني المؤمل، وأبا فكيهة مولى أمية بن خلف.

---

(١) سف الدواء، يسفه سفاً، وأسفه أيضاً إذا أخذه غير ملتوت، وكل دواء يؤخذ غير معجون فهو سفوف (مختار الصحاح).

(٢) حلية الأولياء ٩٣/١.

وقد أنفق أبو بكر في ذلك أموالاً طائلة مما أضر بماله، وعاتبه في ذلك والده أبو قحافة..

٣ ـ جاء في إحدى روايات إسلام عمر قوله: .. لقيني رجل من قريش فقال: أين تذهب؟ إنك تزعم أنك هكذا وقد دخل عليك هذا الأمر في بيتك، قلت: وما ذاك؟ قال: أختك قد صبأت، فرجعت مغضباً، وقد كان ﷺ يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوة، فيكونان معه، ويصيبان من طعامه، وقد ضم إلى زوج أختي رجلين..[1].

ويستوقفنا في هذه الرواية ما ذكره عمر بن الخطاب من ضم الرجل والرجلين إلى الرجل القادر فيكونان معه ويصيبان من طعامه..

إنه أسلوب من الأساليب في معالجة الأزمة التي كانت محدقة يومئذ، قام الرسول ﷺ بتنفيذه للتغلب على وضع محرج.

إن أحد الرجلين الذين ضما إلى سعيد بن زيد هو خباب بن الأرت، وخباب هذا لم يكن قبل إسلامه بحاجة إلى مساعدة أحد، فقد كان يعمل السيوف، والذي يبدو أنه بعد إسلامه أصابه بلاء الجاهلية كما أصاب غيره، فكسدت تجارته، وضيق عليه في مورد رزقه، وقد رأينا كيف امتنع العاص بن وائل عن وفائه دينه.. فكان بحاجة إلى المساعدة فضم إلى سعيد ريثما تمر الأزمة.

وشبيه بهذا قصة خالد بن سعيد حين منعه والده من القوت.. فانصرف إلى رسول الله ﷺ فكان يكرمه ويكون معه[2] وربما ضمه إلى بعض أصحابه كما حدث لخباب..

---

(١) شرح الزرقاني على المواهب ٢٧٣/١، وهو من رواية أسلم عن عمر عند البزار والطبراني وأبي نعيم والبيهقي، ورواه الدارقطني من حديث أنس، وابن عساكر والبيهقي عن ابن عباس وأبو نعيم عن طلحة وعائشة.

(٢) البداية والنهاية ٣٢/٣.

٤ ــ وهناك عامل آخر كانت تحسب له قريش حسابها عند الضرورة، فإنها كانت تمتنع عن إيذاء بعض المسلمين إذا كان ذلك الإيذاء يهدد مصالحها الاقتصادية، والمثال على ذلك: ما جاء في صحيح مسلم عن قصة إسلام أبي ذر فإنه لما أعلن إسلامه في المسجد الحرام ثار القوم فضربوه.. ولم يستنقذه منهم إلا العباس حين قال لهم: ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار، وأن طريق تجارتكم إلى الشام عليهم..[1].

وبهذه الروح التي مرنت على الصبر، وبتلك النفوس التي لم تدخر وسعاً في البذل والعطاء، وبذلك التعاون الفعال، قطعت الدعوة الطريق في مرحلته الأولى.. فأثبتت نجاحها وثباتها.. وأثبتت أن هذه التربية هي التي تستطيع الوصول إلى غاياتها.

---

(١) رواه مسلم برقم ٢٤٧٤.

الفصل الخامس

سمات التربية في المرحلة المكية

تحدثنا في الفصول السابقة عن مسارات التربية، ورأينا كيف تناولت كل مسارب النفس الإنسانية، منطلقة من قاعدة العقيدة، معتدة بالصبر مستنيرة بالتصور الصحيح، في سبيل بناء القاعدة الصلبة التي يقوم عليها بناء الإسلام.

ونتحدث في هذا الفصل عن السمات الأصيلة القائمة في بنية هذه التربية، استكمالاً للتصور الكامل للموضوع، ومن هذه السمات:

١ ـ تربية أمة:

إن هذه التربية تربية أمة، والأمة في مفهومها الإسلامي: الجماعة التي تدين بعقيدة واحدة، وتتجمع على آصرتها، وتدين لقيادة واحدة قائمة على تلك العقيدة[١].

وهذا يعني أن يربى الفرد فرداً، ويربى فرداً في جماعة، وهذا بدوره يقتضي تكثيف العمل وانتشاره على مساحة واسعة تشمل أرجاء النفس كلها..

إنها تربية تبدأ من داخل النفس في اتجاهين: تصفيتها من رواسب الجاهليات والسير بها في الطريق الإيجابي، طريق البناء الخلقي. وفي الوقت نفسه تبنى خارجياً على محاربة الشر والباطل.. والولاء لقيادة الأمة المذكورة، وهي في الوقت نفسه تربى في كلا الأمرين ـ داخل النفس

---

(١) في ظلال القرآن ١٤٠٢/٣ وانظر ١٣٨٥/٣.

وخارجها ـ وفق مفهوم جماعي قوي الترابط. لأن ترابطه قائم على أساس اعتقادي..

وهذا النوع من التربية ليس عملاً سهلاً، لما يحتاج إليه من التناسق والترابط والسير به في خطى متوازية، ولكن الذي يسهل هذا الأمر، أنه يسدد خطواته الوحي ويشرف على التنفيذ قائد هذه الدعوة الرسول ﷺ، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾[1].

٢ ـ التربية بالأحداث:

إنها تربية تطبيقية تقوم في واقع الحياة العملية، ولم تكن مجرد محاضرة أو درس، أو تصور نظري، ذلك أنا لسنا أمام ترف فكري أو فلسفة عقلية.

ما فائدة أن يستمع الإنسان إلى العديد من المحاضرات في أمر عملي، ثم لا يمارس التطبيق مرة واحدة في واقع الحياة؟[2].

ومن التربية بالأحداث الاستفادة من تجارب السابقين، فهي خبرات عملية، ولقد قص القرآن الكريم الكثير منها.. وهي بين موقفين: موقف إيجابي يحسن التأسي به وموقف سلبي ومنزلقات على الطريق ينبغي الحرص والابتعاد عنها.

وقد رأينا كيف استفاد الصحابة من قصة أصحاب الأخدود في صبرهم، كما رأينا كيف أن الرسول الكريم خفف عن خباب حين جاء

(١) سورة النساء: الآية ٨٢.

(٢) من وقائع الحياة التي عايشناها، أن شيخاً حصل على مرتبة علمية في بحث التصوف، ثم رغبة منه في نشر العلم بدأ يلقي دروسه في الموضوع الذي نال شهادته على أساسه في أحد مساجد دمشق القديمة، وحدث مرة عند خروجه من درسه أن أحد الغلمان دخل بدراجته بين رجلي الشيخ بسبب شدة الزحام، فما كان منه إلا أن انهال على الغلام ضرباً ولكماً حتى تدخل العامة من الناس لكفه عنه.. إن كل تلك الشهادة لم تكن قادرة على إثبات نجاحه في ذلك الموقف البسيط.

يشتكي إليه، بصبر الأمم السابقة وخباب يومئذ إنما كان يشكو واقعاً عملياً، وقد رفع الرسول ﷺ من همته بواقع عملي آخر سابق.

وبهذا الأسلوب من التربية تتحول المفاهيم إلى حركة، فلا يعود الإسلام نطقاً بالشهادتين بغير مدلول: وإنما يصبح انسلاخاً من مجتمع جاهلي بكل قيمه وتصوراته.. وانطلاقاً إيجابياً في سبيل قيم الخير.

ولقد أحسن سيد ـ رحمه الله ـ عندما فسر قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1].

قال: «والذي يستقيم عندنا في تفسير الآية: أن المؤمنين لا ينفرون كافة، ولكن تنفر من كل فرقة منهم طائفة ـ على التناوب بين من ينفرون ومن يبقون ـ لتتفقه هذه الطائفة في الدين بالنفير والخروج والجهاد والحركة بهذه العقيدة، وتنذر الباقين من قومها إذا رجعت إليهم، بما رأته وما فقهته من هذا الدين في أثناء الجهاد والحركة».

«والوجه في هذا الذي ذهبنا إليه.. أن هذا الدين منهج حركي لا يفقهه إلا من يتحرك به، فالذين يخرجون للجهاد به هم أولى الناس بفقهه، بما يتكشف لهم من أسراره ومعانيه.. أما الذين يقعدون فهم الذين يحتاجون أن يتلقوا ممن تحركوا..»[2].

إن هذا الفهم هو الذي يتساوق مع منهج هذه التربية بمقوماتها وسماتها.

ولعل هذه السمة «التربية بالأحداث» تفسر لنا ما يكاد يصبح سمة أخرى بارزة في هذه التربية، وهو الابتلاء.

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٢.

(٢) في ظلال القرآن ٣/١٧٣٤.

إن تحول المفاهيم إلى حركة هو الذي يخيف الجاهلية. ويجعلها تأخذ حذرها أولاً، وتدبر للمسلمين المكائد.. وينتج عن ذلك الابتلاء.. ولو كان الإسلام مجرد فكر أو اعتقاد لا حركة له في الواقع لما كان هناك من يتعرض له، فقد برز على مسرح مكة قبل البعثة رجال أطلق عليهم «الحنفاء» فارقوا معتقدات قومهم وعباداتهم واجتنبوا عبادة الأصنام.. ومع ذلك لم يقف في وجههم أحد ولم يزعجهم أحد بكلمة، ذلك أن فكرهم لم يتحول إلى حركة.

٣ ـ تربية وئيدة الخطى:

وننظر في حساب الزمن، فنجد أن هذه التربية استغرقت ثلاثة عشر عاماً، وننظر في حساب الوحي فنجد أن أكثر من نصف القرآن نزل في هذه المدة..

لم تكن المهمة سهلة، إنها تعامل مع نفوس بشرية، كانت الغاية منه تغيير هذه النفوس، بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، ثم التغيير بهذه النفوس..

ولقد سميت مهمة التعامل مع النفوس تربية، ذلك أنها تكون تعهداً حالاً بعد حال إلى حد التمام[1].

إن طبيعة العملية التربوية تحتاج إلى وقت، وإذا كانت هذه العملية تشمل ساحة النفس كلها على السطح، وتصل إلى الأعماق في الاتجاه الأخر. فذلك يفسر لنا الحاجة إلى ذلك الوقت الذي ذكرناه، وإلى كل تلك الآيات التي نزل بها الوحي في هذه المدة.

ويشرح سيد ـ رحمه الله ـ كيف تمت هذه التربية فيقول:

---

(١) في كتاب مفردات الراغب الأصفهاني: الرب في الأصل التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام. [عن كتاب مدخل إلى التربية للأستاذ عبدالرحمن الباني ص ١١].

«هذه الجماعة المثالية التي تمثلت حقيقة واقعة في فترة من فترات التاريخ، لم تنبت فجأة ولم توجد مصادفة، ولم تخلق بين يوم وليلة، كذلك لم تظهر نتيجة نفحة تغير طبائع الأشياء كلها في لحظة أو ومضة. بل نمت نمواً طبيعياً بطيئاً كما تنمو الشجرة الباسقة العميقة الجذور، وأخذت الزمن اللازم لنموها، كما أخذت الجهد الموصول الثابت المطرد الضروري لهذا النمو، واحتاجت إلى العناية الساهرة، والصبر الطويل، والجهد البصير في التهذيب والتشذيب، والتوجيه والدفع، والتقوية والتثبيت، واحتاجت إلى معاناة التجارب الواقعية المريرة، والابتلاءات الشاقة المضنية، مع التوجيه لعبرة هذه التجارب والابتلاءات..»[1].

٤ ـ التربية وقيمة العمل:

مما تقرره هذه التربية في النفوس أن «العمل» ـ أي عمل، سواء أكان مادياً أم معنوياً ـ إنما يستمد قيمته من الباعث الذي دفع إلى القيام به، أو ما نعبر عنه بـ «النية».

وهذا المقياس في التقويم له نتائج عظيمة في واقع الحياة، حيث يقوم المؤمن بالعمل أداء للواجب أو إسهاماً في الخير.. امتثالاً لأمر الله تعالى، ولا ينتظر النتائج. ذلك أن تقدير قيمة العمل لا تتوقف على حصول النتيجة أو شعور القائم به أنه وصل إلى نتيجة.

قال ﷺ: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة» ومات ياسر وقبله ماتت زوجته سمية، ولم يشعرا أنهما وصلا إلى نتيجة.. ولكن الجزاء ليس مرتبطاً بالنتيجة وإنما بالعمل..

وعدم شعور المؤمن بالوصول إلى نتيجة لا يعني عدم هذه النتيجة، فإنه في كثير من الأحيان قد تكون هذه النتيجة غير منظورة.. وقد تأتي متأخرة.

نكتفي بهذا القدر من السمات وبها نختم حديثنا عن هذا الموضوع.

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٣٣٧.

خلاصة المرحلة المكية

كانت حصيلة الدعوة في مكة عدداً لا بأس به من المؤمنين والمؤمنات، استطاعوا أن يبرهنوا أن عقيدتهم التي دانوا بها، ودانوا لها، أغلى شيء في حياتهم، بل وأغلى من حياتهم ذاتها.

كان البرهان واقعاً قاسياً، اجتازوه بنجاح كبير، من صبر على الجوع والعري، وترفع على السخرية والاستهزاء، وتحمل لآلام الضرب والشتم، وإعراض عن بذيء القول وسفساف الكلام..

وكان البرهان انضباطاً مع الأوامر والتوجيهات، وطاعة لله وللرسول، وتخلياً عن ردود الفعل، وتخلصاً من وشائج الجاهلية.

وكان البرهان هجرة تعني ترك الأهل والوطن والمصالح، وتنازلاً عن كل المعاني الأخرى التي ترتبط بالأهل والوطن..

وكان البرهان صبر عشر سنوات على آلام متنوعة، تدرب فيها الفرد المسلم على مجالات الصبر. وأتقن العيش فيها..

وكان البرهان ثقة مطمئنة، وأملاً كبيراً في موعود الله، بأن الفرج قريب وأن النصر آت. وأن الصبح قريب.

وهكذا تحولت المعاني الفاضلة إلى شخوص تمشي على الأرض، في هؤلاء المؤمنين الصابرين..

عندها اطمأن ﷺ على صلابة القاعدة.. بعد أن مرت على التجارب والمختبرات.. واطمأن إلى جاهزيتها على قاعدة الانطلاق.. منتظرة الأمر أو الإذن..

عندها أذن الله للبناء أن يرتفع، وفقاً لسننه سبحانه وتعالى التي أودعها في مخلوقاته..

القِسْمُ الثَّانِي

الهِجْرَة

نتحدث في هذا القسم عن الهجرة.

والهجرة هي الفاصل بين عهدي السيرة، عهدها في مكة، وعهدها في المدينة.

وهي الفاصل بين الإعداد والتهيئة وبناء القاعدة، وبين البدء بالبناء.

وهي المعلم الذي اختاره المسلمون ليكون بدءاً لتاريخهم.

والهجرة وإن كانت حدثاً وقع في وقت معين، إلا أنها كانت حصيلة لجهد كبير توّج بها، كما كانت أساساً لاستمرار دعوة الإسلام.

والهجرة عبادة يقوم بها الدعاة اقتداء به ﷺ كلما ألجأتهم الحاجة إليها.

ونتناول هذا الموضع في فصلين:

الأول: الهجرة إلى الحبشة.

الثاني: الهجرة إلى المدينة.

الفصل الأول

الهجرة إلى الحبشة

ملخص الحادثة:

هناك هجرتان إلى الحبشة، كانت الأولى في شهر رجب من السنة الخامسة من البعثة، وكان عدد المهاجرين فيها عشرة رجال وأربع نسوة ـ وهم الذين ذكرتهم رواية ابن إسحاق ـ. وقد عادوا إلى مكة في شهر شوال من العام نفسه، وسبب ذلك سماعهم بخبر كاذب مفاده أن أهل مكة قد أسلموا.

ثم كانت الهجرة الثانية بعد ذلك بسبب اشتداد الضغط على المسلمين، وكان عدد المهاجرين فيها ثلاثة ـ أو إثنين ـ وثمانين رجلاً وثماني عشرة امرأة.

وقد رجع قسم من هؤلاء إلى مكة وعددهم ثلاثة وثلاثون رجلاً، وذلك عند سماعهم بإذن النبي ﷺ بالهجرة إلى المدينة، وقد هاجروا منها إلى المدينة، بعد أن حبس بعضهم بمكة، ومات إثنان منهم فيها. وأما بقية المهاجرين فقد استمروا على إقامتهم في الحبشة حتى عادوا منها إلى المدينة مباشرة في العام السابع من الهجرة وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب[1].

---

(١) عن كتاب (أضواء على دراسة السيرة) للمؤلف. وفيه تحقيق كامل عن الهجرة إلى الحبشة، وبيان لكل الإشكالات التي أثيرت بسبب عودة المهاجرين مثل قصة الغرانيق وغيرها.

أسباب الهجرة:

قال ابن إسحاق: فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية - بمكانه من الله ومن عمه أبي طالب - وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه». فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام(١).

وليس من خلاف في أن هذه الهجرة كانت بسبب الظلم الذي وقع على المسلمين. قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۞ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ..﴾(٢).

قال الأستاذ محمد عزة دروزة: وفي الآيتين صراحة بأن الهجرة في الله إنما كانت بعد الظلم الذي وقع على المهاجرين، كما أنهما احتوتا بشرى بعناية الله بهم وبتبوئهم في هجرتهم مبوأً حسناً، وتنويهاً بما كان من صبرهم واعتمادهم على الله(٣).

لم يهاجر الفقراء:

عندما نقرأ أسماء المهاجرين إلى الحبشة، في الهجرتين، لا نجد بلالاً، ولا صهيباً، ولا خباباً، وهناك شك في هجرة عمار، والراجح أنه لم يهاجر.

إن هؤلاء ومن كان على شاكلتهم لم يهاجروا، وهم أحوج إلى الفرار

---

(١) سيرة ابن هشام ٣٢١/١.

(٢) سورة النحل: الآيتان ٤١ - ٤٢ ومن المعلوم أن السورة مكية.

(٣) سيرة الرسول ﷺ صور مقتبسة من القرآن الكريم ٢٦٢/١.

بـدينهم من غيرهم، لأنـه ليس لهم من يحميهم. . . إنهـا مسـألـة تلفت النظر؟!.

قال سيد قطب ـ رحمه الله ـ: «والقـول بأنهم هـاجروا إليهـا لمجرد النجاة بأنفسهم، لا يستند إلى قرائن قوية، فلو كان الأمر كذلك لهاجر إذن أقل الناس جاهاً وقوة ومنعة من المسلمين، غير أن الأمر كان على الضد من هذا، فالموالي المستضعفون الذين كان ينصب عليهم معظم الاضطهـاد والتعذيب والفتنة لم يهاجروا، إنما هاجر رجال ذوو عصبيات. . وربما كان وراء هذه الهجرة أسباب أخرى كإثارة هزة في أوساط البيوت الكبيرة في قريش، وأبناؤها الكرام المكرمون يهاجرون بعقيدتهم. .»[1].

ويعلل الأستاذ دروزة هذا الأمر فيقول: «وقد تبادر لنا تعليلاً لذلك: أن ضغط زعماء قريش كـان أكثر شـدة على أبناء أسـرهم لأنهم تحسبوا من عواقب إسلامهم بالنسبة لعامة الناس وسائر شباب الأسر، في حين أنه لم يكن ما يخشونه من مثل ذلك من المساكين والأرقاء والفقراء والغرباء، وهذه صورة مخالفة لما قد يكون في الأذهان»[2].

إن مـا ذهب إليه سيـد ـ رحمه الله ـ رأي لـه وجهته. أمـا ما ذهب إليـه دروزة ـ رحمه الله ـ فإن النصوص التي بين أيدينـا في السيرة تنفي ذلـك وكلها متفقة على أن الضعفاء والموالي هم الذين تحملوا أعظم العذاب.

والذي أراه: أن هذه الهجرة كانت توطئة نفسية وعملية لهؤلاء على مغادرة الوطن. الأمر الذي كانوا بحاجة إلى التدرب عليه، بينما لم يكن لأولئـك الموالي حـاجة بـذلك فهم ليسـوا أهل مكـة. ونؤيد ذلـك بـأن المهاجرين في الهجرة الأولى رجعوا لمجرد خبر كاذب وما ذاك إلا لرغبتهم في الرجوع إلى وطنهم، وكنت قد سجلت هذا الرأي مفصلاً في (من معين السيرة) ومما قلته:

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢٩.

(٢) سيرة الرسول ﷺ، لدروزة ١/ ٢٦٤.

«إن هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم [الموالي والضعفاء] عذبوا حتى ملَّ المعذبون ورأوا أن لا فائدة من ذلك، وكأن التعذيب كان لقاحاً مضاداً لجرثوم المرض ـ الذي هو الخوف ـ فما عادوا يهتمون، إن كل ما لدى قريش من وسائل في التنكيل قد خبروه وعرفته أجسادهم. . .

«إن الذين بعث إليهم وفيهم رسول الله ﷺ كان يؤثر في سلوكهم ونفسياتهم أمران: الارتباط بالقوم ممثلاً بالعشيرة والقبيلة، والارتباط بالأرض، وهما أمران يزاحمان في النفس معاني التوحيد، وكان لا بد من التخلص عملياً ـ وليس قولاً ـ من ذلك.

«وكان إعلان الإيمان تخلصاً من العصبية القبلية. .

«أما الارتباط بالأرض، فقد كانت مكة أم القرى، وكانت العاصمة الدينية للعرب قاطبة، وكان موسم الحج كل عام يؤكد هذه المكانة، فسكانها هم حماة الحرم. . وإذن فقد تحول الارتباط بهذه الأرض إلى مزايا نفسية واجتماعية جعلت سكانها أكثر وأكثر ارتباطاً بها. . .

«وكانت الهجرة هي التطبيق العملي لأولوية العقيدة، وترك الأرض ـ بكل ما تعنيه من وشائج ومصالح وارتباطات ـ في سبيلها، وكان لا بد أن يكون الدرس عملياً. ذلك أن الدروس النظرية في العقيدة غير مجدية.

«ولعل هذا يفسر لنا عدم ضرورة اشتراك بلال وأمثاله في تطبيق هذا الدرس، بينما كان غيرهم بحاجة إليه، مثلهم في ذلك مثل الأغنياء والفقراء، فإن الأغنياء هم الذين يعنيهم فقه الزكاة، وليس الأمر كذلك بالنسبة للفقراء»[1].

---

(١) كتاب (من معين السيرة) للمؤلف ص ٨٦ ـ ٩٠.

هل كانت «الحبشة» بدء محاولة لهجرته ﷺ:

يميل الأستاذ دروزة إلى ذلك دون تصريح به فيقول: «بل إنه ليخطر بالبال أن يكون من أسباب اختيار الحبشة النصرانية أمل وجود مجال للدعوة فيها، وأن يكون هدف انتداب جعفر متصلاً بهذا الأمل، ولعل فيما روي ـ أكثر من مرة ـ عن إسلام النجاشي وغيره من الأحباش ووفادة بعضهم على النبي ﷺ مسلمين مستطلعين ما يستأنس به على هذا الخاطر..»[(١)].

وذهب إلى التصريح بذلك صاحب الظلال فقال: «ولقد سبق الاتجاه إلى يثرب ـ لتكون قاعدة للدعوة الجديدة ـ عدة اتجاهات.. سبقها الاتجاه إلى الحبشة، حيث هاجر إليها كثير من المؤمنين الأوائل». وبعد أن تحدث عن رأيه في سبب عدم هجرة الموالي قال: «ولكن مثل هذه الأسباب لا ينفي احتمال أن تكون الهجرة إلى الحبشة أحد الاتجاهات المتكررة في البحث عن قاعدة حرة... وبخاصة حين نضيف إلى هذا الاستنتاج ما ورد عن إسلام نجاشي الحبشة. ذلك الإسلام الذي لم يمنعه من إشهاره نهائياً إلا ثورة البطارقة عليه. كما ورد في روايات صحيحة»[(٢)].

ونعتقد أن هذا الرأي لا تؤيده وقائع السيرة وأحداثها:

فقد كان المهاجرون إلى الحبشة قد استقروا فيها مع مطلع العام السابع من البعثة، ومع ذلك فالنبي ﷺ استمر يعرض نفسه في المواسم، ولو كان في نيته أن يذهب إلى الحبشة لما فعل ذلك. إذ كانت غاية العرض أن يجد من يحمله معه ويضمن له الحرية حتى يبلِّغ عن ربه عز وجل.

ثم إنه ﷺ ذهب إلى الطائف يفتش عن قاعدة لدعوته، وذلك في العام العاشر من البعثة، وكان أصحابه يومئذ في الحبشة وهم يزيدون على

---

(١) سيرة الرسول ﷺ لدروزة ٢٦٥/١.

(٢) في ظلال القرآن ٢٩/١.

المائة، ومع ذلك لم يتصل بهم أو يطلب إليهم محاولة التمهيد لمجيئه إليهم. ولو كان في نيته الذهاب إلى الحبشة لم يذهب إلى الطائف.

وأمر ثالث: وهو أن القرآن أنزل باللغة العربية، ولا يستطيع غير العربي أن يتفاعل معه في بدء الدعوة خاصة بالشكل المطلوب، وكان لا بد أن تكون القاعدة من أصحاب اللغة نفسها، وهذا يفسر لنا بوضوح إصراره ﷺ على عرض نفسه على القبائل العربية دون التفكير بأي حل آخر.

وقد تعب ﷺ في رحلته إلى الطائف، وأصابه فيها من البلاء ما أصابه، ووصل إلى درجة من الضيق دفعته أن يدعو دعاءه المشهور (اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي...)، ونزل جبريل عليه السلام وبصحبته ملك الجبال ـ كما في الصحيحين ـ يستأمر رسول الله ﷺ أمره في أهل مكة... كل هذا يدل على مدى الضيق الذي ألمَّ به ﷺ... ولم يكن رجوعه إلى مكة أمراً سهلاً... ومع ذلك لم يتوجه إلى الحبشة... الأمر الذي يؤكد أن هذه القضية لم تدر بخلده ﷺ.

لماذا «الحبشة» إذن؟:

وقد يقال: إذا كان الأمر كذلك فلماذا وجه ﷺ أصحابه إلى الحبشة لا إلى غيرها؟

ويبدو لي ـ والله أعلم ـ أن هناك أكثر من باعث لهذا التوجيه:

فالرسول ﷺ يوضح جانباً من الباعث على ذلك التوجيه بقوله: «فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد». وإذن فشخصية الملك النجاشي الذي يتحقق عنده العدل، باعث مهم.

ثم إن قرب المسافة بين مكة والحبشة يمكن أن تكون واحداً من العوامل.

والأمر الأكثر شأناً، أن ملك الحبشة لا سلطان للقبائل العربية عليه، ولـذلك لمـا أرسلت قريش وفـدها إليـه تـطلب أن يـردَّ إليهـا المهـاجـرين لم يفعل. . . ولم تستطع قريش أن تفعل شيئاً.

ولو كان هؤلاء المسلمون قد اتجهوا إلى قبيلة عربية. . . فإن تلك القبيلة لن تستطيع رد طلب قريش، أو تقوم الحرب بين الطرفين. . هذا إذا قبلت قبيلة عربية أن تفعل هذا. وما نظن أن ذلك يحدث لأن كل تلك القبائل رفضت أن تؤوي رسول الله ﷺ خوفاً من اختلافها مع قريش.

وهذا مما يلقي الضوء على عظيم حكمته صلى الله عليه وسلم.

الفصل الثاني

الهجرة إلى المدينة

العام العاشر من البعثة:

مضت عشر سنوات من عمر الدعوة في جهاد شاق مرير، كانت حصيلته مائة مؤمن ومؤمنة استقروا في الحبشة، وعدداً يسيراً في مكة، وأفراداً يعدون على الأصابع في قبائلهم كأبي ذر وعمرو بن عبسة السلمي.

وقد وصل الأمر إلى جمود الدعوة إن لم نقل توقفها، وذلك بفعل إعلام قريش.. وانتظار الناس ما تؤول إليه الحال بين محمد ﷺ وبين قومه.

ولم يمض على خروجه ﷺ من الشِّعب إلا مدة يسيرة، حتى توفي عمه أبو طالب، وبعده بأيام توفيت خديجة زوجه.. فتتابعت الهموم حتى سمي ذاك العام عام الحزن.

لم يكن أبو طالب إنساناً كبقية الناس بالنسبة إليه ﷺ، فقد بدأ حياته في رعايته منذ الثامنة، وكان له طيلة مدة حياته بعد ذلك معيناً وعضداً وحرزاً يدفع عنه أذى قريش.. وكانت خديجة السند الآخر الذي يخفف عنه الآلام والأحزان...

وكانت جرأة المشركين عليه ﷺ بعد وفاتهما كبيرة، حتى نثروا التراب فوق رأسه الشريف.. ووضع أحدهم سلى[1] جزور بين كتفيه وهو ساجد.. حتى جاءت ابنته فرفعته عنه.. وهم يضحكون ويميل بعضهم على بعض

(١) السلى: الجلد الرقيق الذي يخرج فيه الولد من بطن أمه. (النهاية).

من شدة الضحك.. وهذا ما يوضح لنا قوله ﷺ: «ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب».

كانت القناعة قائمة عنده ﷺ من قبل هذا كله أن مكة لن تكون مركزاً لانطلاق الدعوة، وهذا ما دعاه أن يعرض نفسه على القبائل..

ولقد وصلت هذه القناعة ـ فيما يبدو ـ إلى درجة اليقين بعد الذي رأى منهم بعد موت أبي طالب، ولذا كان لا بد من التفكير في أسلوب جديد..

وكانت رحلته إلى الطائف..

هذه الرحلة التي بلغت فيها المشقة ذروة خطها البياني، كان الأمل كبيراً أن يجد العقل الواعي الذي يفهم عنه، وكان الأمل كبيراً أن يجد المكان الذي تجد فيه الدعوة قاعدة انطلاقها.. ولكن هذه الآمال تبخرت كلها عندما كان اللقاء مع زعماء الطائف..

وليت الأمر توقف عند هذا الحد.. بل أغرى هؤلاء الزعماء الرعاع من الناس والأطفال.. فجعلوا يضربونه بالحجارة حتى أدموا عقبيه.. وأخرجوه من الطائف..

تلك خلاصة موجزة جداً لتلك المدة من حياة الدعوة، أردنا أن تكون في الذهن ونحن نتحدث عن الهجرة.

البحث عن قاعدة للدعوة:

كان الذهاب إلى الطائف هو الخطوة الثانية في البحث عن قاعدة للدعوة. وكانت الخطوة الأولى هي العرض على القبائل قبل ذلك..

وحضر موسم الحج، وفي دأب لا يعرف الملل، وصبر جميل، وعزم حديد، تابع الرسول الكريم أسلوبه السابق فقام مرة أخرى يعرض نفسه على من حضر الموسم.

وكان من جملة من التقى به ستة نفر من الخزرج، ونترك الحديث

لابن إسحاق ينقل لنا صورة هذا اللقاء الذي كان له ما بعده.

قال ابن إسحاق: «.. لما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل. وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

قال: وكان مما صنع الله بهم في الإسلام أن يهود كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد غزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إن نبياً مبعوث الآن، قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم.

فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلموا - والله - إنه للنبي الذي توعدّكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام. وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولاقوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك»[1].

كانت بارقة أمل، ولكن الرسول ﷺ لم يجلس في انتظار هذا الأمل، بل تابع دعوته في ذاك الموسم وبعده.. ومر عام آخر بطيء الخطى، لم تسجل فيه السيرة حوادث إسلام جديدة.

ولكن أولئك النفر من الخزرج رجعوا إلى المدينة، وبدؤوا دعوتهم حتى فشا الإسلام ولم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر لرسول الله ﷺ.

وفي الموسم الثاني كان اللقاء مع اثنتي عشر رجلاً من الأوس

---

(١) سيرة ابن هشام ٤٢٨/١.

والخزرج، وكانت بيعة العقبة الأولى.. وبعث معهم النبي ﷺ مصعب بن عمير ليقرئهم القرآن بناء على طلبهم.

وهكذا بدأ إعداد القاعدة وتهيئة المناخ لانتقال الدعوة..

وخلال عام آخر كانت يثرب تستعد لما أنيط بها من مهام، فقد انتشر الإسلام فيها ودخل البيوت وأسلم كبار القوم... فلم يأتِ الموسم حتى كان الخارجون إليه من المسلمين يزيد على السبعين.. وهم الذين التقوا بالنبي ﷺ وبايعوه بيعة العقبة الثانية..

التمهيد والإعداد:

إن النظر الفاحص في السيرة يؤكد أن الهجرة لم تكن عملاً مرتجلاً، وإنما سبقها التمهيد الواعي والإعداد المحكم، والتخطيط الواسع..

كان ذلك بتقدير الله تعالى وترتيبه. وكان هذا الإعداد في اتجاهين، إعداد في شخصية المهاجرين، وإعداد في المكان المهاجر إليه.

١ ـ إعداد المهاجرين:

لم تكن الهجرة نزهة أو رحلة يروح فيها الإنسان عن نفسه، ولكنها مغادرة الأرض والأهل، ووشائج القربي، وصلات الصداقة والمودة، وأسباب الرزق.. والتخلي عن كل ذلك من أجل العقيدة.. ولهذا احتاجت إلى جهد كبير تمثل في الوسائل المتعددة حتى وصل المهاجرون إلى قناعة كاملة بهذه الهجرة. ونذكر من ذلك:

ـ التربية الطويلة التي تحدثنا عنها فيما سبق من هذا الكتاب.

ـ الاضطهاد الذي أصاب المؤمنين حتى وصلوا إلى قناعة كاملة بعدم إمكانية المعايشة مع الكفر. حتى قال عمر في أيام إسلامه الأولى: فأحلف بالله لو قد كنا ثلاثمائة رجل، لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا.

ـ تناول القرآن المكي التنويه بالهجرة، ولفت النظر إلى أن أرض الله

واسعة فقد جاء في سورة الزمر:

﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(١).

ثم تلا ذلك نزول سورة الكهف، وفيها ذكر الفتية الذين آمنوا بربهم واضطروا حفاظاً على إيمانهم أن يهجروا بلدهم ويتجهوا إلى كهف من الكهوف خارجها.. ويثني الله تعالى عليهم..

وهكذا تستقر صورة من صور الإيمان في النفوس وهي أن ترك الأهل والوطن قد يكون ثمناً للحفاظ على العقيدة..

ثم تلا ذلك آيات صريحة تتحدث عن الهجرة في سورة النحل وهي قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ..﴾(٢).

وفي أواخر السورة يؤكد المعنى مرة أخرى بقوله تعالى:

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٣).

وهكذا تهيأت النفوس لهذا الأمر..

ـ وكانت الهجرة إلى الحبشة هي التدريب العملي على ترك الأهل والوطن.

وكانت أمراً متروكاً للمسلم يختاره إن أراد، وليست أمراً إلزامياً من

---

(١) سورة الزمر: الآية ١٠.

(٢) سورة النحل: الآيتان ٤١ ـ ٤٢. (٣) سورة النحل: الآية ١١٠.

الرسول ﷺ، كما كانت العودة كذلك، ولهذا عاد بعضهم لما سمعوا بالهجرة إلى المدينة..[1].

ـ وكان من جملة هذا الإعداد، اختبار الذين لم يهاجروا ـ كما قلت سابقاً ـ وكانت مادة الاختبار هي حادثة الإسراء والمعراج..

فقد ارتد ناس كانوا أسلموا وصلوا، فكانت تصفية للصف المسلم من الشوائب، وطُرِحَ الذين لم يكونوا أهلاً لتحمل مشاق الطريق، طريق الدعوة، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الاختبار بقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾[2].

تلك هي بعض الإجراءات التي اتخذت كوسائل للتمهيد للهجرة في نفوس المؤمنين، وقد استغرقت وقتاً طويلاً، وما ذاك إلا لكراهة الإنسان ـ كل إنسان ـ أن ينسلخ عن وطنه وبيئته إلا تحت ظروف ملجئة..

وقد سجل القرآن الكريم هذا المعنى في سورة الحشر المدنية حين تحدث عن المهاجرين فقال تعالى:

﴿.. لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[3].

فقوله تعالى: ﴿أُخْرِجُوا﴾ واضح منه عامل الإكراه والقسر وأن ذلك لم يكن عن رضى. وقد أكد هذا المعنى مرة أخرى إثر ما حدث في سرية عبدالله بن جحش، من قتل عمرو بن الحضرمي في الشهر الحرام.. وانتقاد قريش لذلك فنزل قوله تعالى:

---

(١) أما بقاء جعفر فإنما كان بأمر رسول الله ﷺ، وكان هذا الأمر بعد هجرته ﷺ، وذلك حفاظاً على حياة المهاجرين.. كما سوف نتحدث عن ذلك في القسم الثالث من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٦٠.

(٣) سورة الحشر: الآية رقم ٨.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ . . ﴾ (1).

وهكذا فقد كانت الهجرة ﴿إخراجاً﴾ لا خروجاً. ولقد عبر ﷺ عن ذلك بوضوح حين غادر مكة فقال: «والله إنك لأحب أرض الله إلي، وإنك لأحب أرض الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت منك»(2).

٢ ـ الإعداد في يثرب:

كان لا بد من إعداد المكان المهاجَر إليه، بما لا يقل عن الإعداد الأول، ونذكر بعض ذلك:

ـ سبق ذكر رواية ابن إسحاق بصدد بدء إسلام الأنصار. وقد ذكر أنه كان من صنع الله ما كان بين الأوس والخزرج من جانب وبين اليهود من جانب آخر، وتوعد هؤلاء ببعثة نبي قد أظل زمانه. .

فقد كانت هذه القضية تهيئة نفسية وقناعة مسبقة بناء على قول اليهود. فلما التقوا بالرسول ﷺ عملياً تحقق لهم ما كان استقر في نفوسهم فكانوا على يقين منذ اللحظات الأولى أنهم يتعاملون مع نبي ورسول. وتلك قضية لا يستهان بها ونحن نتحدث عن التمهيد للهجرة.

ـ ثم إن الرسول ﷺ لم يسارع بالانتقال إليهم من الأيام الأولى وإنما أخر ذلك لأكثر من عامين، حتى تأكد من وجود القاعدة الواسعة نسبياً، كما كان في الوقت نفسه يتم إعدادها في أجواء القرآن الكريم وخاصة بعد انتقال مصعب إلى المدينة.

ـ ولقد تأكد أن الاستعداد لدى الأنصار قد بلغ كماله وذلك بطلبهم هجرة الرسول الكريم إليهم. ففي حديث جابر عند الإمام أحمد (. . حتى

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢١٧، وكذلك ورد النص في سورة آل عمران، الآية ١٩٥.
(٢) أخرجه أحمد والترمذي كما في شرح الزرقاني على المواهب ٣٢٨/١.

بعثنا الله إليه من يثرب فآويناه وصدقناه، فيخرج الرجل منا فيؤمن به، ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام. ثم ائتمروا جميعاً فقلنا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف؟ فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه الموسم، فواعدناه شعب العقبة..)[1].

ويلاحظ من هذا النص أن خروجهم إلى الموسم بهذا العدد كان مقصوداً، وغايته دعوة الرسول ﷺ إلى الهجرة إليهم.. ثم كانت البيعة.

ـ كما كانت المناقشات التي جرت في بيعة العقبة تؤكد الحرص الشديد من الأنصار على تأكيد البيعة والاستيثاق للنبي ﷺ بأقوى المواثيق على أنفسهم، وكان في رغبتهم أن يميلوا على أهل منى ممن آذى رسول الله ﷺ بأسيافهم لو أذن الرسول الكريم بذلك، ولكنه قال لهم: لم أومر بذلك.

وهكذا تم الإعداد لأهل يثرب ليكونوا قادرين على استقبال المهاجرين وما يترتب على ذلك من تبعات.

طلائع المهاجرين:

كانت بيعة العقبة الأولى إيذاناً بأن المدينة هي المكان الذي سيستقر فيه المهاجرون من أهل مكة.

ويعدُّ أبو سلمة بن عبدالأسد أول المهاجرين، ويبدو أن هجرته كانت عقب هذه البيعة.. وقد كان أراد الهجرة مع زوجته وابنه ولكن أهل زوجته منعوها ثم سمحوا لها بعد سنة.

وفي هذا الوقت بعث ﷺ مصعب بن عمير إلى المدينة ليعلمهم القرآن..

(١) حياة الصحابة للكاندهلوي ١/٢٤٥.

ولكن الهجرة لم تأخذ مداها الواسع، إلا بعد بيعة العقبة الثانية حين أمر رسول الله ﷺ المسلمين بالهجرة إلى إخوانهم في المدينة وقال: «إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها».

وخرج المسلمون أرسالاً.. فقدم المدينة بعد أبي سلمة، عامر بن ربيعة ومعه امرأته ليلى بنت أبي حثمة، ثم عبدالله بن جحش مع أهله وأخيه أبي أحمد..[1].

وتتابع المسلمون بعد ذلك..

وخرج عمر بن الخطاب في عشرين[2].. وخرج كل قادر ممن لم يحبس أو يمنع من الخروج..

وكان الأنصار ينتظرون قدوم رسول الله ﷺ، ففي حديث البراء عند الإمام أحمد أنه لما قدم عمر قالوا له: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قال: هو على إثري..[3].

وهكذا هاجر المسلمون إلى المدينة،حتى إن بعضهم ممن هاجر إلى الحبشة، رجع إلى مكة بعد سماعه بالإذن بالهجرة إلى المدينة، ثم هاجر منها إلى المدينة، ومن هؤلاء عبدالله بن مسعود في ثلاثة وثلاثين.. إلا أن بعضهم حبس بمكة ومنع من الخروج.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٤٧٠.

(٢) هذا لا يتعارض مع خبر اتفاقه مع عياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص.. على الهجرة، لأن المهاجرين كانوا يخرجون سراً ويتواعدون على أماكن اللقاء خارج مكة. وأما قصة هجرته علناً فهي رواية ساقطة فيها ثلاثة رواة في عداد المجهولين [انظر أضواء على دراسة السيرة للمؤلف].

(٣) حياة الصحابة للكاندهلوي ١/٣٤٤.

هجرته صلى الله عليه وسلم:

خلت مكة من المسلمين أو كادت، وغلقت بعض الدور نتيجة لذلك، منها دار بني جحش.. وكل ذلك حدث ـ أو معظمه ـ في فترة قصيرة بين موسم الحج وشهر ربيع الأول.. الأمر الذي أيقظ قريشاً من غفلتها.. ولعلها لم تهتم للأمر أولاً، ثم فكرت فوجدت فيه الخطر عليها حسب زعمها..

كان أبو بكر يستأذن للخروج ولكنه ﷺ يقول له: «لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً».

ورأت قريش أن خروجه ﷺ خطر عليها واتخذت من الوسائل ما تحول به بينه ﷺ وبين مغادرة مكة.. وقص الله تعالى مكرهم بقوله:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(1).

ووصل ﷺ إلى قباء يصحبه أبو بكر رضي الله عنه وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر. وأثناء إقامته بها وصل إليها علي بن أبي طالب بعد أن أدى الودائع التي كانت عند رسول الله ﷺ إلى أصحابها..

وانطلق الركب إلى المدينة، وكان الوصول إليها في الثاني عشر من شهر ربيع الأول..

استمرار الهجرة وبناء القاعدة:

قال ابن إسحاق: وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله ﷺ، فلم يبق بمكة منهم أحد، إلا مفتون أو محبوس..(2).

ومن جملة هؤلاء صهيب الذي اضطر أن يتنازل عن ماله لقاء السماح له بالهجرة..(3).

---

(1) سورة الأنفال: الآية ٣٠.
(2) سيرة ابن هشام ١/٤٩٩.
(3) سيرة ابن هشام ١/٤٧٧.

وكان ﷺ يدعو للمستضعفين أن يفرج الله عنهم وييسر لهم الهجرة، ففي البخاري عن أبي هريرة قال: بينا رسول الله ﷺ يصلي العشاء إذ قال سمع الله لمن حمده، ثم قبل أن يسجد قال: «اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة، اللهم أنج سلمة بن هشام، اللهم أنج الوليد بن الوليد، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشدد وطأتك على مضر..»[1].

ونزل إثر غزوة بدر

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۞ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا..﴾[2].

قال ابن كثير في تفسيرها؛ قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: (كان قوم من أهل مكة أسلموا وكانوا يستخفون بالإسلام فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم فأصيب بعضهم، قال المسلمون: كان أصحابنا مسلمين وأكرهوا فاستغفروا لهم فنزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية قال: فكتب إلى من بقي من المسلمين بهذه الآية لا عذر لهم..)[3].

وبهذا أصبحت الهجرة في مجال الفرض والواجب، فكان كل من أسلم يجب عليه أن يبذل جهده قدر استطاعته في الهجرة فإن لم يستطع كان ممن عذر الله تعالى.

وتأكد هذا المعنى في أواخر سورة الأنفال. قال تعالى:

---

(١) عن تفسير ابن كثير في تفسير الآية رقم (١٠٠) من سورة النساء.
(٢) سورة النساء: الآية ٩٧ - ٩٨.
(٣) فصلت القول عن هذه الحادثة في كتاب (من معين السيرة) الطبعة الثالثة ص٢٣٧ وانظر سيرة ابن هشام ١/٦٤١.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ . .﴾[1].

وهكذا قطع الله الموالاة بين من هاجر ومن لم يهاجر، وفي هذا ما فيه من الحث على الهجرة وفرضها على المسلمين يومئذ.

قال القاضي عياض: واتفق الجميع على أن الهجرة قبل الفتح كانت واجبة عليهم، وأن سكنى المدينة كان واجباً لنصرة النبي ﷺ ومواساته بالنفس. .[2].

والذي يبدو لي ـ والله أعلم ـ أن هذا الوجوب كان قاصراً على أهل مكة خاصة، وهو على الخيار لغيرهم. وذلك لأدلة منها:

١ ـ إن الأحاديث الصحيحة كثيرة بشأن إنهاء الهجرة مع فتح مكة. فقد قال ﷺ يوم فتح مكة «لا هجرة ولكن جهاد ونية»[3]، وفي حديث عائشة أنه قال: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»[4] وهذا يشير إلى أن إنهاء الهجرة كان ذا ارتباط مكاني بفتح مكة، ولم يكن مرتبطاً بأمر آخر، فلما فتحت مكة انتهت الهجرة.

٢ ـ كانت مكة بعد هجرته ﷺ عاصمة الشرك. والعرب كلها تنتظر ما يؤول إليه أمرها، وبمقدار ما يتقلص نفوذ مكة بهجرة المسلمين منها بمقدار ما يزداد نفوذ المدينة وقوتها. ولذلك كانت هجرة المسلم واجبة.

إن وجود المسلم في مكة بعد إسلامه يعني تكثير سواد المشركين يقابله في الوقت نفسه نقص عدد المسلمين فردا، إذ لو انتقل إلى المدينة

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٧٢.

(٢) فتح الباري ٧/٢٦٧.

(٣) رواه البخاري برقم ٣١٨٨ ومسلم برقم ١٣٥٣.

(٤) رواه البخاري برقم ٢٥١٠ ومسلم برقم ١٨٦٤.

لزاد عددهم، وهذا يعني أن المسلمين خسروا فردين ببقاء هذا المسلم في مكة، مما يشكل قوة لها ويؤخر موعد سقوطها وفتحها.

٣ ـ جاء في صحيح مسلم، عن بريدة بن الحصيب: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه: «. .وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين. .»[1].

هذا يدل بوضوح على أن الأمر لم يكن عاماً بشأن جميع الناس، وأن غير أهل مكة كانوا على الخيار كما هو نص حديث مسلم.

٤ ـ أخرج ابن جرير عن خالد بن الوليد عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنهما قال: (خرجت من أهلي وأريد الإسلام، فقدمت على رسول الله ﷺ وهو في الصلاة، فصففت في آخر الصفوف فصليت بصلاتهم، فلما فرغ رسول الله ﷺ من الصلاة انتهى إلي وأنا في آخر الصفوف. فقال: ما حاجتك؟ قلت: الإسلام، قال: هو خير لك، قال: وتهاجر؟ قلت نعم، قال: هجرة البادي أو هجرة الباتي؟ قلت: أيتها خير؟ قال: هجرة الباتي، قال: وهجرة الباتي أن تثبت مع رسول الله ﷺ، وهجرة البادي أن يرجع إلى باديته. .)[2].

وفي طبقات ابن سعد: قال عقبة بن عامر: (بلغني قدوم النبي ﷺ وأنا في غنيمة لي، فرفضتها ثم أتيته فقلت: يا رسول الله جئت أبايعك، فقال: «بيعة عربية تريد أو بيعة هجرة؟» قال: فبايعته وأقمت)[3].

---

(١) رواه مسلم برقم ١٧٣١.

(٢) حياة الصحابة للكاندهلوي ١/٣٦٥.

(٣) طبقات ابن سعد ٤/٣٤٣.

وبهذا يتأكد أن الإلزام كان خاصاً بأهل مكة.

وانتقل المسلمون إلى المدينة، ولعل الحكمة من ذلك هي توسيع القاعدة التي كان من مهماتها حمل الإسلام إلى الناس، وذلك لا يكون إلا بملازمة النبي ﷺ في تلك الفترة وتنفيذ أوامره، وقد مرَّ معنا قبل قليل قول القاضي عياض «وإن سكنى المدينة كان واجباً لنصرة النبي ﷺ ومواساته بالنفس».

قال الخطابي: «ثم افترضت [الهجرة] لما هاجر إلى المدينة إلى حضرته للقتال معه وتعلم شرائع الدين..»(١).

هل انقطعت الهجرة؟:

ظلت المدينة فاتحة أبوابها ثماني سنوات تستقبل المهاجرين، حتى إذا فتحت مكة انتهت الهجرة وأمر كل من أسلم أن يبقى في بلده..

ولكن هل كان ذلك إنهاء لحكم الهجرة إلى الأبد؟

إن النصوص القرآنية الكثيرة التي وردت بصدد الهجرة ما كانت تعالج أمر الهجرة في تلك المرحلة من الزمن فحسب، ولكنها تعالج حالة قائمة في أمر الدعوة، ولذلك وردت بعض النصوص التي توضح لنا هذا الأمر.

عن عبدالله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستكون هجرة بعد هجرة..»(٢).

وفي الحديث «لا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار»(٣).

وعلى هذا فالهجرة ليست مرحلة تاريخية مضت بمضي وقتها ورجالها،

---

(١) فتح الباري ٧/٢٢٩.

(٢) رواه أبو داود برقم ٢٤٨٢ وهو عند الإمام أحمد أيضاً.

(٣) أخرجه أبو نعيم وأبو حاتم وابن حبان والنسائي، وقال أبو زرعة: حديث صحيح متقن رواه الأثبات. [عن حياة الصحابة للكاندهلوي ١/٣٦٧].

وأصبحت صفحة من صفحات التاريخ الماضي، وإنما هي صفحة من صفحات السيرة التي خلدها القرآن وستظل جزءاً من حركة الدعوة إلى الله تعالى.

جاء في الظلال: «ولقد ظل شرط الهجرة قائماً حتى فتح مكة، حين دانت أرض العرب للإسلام ولقيادته، وانتظم الناس في مجتمعه، فلا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، كما قال رسول الله ﷺ، غير أن ذلك إنما كان في جولة الإسلام الأولى التي حكم فيها الأرض ألفاً ومائتي عام تقريباً.. فأما اليوم وقد عادت الأرض إلى الجاهلية.. تبدأ جولة جديدة أخرى...»[1].

وقال في شرح قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ..﴾[2].

«ويمضي هذا الحكم إلى آخر الزمان، متجاوزاً تلك الحالة الخاصة التي كان يواجهها النص في تاريخ معين، وفي بيئة معينة، يمضي حكماً عاماً، يلحق كل مسلم تناله الفتنة في دينه في أية أرض، وتمسكه أمواله ومصالحه أو قراباته وصداقاته أو إشفاقه من آلام الهجرة ومتاعبها. متى كان هناك - في الأرض في أي مكان - دار للإسلام يأمن فيها على دينه ويجهر فيها بعقيدته، ويؤدي فيها عباداته..»[3].

ونعتقد أيضاً أن قوله ﷺ: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد..» ليس حديثاً انتهت مهمته بموت ذلك النجاشي، وإنما هو تسجيل لواقعة جرت ضمن سير الدعوة في ظروف معروفة فإذا وجدت تلك الظروف ووجد المكان الذي يجد فيه المسلم العدل ويأمن فيه

---

(١) في ظلال القرآن ٣/١٥٦٠. (٢) سورة النساء: الآية ٩٧.

(٣) في ظلال القرآن ٢/٧٤٥.

على دينه وتطبيق شعائره فإن من المستحسن أن يهاجر إليه. ولا نقول يجب لأن الهجرة إلى الحبشة لم تكن واجبة.

نخلص من هذا إلى أن الهجرة بشكلها العام معلم من معالم الحركة في السيرة امتدت ما يزيد عن خمسة عشر عاماً من عمر الدعوة التي استمرت ثلاثة وعشرين عاماً.

القسم الثالث

العهد المدني

بناء الدولة

وصل الرسول الكريم ﷺ إلى المدينة، وبوصوله دخلت يثرب التاريخ، تحت اسم «المدينة» من أوسع أبوابه، حيث شهدت ولادة الدولة الإسلامية وترعرعها.

وفي هذا القسم نتابع حركة الدعوة وحركة قيام الدولة، وما صاحب ذلك من أحداث ووقائع.

والعهد المدني عهد مليء بالحركة التي كانت نشيطة في كل الاتجاهات، وفي آن واحد، ولدراسته لا بد من تقسيمه، وقد نظرت فوجدت فيه حدثين متميزين يقسمانه إلى ثلاثة مراحل. والحدثان هما: غزوة بدر وصلح الحديبية. أما المراحل فهي:

الأولى: وتبدأ بالوصول إلى المدينة.

والثانية: وتبدأ بغزوة بدر.

والثالثة: وتبدأ بصلح الحديبية.

ولكل منها ملامحها المميزة لها في كل جوانب الحياة:

ففي المرحلة الأولى كانت الجهود منصرفة إلى تأسيس بناء الدولة، من حيث ضبط الأمور داخل المركز «المدينة» وتوزيع المسؤوليات.. وضمان الأمن الخارجي..

وتبدأ الثانية بغزوة بدر، التي كانت فرقاناً بين الحق والباطل، حيث تحولت العلاقة مع الشرك إلى كفاح دام، وكانت فيها أكبر عملية تآمر على المسلمين بغية القضاء عليهم.. في غزوة الخندق. وقد تميزت هذه المرحلة بحركة عسكرية نشطة.

وتبدأ الثالثة بصلح الحديبية، الذي يعدّ نقطة تحول في العلاقات بين المسلمين وقريش، وعندها بدأ انتشار الدعوة..

وسوف أتحدث عن هذه المراحل في ثلاثة أبواب، أتناول في كل منها:

- بيان الوضع السياسي والعسكري.
- بيان الوضع السكاني.
- بيان حركة الدعوة.
- بيان الوضع الاقتصادي.
- بيان حركة التربية.

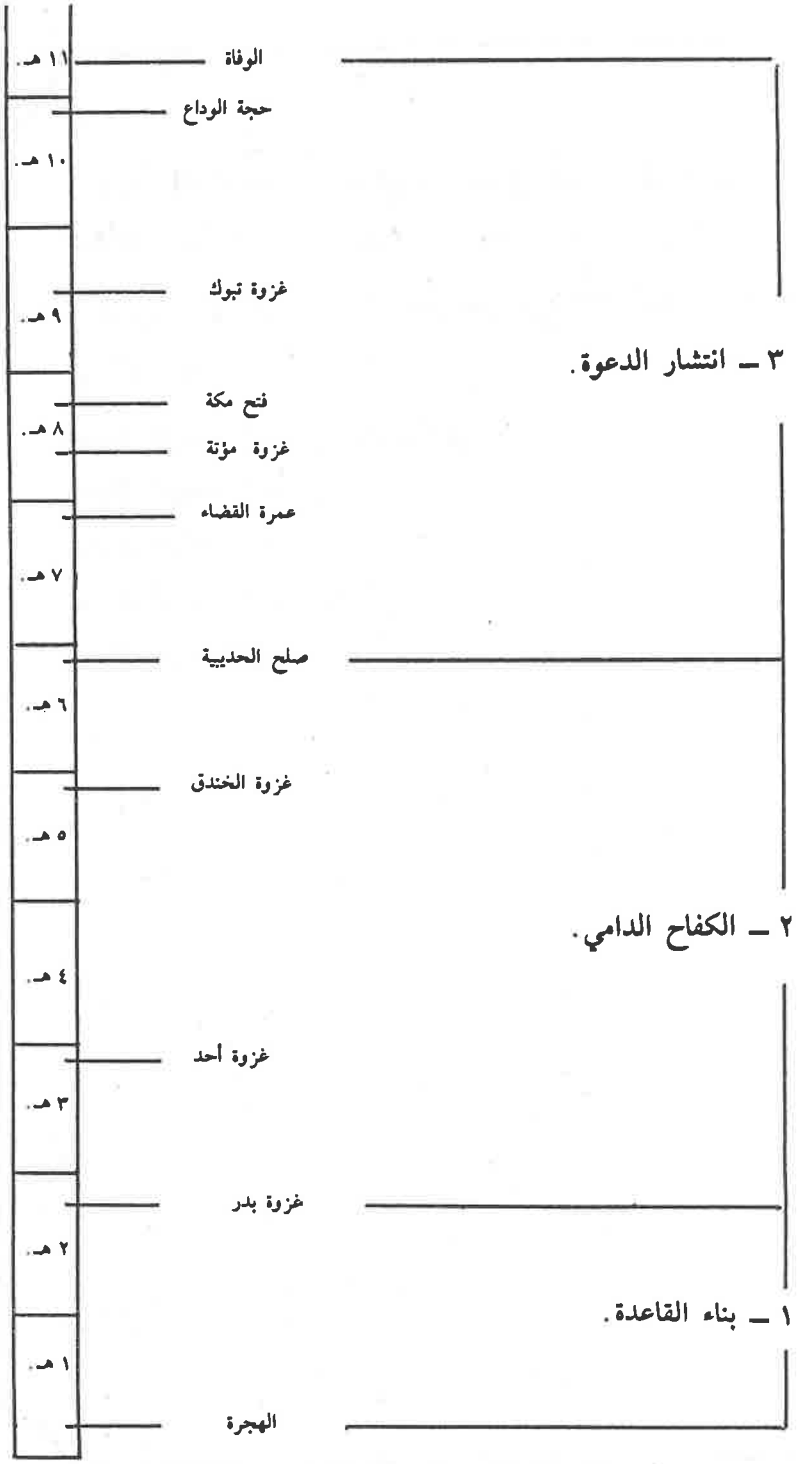

مراحل حركة الدعوة في المدينة.

البَابُ الأول

المَرحَلة الأولى

بنَاء القَاعِدَة

تبدأ هذه المرحلة مع وصوله ﷺ إلى المدينة. وتستمر حتى غـزوة بدر، أي أنهـا بدأت من ربيـع الأول للسنة الأولى من الهجرة، وانتهت في السابع عشر من رمضان من السنة الثانية.

وتعد هذه المدة مرحلة تأسيس الدولة المسلمة. الأمر الذي يتطلب العمل الكثير، والجهد الكبير، في سبيل استكمال بناء القاعدة الصلبة، ثم الانطلاق بالدعوة وتبليغها إلى الناس كما أمر الله تعالى وسوف نتحدث عن ذلك في فصول:

الفصل الأول

الإمساك بزمام السلطة

وصل الرسول ﷺ إلى المدينة، وقد ترك وراءه قريشاً التي ملأت عدواته قلوبها، وزاد غيظها أن محاولاتها بمنعه من الهجرة قد باءت بالفشل، على الرغم مما بذلت في سبيل ذلك. وهي لن تألو جهداً في الوقوف بوجه دعوته بل وربما قتاله إذا لزم الأمر.

أما المدينة فقد كانت مقراً لقبيلتي الأوس والخزرج وإلى جوارهم طوائف من اليهود لا يؤمن لهم، كما أن هناك بعض الأوس والخزرج الذين ظلوا على شركهم.

وأما بقية العرب ممن هو خارج مكة والمدينة، فأكثرهم كان موقفه موقف المتربص الذي ينتظر ماذا تؤول إليه الأمور..

وإزاء هذه الحال كان الأمر المهم هو تأمين الأمن في المدينة، الأمن الداخلي بين الطوائف الذين يقطنونها، والأمن الخارجي الذي يدفع عنها اعتداء قريش المتوقع.

وبادر الرسول الكريم ﷺ وأمسك بزمام السلطة في المدينة ليستطيع القيام بما يتطلبه الحال من عمل.

السلطة بيده ﷺ:

ونتساءل كيف استطاع النبي ﷺ المبادرة إلى الإمساك بالسلطة في المدينة كلها وفيها من فيها من غير المسلمين؟

ونقول في الإجابة على ذلك:

إن المسلمين من المهاجرين والأنصار مذعنون لهذا الأمر، لأنه أثر من آثار الإيمان بالله ورسوله، وكيف يكون إيمان بغير تصديق وإذعان؟

وما بيعة العقبة الثانية، وإخراج النقباء من الخزرج والأوس ليكونوا كفلاء على قومهم، إلا الخطوة الأولى في الانضواء تحت راية هذه السلطة.

ولهذا المعنى كان شهود ليلة العقبة مفخرة من مفاخر الذين حضروها من الأنصار.

ففي حديث كعب بن مالك: (ولقد شهدت مع النبي ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكرَ في الناس منها)[1].

وقد كان انتشار الإسلام - حين قدومه ﷺ - بين الأوس والخزرج كبيراً، ولم يبق على الشرك إلا القليل ولا أدلَّ على ذلك من ذلك الاستقبال الحافل الذي استقبل به ﷺ. حتى كان الذين لم يروا رسول الله ﷺ من الأنصار يسلمون على أبي بكر ظناً منهم أنه النبي[2]، وذلك من شدة فرحهم التي لم تتح لهم الأناة للتعرف عليه ﷺ. وفي حديث البراء بن عازب: (.. ثم قدم النبي ﷺ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء، فرحهم برسول الله ﷺ، حتى جعل الإماء يقلن: قدم رسول الله ﷺ...)[3]، وفي حديث أنس عند الإمام أحمد: (لما كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء).

تلك هي حال المؤمنين من المهاجرين والأنصار. وأما من بقي على شركه من أهل المدينة وهم ليسوا أكثرية القوم، فلم يجدوا من المصلحة إظهار العداوة ولما يتعرفوا على النبي الكريم، ولو فعلوا ذلك لنبذوا من

---

(١) رواه البخاري برقم ٣٨٨٩. (٢) رواه البخاري برقم ٣٩٠٦.
(٣) رواه البخاري برقم ٣٩٢٥.

خريطة
المدينة المنورة
قبائل ومواقع
عند هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم
وقد وضعنا على الخريطة
أوائل المساجد التي بُنيت
في العصر النبوي الشريف

قومهم، ولقد كان زعيم هؤلاء، بل أعلاهم مكانة في قومه، عبدالله بن أبي ابن سلول، الذي كان في موسم الحج الذي حصلت فيه بيعة العقبة، ولا شك بأنه قد وصل إلى سمعه ما قاله المبايعون للرسول ﷺ: (لئن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا)، فهو يعلم تماماً أنه ليس من مصلحته إظهار العداوة للنبي ﷺ ووراءه هذا الإيمان العظيم.

وأما اليهود فكانت حصونهم في أطراف المدينة، وكانت بينهم وبين الأنصار أحلاف، فلم يجدوا من المصلحة إظهار العداوة لأن مصالحهم المادية والمعنوية ستكون في خطر، ولذلك أذعنوا ولم يعارضوا.. إلى حين.

وبهذا أضحت السلطة كاملة بيد الرسول ﷺ يأمر فيطاع، وينهى فيجتنب ما نهى عنه..

التنظيم الاجتماعي والسياسي:

وكان من أول الأعمال التي باشر فيها النبي ﷺ سلطته، ذلك الكتاب الذي كان الدستور الذي يضبط علاقات سكان المدينة بعضهم ببعض على اختلاف فئاتهم وتعدد أديانهم.

قال ابن إسحاق: وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادعَ فيه يهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم. وشرط لهم، واشترط عليهم:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على رِبعْتهم[1] يتعاقلون بينهم[2]، وهم يَفْدون عانيهم[3] بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف

---

(١) أي جماعتهم.
(٢) العقل: الدية.
(٣) العاني: الأسير.

على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. . [ثم ذكر بني ساعدة، وبني الحارث، وبني جشم، وبني النجار، وبني عمرو بن عوف، وبني النَّبيت، وبني الأوس] ثم قال:

وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرحاً[1] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.

وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة[2] ظلم، أو إثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم.

ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم.

وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم. وإن كل غازية غزت معنا يُعقب بعضها بعضاً، وإن المؤمنين يبيء[3] بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.

وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن.

وإنه من اعتبط[4] مؤمناً قتلاً عن بينه فإنه قود به، إلا أن يرضى ولي

---

(١) المفرح: المثقل بالدين والكثير العيال.
(٢) أي العظيمة.
(٣) من البواء: أي السواء، أي أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض فيما ينال دماءهم.
(٤) اعتبطه: أي قتله بلا جناية منه توجب قتله.

المقتول. وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثاً[1] ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد ﷺ.

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ[2] إلا نفسه، وأهل بيته.

وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، [وذكر مثلهم يهود بني الحارث، وبني جشم، وبني الأوس، وبني ثعلبة، وبني الشطيبة].

وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد، وإنه لا ينحجز على ثار جرح، وإنه من فتك فبنفسه فتك، وأهل بيته، إلا من ظلم، وإن الله على أبرِّ هذا.

وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها.

وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث، أو اشتجار يُخاف فساده، فإن مردَّه إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرِّه[3].

---

(١) المحدث: الجاني. (٢) يوتغ: يهلك ويفسد.

(٣) أي أن الله وحزبه المؤمنين على الرضا به.

وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها.

وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قِبَلهم.

وإن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة.

وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبرِّه، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم، وإن الله جار لمن برَّ واتقى، ومحمد رسول الله»[1].

* * *

إن إمعان النظر في هذا الكتاب يبين دقته وشموله، في تناول جميع القضايا الأمنية والتكافلية اللازمة لضبط نظام الأمور وتسيير دفتها، وبيان المسؤول عن مراقبتها وتطبيقها.. ولا مجال للتفصيل حول ما اشتمل عليه هذا الكتاب، ولذا فسوف نشير إلى الأمور المهمة والخطوط العريضة الواردة فيه:

١ ــ السلطة: يؤكد الكتاب ـ أكثر من مرة ـ أن جماع السلطة كله بيد الرسول صلى الله عليه وسلم.

٢ ــ إن المدينة بلد حرام.

٣ ــ التكافل الاجتماعي: حيث تقوم كل طائفة بدفع الدية لمن قتل خطأ، وتفك من وقع منها في الأسر، وتساعد المثقل بالدين والكثير العيال..

٤ ــ التنظيم الاجتماعي: فقد أصبح المؤمنون ـ المهاجرون والأنصار ـ أمة

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٥٠٠ ـ ٥٠٤.

واحدة، كما جعل يهود كل قبيلة تبعاً لها، وكذلك موالي كل قبيلة تبعاً لها.

٥ ـ **الأمن من الجرائم**: حيث كلف الجميع بـ:

ـ عدم مناصرة المحدث أو إيوائه.

ـ المجتمع كله يقوم ضد الباغي ولو كان ولد أحدهم.

ـ القاتل عمداً يقتل إلا أن يرضى أولياؤه الدية.

ـ مناصرة المظلوم واجب على الجميع.

٦ ـ **أمن المدينة**: ويكون ذلك بـ:

ـ أن يشترك جميع أهل المدينة وينصر بعضهم بعضاً على من دهم يثرب.

ـ أن عليهم جميعاً النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

ـ مشاركة اليهود للمؤمنين في الإنفاق في حالة الحرب.

٧ ـ **قريش**: تعد قريش العدو البارز على مسرح الأحداث ولهذا؛

ـ لا تجار قريش ولا من نصرها.

ـ لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن.

تلك هي الخطوط العامة في هذه الوثيقة، يلاحظ من خلالها ضبط الأمور وتنظيمها. كما يلاحظ عدم ذكر المشركين إلا في قضية عدم إجارة قريش، الأمر الذي يدل على أنهم كانوا لا يشكلون العدد الكبير، ولذلك كانوا تبعاً لقبائلهم في كل ما اشتملت عليه هذه الوثيقة من أحكام.

أمن المدينة:

ربي المسلمون في مكة ـ كما رأينا ـ على تصور واضح عن عالمية هذا الدين، كما كان هذا التصور واضحاً كل الوضوح في أذهان الأنصار الذين بايعوا بيعة العقبة الثانية، وإن المناقشات التي دارت في هذه البيعة لتدل دلالة واضحة على ذلك[1].

---

(١) ومن ذلك ما قاله العباس بن عبادة الأنصاري: «يا معشر الخزرج، هل تدرون علام =

وإذن فلا بد للدعوة أن تأخذ طريقها إلى أسماع الناس، ولكن العقبة الكؤود التي كانت في مكة ما زالت قائمة على مسرح الأحداث. تلك هي قريش.

إن المركز الديني والمركز التجاري لمكة باتا مهددين بعد هجرة الرسول ﷺ، وهما أمران تقوم عليهما حياة قريش المادية والمعنوية. لهذا لم يكن مستبعداً أن تهاجم قريش المدينة، أليست هي البلد التي آوت الفارين والخارجين على سلطتها؟ أليس هذا تحدياً لقريش يجرح كبرياءها ويخدش مكانتها؟

لقد أرسلت من قبل في طلب المهاجرين إلى الحبشة من النجاشي، ذلك أنها لا سلطان لها على النجاشي، أما هنا مع يثرب فالأمر مختلف، إن الاحتكام إلى السلاح أمر تلجأ إليه القبائل إذا أصيبت في كرامتها، أو تضررت في أموالها.

لهذا كله لم يكن مستبعداً أن تُهاجَمَ المدينة في كل وقت، وكان النبي ﷺ والمسلمون يحسبون لهذا الأمر حسابه، فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح، ولا يصبحون إلا فيه.

قال ابن كثير في تفسيره: قال الربيع بن أنس، عن أبي العالية: كان النبي ﷺ وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين، يدعون إلى الله وحده، وإلى

= تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلاً أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال، وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة..» [سيرة ابن هشام ١/٤٤٦].

وعلى الرغم من أن نص البيعة هو (أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم) ـ كما عند ابن هشام ١/٤٤٢ ـ ولم يتضمن ما ذهب إليه العباس بن عبادة، إلا أن التصور الواضح لعالمية هذا الدين كان يقتضي هذا الفهم.

عبادته وحده لا شريك له سراً وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال، حتى أمروا بعد الهجرة إلى المدينة، فقدموها.. فأمرهم الله بالقتال، فكانوا بها خائفين، يمسون في السلاح، ويصبحون في السلاح، فصبروا على ذلك ما شاء الله، ثم إن رجلاً من الصحابة قال: يا رسول الله، أبد الدهر نحن خائفون هكذا؟ أما يأت علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح؟ فقال رسول الله ﷺ: «لن تصبروا إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليست فيه حديدة، وأنزل الله هذه الآية:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا..﴾[1].

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: لما قدم النبي ﷺ وأصحابه المدينة، وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله؟ فنزلت:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[2].

وعن عائشة قالت: (سهر رسول الله ﷺ مقدمه المدينة ليلة، فقال: «ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة» قالت: فبينا نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح، فقال: «من هذا؟» قال: سعد بن أبي وقاص، فقال له رسول الله ﷺ: «ما جاء بك؟» قال: وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ، فجئت أحرسه، فدعا له رسول الله ﷺ، ثم نام)[3].

---

(١) في تفسير سورة النور: الآية ٥٥.

(٢) عن حياة الصحابة للكاندهلوي ٣٠٣/١ وقال: أخرجه ابن المنذر، والطبراني والحاكم وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل، وسعيد بن منصور، كما ذكره في كنزل العمال.

(٣) رواه مسلم برقم ٢٤١٠.

تلك صورة تبين ما كان عليه المسلمون بعد الهجرة.. ومن رحمة الله بهم أنه أذن لهم في القتال بنزول قوله تعالى:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ..﴾(1).

كان ذلك بعد بضعة أشهر من الوصول إلى المدينة.

فماذا يعني هذا الإذن؟

كل المعطيات السابقة تؤكد أن العدو الظاهر على مسرح الأحداث يومئذ، هو قريش..

وأمر آخر استقر في ذهنه ﷺ نتيجة للواقع العملي المر الذي عاشه في مكة، أياماً وأياماً.. أن سلطان قريش على العرب قاطبة كبير، وأن هيمنتها واسعة، وقد تأكد ذلك له من قصة عرض نفسه على القبائل.. إذ لم تكن قبيلة ما تستطيع مساعدته خوفاً من قريش.. أو حتى لا تثير بينها وبينها عدواة..

إن هذا وغيره ولدَّ قناعة كاملة بأن قريشاً هي العقبة الوحيدة في وجه الدعوة، وما لم يُحَدَّ سلطانها، ويقضى على شوكتها، فلن تستطيع الدعوة، أن تسير قدماً، فإن العرب تنظر إليها وترقب سلوكها..

قال ابن إسحاق: وإنما كانت العرب تَرَبَّصُ بالإسلام أمر هذا الحي من قريش.. وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم وأهل البيت الحرام، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقادة العرب..(2).

لهذا كله ينبغي أن توجه الجهود كلها إلى إنهاء المشكلة مع قريش أولاً ثم يكون الطريق بعد ذلك ميسراً بإذن الله تعالى...

وبدأت سرايا رسول الله ﷺ تغادر المدينة متتابعة..

---

(1) سورة الحج: الآية ٣٩.　(2) سيرة ابن هشام ٢/٥٦٠.

ـ في شهر رمضان من السنة الأولى عقد ﷺ لواء لعمه حمزة بن عبدالمطلب وبعثه في ثلاثين رجلاً، من المهاجرين خاصة، يعترض عيراً لقريش جاءت من الشام فيها أبو جهل. . .

ـ وفي شهر شوال من السنة الأولى بعث ﷺ عبيدة بن الحارث إلى بطن رابغ في ستين رجلاً، من المهاجرين خاصة. .

ـ وفي شهر ذي القعدة من السنة الأولى بعث سعد بن أبي وقاص إلى الخرار من أرض الحجاز ومعه عشرين رجلاً يعترضون عيراً لقريش.

ـ في شهر صفر من السنة الثانية خرج ﷺ في أول غزوة غزاها يريد عيراً لقريش، في ستين راكباً من المهاجرين فوصل إلى ودان أو الأبواء. . وعقد مصالحة مع بني ضمرة.

ـ وفي شهر ربيع الأول من السنة الثانية خرج ﷺ في مائتي رجل من المهاجرين يريد عيراً لقريش فيها أمية بن خلف. .

ـ ثم خرج ﷺ في جمادى الأولى من السنة الثانية في مائة وخمسين من المهاجرين يعترضون عيراً لقريش ذاهبة إلى الشام. . فبلغ العشيرة من ناحية ينبع. . فأقام بقية جمادى الأولى وأياماً من جمادى الأخرة. . ووادع فيها بني مدلج وحلفاءهم. .

ـ ثم خرج في جمادى الثانية في طلب كرز بن جابر الفهري الذي أغار على سرح المدينة. . وتسمى بدراً الأولى.

ـ وفي شهر رجب من السنة الثانية كانت سرية عبدالله بن جحش إلى نخلة. . وفيها قتل المسلمون عمرو بن الحضرمي وأسروا عثمان بن عبدالله بن المغيرة. .

كل هذا حدث في أقل من عام واحد، وهو أمر يلفت النظر إلى نواح عدة. .

١ ـ في جميع هذه الغزوات والسرايا كان المجاهدون من

المهاجرين.. ولعل هذا كان التزاماً بنصوص بيعة العقبة الثانية..[1].

٢ ـ كل هذه الغزوات والسرايا كانت غايتها تجارة قريش، وهذا يعني التضييق عليها في أمر اقتصادها وإشعارها بأن الأمن لم يعد متيسراً، وأن هناك قوة ناشئة ينبغي أن يحسب لها حسابها.

٣ ـ قلنا: إن المدينة كانت في خطر.. وهذه البعوث المتتابعة كان من مهماتها استطلاع المنطقة وما يجري فيها... مما يؤدي إلى دراسة وافية للوضع السياسي والعسكري في تلك البقعة من الأرض.

٤ ـ من وسائل الأمن عقد الاتفاقات مع الجوار.. وفي ذلك تخفيف من عدد الأعداء، وضمان لحرية الحركة.. وهكذا تم الاتفاق مع بني ضمرة، ثم مع بني مدلج وحلفائهم..

٥ ـ وللجانب الإعلامي دور كبير.. فمكوثه ﷺ في غزوة العشيرة وإقامته بها يدل على مراعاة هذا القصد.

وبهذه الغزوات والسرايا المتتابعة تمكن الرسول الكريم ﷺ من إقناع قريش بأن مهاجمة المدينة ليس أمراً سهلاً في متناول أيديهم، وأن الأيدي التي لم ترتفع في مكة للدفاع عن نفسها باتت مسلحة ملؤها الإيمان في جهاد أعداء الله، وكان على قريش أن تفكر طويلاً قبل أن تخطو مثل هذه الخطوة.

وبهذا ضمن ﷺ الأمن الخارجي للمدينة، كما ضمن الأمن الداخلي بالوثيقة التي وضعها.

* * *

وهكذا فقد كان جماع السلطة في يده صلى الله عليه وسلم.

---

(١) من المعلوم أن البيعة كانت على أن يمنعوه إذا داهمه العدو، ولم تكن على أن يخرج بهم إلى عدوه وعدوهم.

ـ فهو المرجع في الأمور كلها. . وإذا خرج إلى غزوة ما، استعمل على المدينة واحداً من أصحابه، فقد استعمل في غزوة بواط السائب بن عثمان بن مظعون، وفي غزوة العشيرة أبا سلمة بن عبدالأسد .

ـ وهـو الذي يبعث بـالسرايا ويعقد لهـا الألـويـة، كما كـان يقود الغزوات بنفسه صلى الله عليه وسلم.

ـ كما كان يعقد الصلح والمعاهدات.

ومن نافلة القول أن نذكر بأنه لم يلزم الأنصار بالخروج في غزوة أو سرية في هذه المدة من الزمن التزاماً منه ﷺ بنصوص بيعة العقبة الثانية، فمآل السلطة إليه لا يعني الإخلال بالعهود والمواثيق، فهو خير من وفى صلى الله عليه وسلم.

الفصل الثاني

الوضع الاجتماعي

نحاول في هذا الفصل إعطاء صورة عن الوضع الاجتماعي العام خلال هذه المدة القصيرة من الزمن.

الوضع السكاني:

كانت المدينة سكناً للأوس والخزرج، وعلى طرفها الشرقي قامت حصون اليهود الثلاثة، حصن بني قينقاع، وحصن بني قريظة، وحصن بني النضير، هذه الحصون التي يأوي إليها اليهود ليلاً، وينتشرون في النهار فيكونون مع أهل المدينة، أو يكون أهل المدينة في أسواقهم.

وكانت هناك وقائع في الجاهلية بين الأوس والخزرج وكان آخرها يوم بعاث، وكثيراً ما كان اليهود يحركون الشر بين الطرفين..

وجاء رسول الله ﷺ إلى المدينة وجاء معه المهاجرون..

وبهذا يدخل عنصر سكاني جديد هو المهاجرون، وتغير الوضع الجاهلي فأصبح المؤمنون من الأوس والخزرج أخوة في الإسلام وحملوا اسم «الأنصار» وأما من لم يسلم من الأوس والخزرج فهم «المشركون».

وليس بين أيدينا إحصاءات دقيقة عن عدد المهاجرين، ولكن غزوة بواط، التي كانت في شهر ربيع الأول من العام الثاني للهجرة، كان عدد المجاهدين فيها مائتين، وجميعهم من المهاجرين، وهذا الرقم ليس أكثر من مؤشر، إذ لم يكن الخروج إلى الجهاد يومئذ فرضاً، وهذا يعني أنه لم يخرج في هذه الغزوة جميع المهاجرين من الرجال، والأمر الثاني: هو أن

هذا الرقم لا يشمل النساء والأطفال وغيرهم ممن ليس لهم قدرات قتالية.

ومهما يكن من أمر، فإن انضمام المهاجرين إلى المؤمنين من الأوس والخزرج جعل نسبة من بقي منهم على شركه قليلة.

وهكذا أضحت غالبية السكان في المدينة من المؤمنين، وساد الجو الإيماني، وأما المشركون فقد ظلوا على شركهم لا يضايقهم أحد، وأما اليهـود فقد ضبط الكتـاب الذي سبق ذكـره علاقتهم بـالمسلمين، كما ضمن لهم حريتهم الدينية.

تتابع وصول المهاجرين:

نعتقد أن الرسول ﷺ لم يخرج من مكة مهاجراً إلا بعد أن كان معظم المسلمين من أهل مكة قد سبقوه بالهجرة، ولم يبق إلا من حبس، أو من حالت بينه وبين الهجرة أمور ينتظر زوالها.

وقد أرسل النبي ﷺ - بعد وصوله إلى المدينة - زيد بن حارثة، وبعث معه أبا رافع مولاه، وبعث أبو بكر معهما عبدالله بن أريقط.. بغية إحضار آل النبي ﷺ وآل أبي بكر..[1] وقدم معهم طلحة بن عبيدالله، الذي كان في تجارة ببلاد الشام عند هجرته ﷺ[2].

وذكر ابن كثير في تفسيره أن مرثد بن أبي مرثد كان يحمل الأسارى[3] من مكة حتى يأتي بهم المدينة..[4].

وفي شهر شوال من السنة الأولى خرج المقداد بن عمرو، وعتبه بن غزوان - وكانا مسلمين - مع أبي سفيان في قافلة تجارية. وقد التقت هذه

---

(١) آل النبي ﷺ: فاطمة، وأم كلثوم، وسودة بنت زمعة. وأم أيمن وأسامة وآل أبي بكر رضي الله عنه: أم رومان، وعائشة، وأسماء امرأة الزبير [انظر حياة الصحابة للكاندهلوي ٣٦٩/١ نقلاً عن الاستيعاب].

(٢) طبقات ابن سعد ٢١٥/٣.

(٣) المقصود هنا: ضعاف المؤمنين الذين لم يقدروا على الهجرة.

(٤) في تفسير الآية الثالثة من سورة النور.

القافلة بسرية عبيدة بن الحارث مع ستين من المهاجرين في بطن رابغ.. وفرَّ المقداد وعتبة إلى صف المسلمين[1].

وهكذا كانت تبذل الجهود، وبأساليب متعددة، بغية استكمال هجرة من لم يهاجر.

وإلى هذا تشير سورة الأنفال التي نزلت بعد بدر في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ﴾[2].

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

لم تكن الهجرة محببة إلى نفوس المهاجرين، ولذلك احتاجت نفوسهم إلى إعداد مسبق، كما أوضحت ذلك في القسم الثاني من هذا الكتاب.

ومع ذلك لما وصل القوم إلى المدينة وأصابتهم فيها حمى يثرب، تذكروا مكة، وتجاوز هذا التذكر حديث النفس، ليكون كلاماً على اللسان، فهذا بلال بعد أن صحا من الحمى يرفع عقيرته وينشد:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بواد وحولي إذخر وجليل
وهل أردن يوماً مياه مجنة ... وهل يبدون لي شامة وطفيل

وأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال: «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، اللهم صححها، وبارك لنا في صاعها ومدها..»[3].

وإزاء هذا الشعور النفسي بالغربة، والحنين إلى مكة، في نفوس أصحابه كان لا بد من عمل يخفف عنهم بعض هذه المعاناة فكانت المؤاخاة.

فقد آخى بين أصحابه ﷺ ليذهب عنهم تلك الوحشة ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة، وليشد بعضهم أزر بعض.. وهذا ما ألمح إليه ﷺ

(١) سيرة ابن هشام ٥٩٢/١. (٢) سورة الأنفال: الآية ٧٥.
(٣) أخرجه البخاري برقم ٣٩٢٦.

بقوله مخاطباً الأنصار: «إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم»[1].

«ولئن كان الخط العريض للمؤاخاة، أنها بين المهاجرين من جانب، وبين الأنصار من جانب آخر، فإن هذا لم يمنع أن تكون بعض هذه الأخوة بين المهاجرين بعضهم مع بعضهم الآخر، ذلك أن الغاية من تعيين هذه الأخوة. هو تحديد المسؤولية في المواساة والنصرة والرفادة، وواضح أن بعض المهاجرين كان أحسن حالاً ـ من الناحية المادية ـ من بعضهم الآخر».

«وقد كان لهذه الأخوة أثرها البعيد حتى كان التوارث يقوم على أساسها دون القرابة، قال ابن عباس: (كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث الأنصاري المهاجري، دون ذوي رحمه، للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم..)[2]، واستمر العمل كذلك حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[3] حيث ردَّ الميراث إلى ذوي الأرحام وبقيت النصرة والرفادة»[4].

وقد ظل لهذه الأخوة أثرها في نفوس المؤمنين حتى آخر حياتهم، فقد أرسل عمر بن الخطاب إلى بلال ـ رضي الله عنهما ـ وكان مقيماً في الشام مجاهداً يسأله: إلى من تجعل ديوانك يا بلال؟ قال: مع أبي رويحة، لا أفارقه أبداً، للأخوة التي كان رسول الله ﷺ عقد بيني وبينه[5].

وإذا كان من شيء نذكره هنا فهو عظمة حكمة الرسول ﷺ، فهو لم

---

(١) أورده ابن كثير في تفسير الآية التاسعة من سورة الحشر.
(٢) رواه البخاري في كتاب الفرائض.
(٣) سورة الأنفال: الآية ٧٥.
(٤) عن كتاب (من معين السيرة) للمؤلف الطبعة الثالثة ص١٧٧ ـ ١٧٩.
(٥) سيرة ابن هشام ١/٥٠٧.

ينكر عليهم ذكر وطنهم الأول. وقد قال كلمته في ذلك[1]، ولكنه اتجه إلى الله تعالى يسأله أن يحبب إليهم المدينة، وفكر في إيجاد البديل فكانت «الأخوة».

وهي في بعض معانيها ـ في مطلع العهد المدني ـ تأكيد عملي للارتقاء بهذه الرابطة الإيمانية فوق جميع الروابط الأخرى بما فيها النسب، وهكذا يتحقق في واقع الحياة العملي المعنى الذي يسعى إليه هذا الدين.

بناء المسجد:

كان ﷺ بعد قدومه إلى المدينة يصلي حيث أدركته الصلاة، وكان يصلي في مرابض الغنم.. ثم أرسل إلى بني النجار، فاشترى منهم الأرض التي بركت فيها ناقته تجاه دار أبي أيوب الأنصاري، حيث نزل صلى الله عليه وسلم.

• وقد سويت الأرض، بعدما نُبِشت قبور المشركين التي كانت فيها، كما قُطع الشجر الذي كان فيها.. وبدأت عملية البناء.. بسيطة متواضعة، الجدران من اللبن، والأعمدة من جذوع النخيل والسقف من الجريد..

كانت تكالبف مواد البناء زهيدة، أما العمل فقد قام به النبي ﷺ بنفسه يساعده أصحابه الكرام الذين كانوا يتسابقون في ذلك.

وأضحى المسجد ـ إضافة إلى مهمته الأولى ـ مركز القيادة، فإذا أراد الرسول ﷺ أمراً، دعا مناديه ليرفع صوته بـ «الصلاة جامعة» وعندها يجتمع المسلمون وتطرح القضية محل النظر.

وتوسعت مهمة المسجد بعد ذلك، ليكون مكان التعليم، ومركز السلطة، ومكان التشاور عند الملمات، وفيه تعقد الرايات، ومنه تنطلق الدعوة.

---

(١) وهي قوله ﷺ: «والله إنكِ لأحب أرض الله إليّ..».

إنه مركز الحياة الاجتماعية، فهو التجسيد لمعنى الإسلام، الذي لا يفصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية... فالصلاة والجهاد والنظر في شؤون الناس.. كلها في مفهوم الإسلام عبادة.

مسكن النبي صلى الله عليه وسلم:

لما فرغ ﷺ من بناء المسجد، وكانت قبلته يومئذ إلى بيت المقدس، بنى غرفتين في ملاصقته، في مؤخرته من قبل المشرق، وكان باب واحدة منها شارعاً إلى صحن المسجد، الذي تحول بعد ذلك مكاناً للصلاة عندما تحولت القبلة باتجاه الكعبة.

وكانت واحدة منهما لزوجته سودة بنت زمعة، والثانية أعدت لعائشة وكان قد عقد عليها.

أما بقية الحجرات فلم تبن إلا عند الحاجة إليها. فكان ﷺ إذا أحدث زواجاً بنى غرفة..

ونترك وصف هذه الحجرات للذين رأوها:

قال عبدالله بن زيد الهذلي: رأيت بيوت أزواج النبي ﷺ حين هدمها عمر بن عبدالعزيز، كانت بيوتاً باللبن ولها حجر من جريد مطرورة بالطين.

وقال عطاء الخراساني: أدركت حجر أزواج رسول الله ﷺ من جريد النخل على أبوابها المسوح من شعر أسود، فحضرت كتاب الوليد بن عبدالملك يقرأ، يأمر بإدخالها في المسجد، فما رأيت أكثر باكياً من ذلك اليوم.

وقال عطاء: فسمعت سعيد بن المسيب يقول يومئذ: (والله لوددت أنهم تركوها على حالها ينشأ ناشىء من أهل المدينة ويقدم قادم من الأفق فيرى ما اكتفى به رسول الله صلى الله عليه وسلم...).

وأما مقاييسها: فقد قال الحسن البصري: كنت أدخل بيوت أزواج

النبي ﷺ في خلافة عثمان بن عفان فأتناول سقفها بيدي[1].

وروى البخاري في «الأدب» عن داود بن قيس قال: (رأيت الحجرات من جريد النخل مغشى من خارج بمسوح الشعر، وأظن أن عرض البيت من باب الحجرة إلى البيت نحواً من ستة أو سبعة أذرع، ومن داخل عشرة أذرع، وأظن السمك ما بين الثمان والسبع)[2].

قال عمر بن أبي أنس: كان منها أربعة أبيات بلبن لها حجر من جريد، وكانت خمسة أبيات من جريد لا حجر لها[3]...

وعلى هذا فالحجر نوعان: أربع منها عبارة عن غرفة واحدة وأمامها فسحة، والباقي غرف فقط.

ومقاييس النوع الأول: الفسحة من ٣ - ٣,٥ متراً، والغرفة ٥ متراً وعرضها ما بين ٣,٥ - ٤ متراً وأما الارتفاع فهو بمقدار ما يقف الإنسان ويمد يده أي ما يعادل ٢,٢٥ متراً..

تلك صورة عن سكن النبي الكريم ﷺ كان لا بد من الوقوف عليها ونحن نتحدث عن الحياة الاجتماعية..

---

(١) طبقات ابن سعد ١/٤٩٩ - ٥٠٠.
(٢) شرح الزرقاني على المواهب ١/٣٧٠.
(٣) طبقات ابن سعد ١/٥٠٠.

الفصل الثالث

حركة الدعوة

في المرحلة الأولى

مكة بعد الهجرة:

بعد هجرته ﷺ نستطيع القول بأن حركة الدعوة في مكة قد توقفت تماماً، بل إنها قبل الهجرة كانت شبه متوقفة، فكيف وقد أصاب قريشاً ما أصابها من جراء الهجرة، وقد وصل غضبها إلى ذروته، بوصول المؤمنين إلى مكان يأمنون فيه، ولهم فيه أنصار؟.

وكما أن المسلمين لم يدخروا وسعاً في اتخاذ الوسائل للهجرة من مكة إلى المدينة، فإن قريشاً لم تدخر وسعاً في منع هذه الهجرة ما استطاعت، وقد رأينا كيف تحايل المقداد بن عمرو، وعتبة بن غزوان، للفرار من قافلة أبي سفيان، والالتحاق بسرية عبيدة بن الحارث..

بل إن أبا جهل بن هشام، والحارث بن هشام، خرجا من مكة حتى قدما المدينة وكان قد هاجر إليها عياش بن أبي ربيعة مع عمر بن الخطاب - وذلك قبل هجرته ﷺ - وكان عياش ابن عمهما وأخاهما لأمهما، فالتقيا به وكلماه بأن أمه نذرت أن لا يمسَّ رأسها مشط حتى تراه.. وأقنعاه بالعودة ليبرَّ قسم أمه.. وحذره عمر.. ولكنه ذهب معهما، فلما كان في الطريق، عَدَوَا عليه فأوثقاه ربطاً، ثم دخلا به مكة وفتناه..[1].

---

(١) البداية والنهاية ١٧٢/٣.

الأوس والخزرج:

غلب الإسلام على هاتين القبيلتين قبل هجرته ﷺ، ونعتقد أن الإسلام تابع طريق انتشاره فيهما بعد الهجرة، فقد أصبح الناس على مقربة منه ﷺ يسمعونه وهو يتحدث إليهم ويرونه بينهم فكان هذا مدعاة إلى تتابع انتشار الدعوة، خاصة وقد غلب الإسلام على الجو العام في هاتين القبيلتين.

قال ابن إسحاق: فأقام رسول الله ﷺ بالمدينة إذ قدمها، شهر ربيع الأول، إلى صفر من السنة الداخلة، حتى بني له فيها مسجده ومساكنه، واستجمع له إسلام هذا الحيّ من الأنصار، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها، إلا ما كان من خطمة، وواقف، ووائل، وأمية، وتلك أوس الله ـ وهم حي من الأوس ـ فإنهم أقاموا على شركهم[١].

ومعنى هذا: أنه لم يمض عام واحد حتى استكمل الإسلام وجوده في الأنصار، عدا من ذكر، وهم قليل.

اليهود:

كان اليهود أحق الناس بالمسارعة إلى الإسلام، فهم أصحاب كتاب، وهم الذين كانوا يتوعدون الأوس والخزرج ببعثة النبي الكريم والإيمان به..

ولكنهم كانوا يتوقعون أن يكون هذا الرسول منهم، فلما بُعث ﷺ وكان من العرب، نصبوا له العداوة بغياً وحسداً..

ولذلك لما وصل ﷺ إلى المدينة، ودعاهم إلى الإسلام لم يستجيبوا إلا ما كان من عبدالله بن سلام.

روى البخاري عن أنس: (أن عبدالله بن سلام بلغه مقدم النبي ﷺ المدينة، فأتاه يسأله عن أشياء لا يعلمها إلا نبي. فلما أجابه ﷺ قال:

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٥٠٠.

أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، قال: يا رسول الله، إن اليهود قوم بهت، فاسألهم عني قبل أن يعلموا بإسلامي، فجاءت اليهود، فقال النبي ﷺ: «أي رجل عبدالله بن سلام فيكم؟» قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وأفضلنا وابن أفضلنا، فقال النبي ﷺ: «أرأيتم إن أسلم عبدالله بن سلام؟» قالوا: أعاذه الله من ذلك، فأعاد عليهم، فقالوا مثل ذلك، فخرج إليهم عبدالله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. قالوا: شرنا وابن شرنا، وتنقصوه، قال: هذا كنت أخاف يا رسول الله)[1].

وفي رواية عنده عن أنس أيضا: (.. فأرسل نبي الله ﷺ، فأقبلوا فدخلوا عليه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «يا معشر اليهود، ويلكم اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً، وأني جئتكم بحق، فأسلموا»، قالوا: ما نعلمه - قالها ﷺ ثلاث مرات - قال: «فأي رجل فيكم عبدالله بن سلام؟ قالوا: ذاك سيدنا..)[2].

وهكذا بدأ جحودهم من الأيام الأولى للهجرة. وبدأ معه انحرافهم في سلوكهم تجاه المسلمين، وقد نزلت آيات كثيرة من سورة البقرة - وهي السورة الأولى نزولاً في المدينة - تبين انحرافهم وعصيانهم وتذكّر بسوء أخلاقهم وطواياهم..

ولما نزلت الآيات الكريمة بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، كانت لهم صولات وجولات في محاولة بلبلة أفكار المسلمين.. وقد أشارت آيات سورة البقرة إلى ذلك:

قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[3].

ولقد عزَّ عليهم أن يروا الأوس والخزرج وقد أصبحوا يداً واحدة،

---

(١) رواه البخاري برقم ٣٩٣٨. (٢) رواه البخاري برقم ٣٩١١.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٤٢.

جمعهم الإسلام على أخوة الإيمان مع إخوانهم المهاجرين، وهم الذين كانوا يثيرون الفتن بين القبيلتين لتضعف قوتهما فتكون لهم الغلبة عليهما.

مرَّ شاس بن قيس وكان شيخاً عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين، على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج، في مجلس قد جمعهم، يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم، وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شاباً من يهود كان معهم، فقال: اعمد إليهم، فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بعاث، وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، ففعل، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب، وقال أحدهما للآخر: إن شئتم رددناها الآن جذعة، فغضب الفريقان جميعاً وقالوا قد فعلنا، موعدكم الحرة، وتنادوا: السلاح السلاح.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم، فقال: «يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بين قلوبكم».

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيدٌ من عدوهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ. . (١).

وأنزل الله تعالى في ذلك:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ۝ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٥٥٥ ـ ٥٥٧.

﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ . . ﴾ إلى قوله: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1].

وهكذا كانوا لا يدعون فرصة تفوتهم يستطيعون فيها الكيد للمؤمنين وإيقاع العداوة بينهم..

باحث عن الحق:

كان في انتظار النبي ﷺ في المدينة رجل فارسي، طوَّف في أرجاء كثيرة باحثاً عن الدين الحق، حتى وصف له الرسول ﷺ، وإظلال زمانه، ووصف له المكان الذي يهاجر إليه.. ذلكم هو سلمان الفارسي.

وفي طريقه إلى المدينة أُسِرَ وبيع بيع الرقيق واستقر كذلك في المدينة عند رجل يهودي. ولنترك الحديث له، قال:

(فأقمت بها، وبعث الله رسوله فأقام بمكة ما أقام، لا أسمع له بذكر، مع ما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلى المدينة، فوالله إني لفي رأس عَذْق[2] لسيدي أعمل فيه بعض العمل، وسيدي جالس، إذ أقبل ابن عم له.. فأخبره بقدوم الرسول ﷺ.. قال سلمان: فلما سمعتها أخذتني العُرَواء[3] حتى ظننت أني سأسقط على سيدي، فنزلت، فجعلت أسأل ابن عمه.. فغضب سيدي فلكمني لكمة شديدة، ثم قال: مالك ولهذا؟ أقبل على عملك).

واستطاع سلمان التعرف على علامات النبوة التي حفظها من الأحبار الذين عاش معهم، وكان آخرها خاتم النبوة..

---

(١) سورة آل عمران: الآيات ١٠٠ ـ ١٠٥.

(٢) العذق: النخلة بحملها.

(٣) الرعدة من الخوف.

قال: (فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فأكببت عليه أقبله وأبكي، فقال لي رسول الله ﷺ: «تحول»، فتحولت فقصصت عليه حديثي)[1].

وشغل سلمان بالرق بعد إسلامه، حتى فاته مع رسول الله ﷺ بدر وأحد، ثم كاتب سيده بأمر من الرسول ﷺ وساعده المسلمون على أداء كتابته، وكانت أول مشاهده غزوة الخندق.

موقف القبائل العربية:

أما موقف بقية القبائل العربية غير قريش والأوس والخزرج، فقد كان موقف المتريث، ينتظرون ما تؤول إليه الأمور بينه ﷺ وبين قريش. الذين هم سدنة الكعبة وحماة الوثنية.

---

(١) انظر القصة بكاملها في الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد للبنا ٢٢/٢٦١ - ٢٦٦.

الفصل الرابع

الوضع الاقتصادي (١)

ليس المقصود من هذا الفصل، وكذا الفصول الأخرى التي تتناول الوضع الاقتصادي صياغة نظرية اقتصادية، وإنما الهدف وصف الحالة القائمة يومئذ، بغية استكمال بيان الواقع الذي قامت فيه الدعوة والظروف التي أحاطت بذلك، حتى يستطيع القارىء الوقوف على صورة أقرب ما تكون لبيان حركة سير الدعوة، وكيف استطاعت بفضل الله تعالى تجاوز كل العوائق التي اعترضت طريقها.

مكة والمدينة:

أراد الله لمكة أن تقوم بواد غير ذي زرع، ولذا اتجه أهلها إلى التجارة، وقد ساعدهم على ذلك، ذلك الأمن الذي قيضه الله تعالى لهذا البلد في كل الأوقات، كما ساعد على ذلك أيضاً وجود موسم الحج، الذي يعد بدوره سوقاً تجارية كبيرة، فقد تعارف العرب على إقامة أسواقهم هناك قبل الموسم وأثناءه وبعده.

وكان طبيعياً في مثل هذا الجو أن تكون التجارة هي مادة الدخل لسكان هذا البلد، حتى كانت لهم رحلتان موسميتان إلى اليمن والشام، هذا في إطار التجارة الخارجية، كما كانت لهم المشاركة الفعالة في الأسواق الموسمية التي أشرنا إليها قبل قليل[1].

---

(١) للعرب أسواق مشهورة: عكاظ، ومجنة، وذو المجاز، وكان عكاظ من أعظم أسواق الجاهلية، وراء قرن المنازل بمرحلة، من عمل الطائف على طريق اليمن، وكان يقام فيها السوق في ذي القعدة نحواً من نصف شهر، ثم يأتون موضعاً دونه

ولهذا كان أهل مكة تجاراً، فمن كان ذا مال اتجر بماله، ومن لم يكن ذا مال أمكنه أن يتاجر بمال غيره مضاربة، وذلك كما فعل رسول الله ﷺ حين سافر بمال خديجة رضي الله عنها..

وفي أجواء التجارة تظهر قيمة رأس المال.. وأثره في إنتاج الربح، ومن هنا نشأ التعامل بالربا بين أهل مكة.. حتى جاء الإسلام فأبطله.

أما المدينة فهي بلد زراعي، يغلب على أهله العمل بها، وقد غلب اليهود فيها على التجارة والصناعة.

وللمدينة مركز تجاري مرموق وخاصة بإمداد المناطق المجاورة بالطعام من تمر وحبوب..

نخلص من هذا إلى تقرير حقيقة مهمة، وهي أن غالب المهاجرين وهم من أهل مكة كان عملهم التجارة، وأن غالب الأنصار كان عملهم الزراعة. هذه الحقيقة يؤكدها لنا أبو هريرة حيث قال: (يقولون إن أبا هريرة يكثر الحديث، والله الموعد، ويقولون: ما للمهاجرين والأنصار لا يحدثون مثل أحاديثه؟ وإن إخوتي من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وإن إخوتي من الأنصار كان يشغلهم عمل أموالهم..)[1].

ترحيب الأنصار بالمهاجرين:

إن ظروف الهجرة القاسية، جعلت أكثرية المهاجرين يخرجون طالبين النجاة بأنفسهم، ولم يتح لهم أن يحملوا معهم أموالهم، فقد كانت العيون من قريش تراقب تحركاتهم حينما أحست بعزمهم على مغادرة مكة، ولذلك حبس من حبس منهم فيها. وإزاء هذه الحال فقد وصلوا إلى المدينة وليس بأيديهم شيء.

= إلى مكة يقال له: سوق مجنة، فتقام فيه السوق إلى آخر الشهر، ثم يأتون موضعاً قريباً منه يقال له: ذو المجاز، فيقام فيه السوق إلى يوم التروية، ثم يصدرون إلى منى.. [السيرة النبوية للدكتور محمد أبو شهبة ١/١٠٠ دار القلم].

(١) الحديث متفق عليه، وهو عند البخاري برقم ٢٣٥٠ وعند مسلم برقم ٢٤٩٢.

وقد قام الأنصار باستضافة إخوانهم المهاجرين بكرم كبير لا نجد له نظيراً فيما سجله التاريخ إلا أن يكون صادراً عن طبيعة هذا الدين..

وقد تجلى هذا الكرم بعدد من المظاهر:

١ ـ تأمين السكن: فقد هرع الأنصار لتقديم بيوتهم ومشاركة إخوانهم في سكنهم، وقد كان كل أنصاري حريصاً على أن يناله ذلك الخير، فكانت المشاحة في ذلك والحرص عليه، حتى لم ينزل مهاجري على أنصاري إلا بقرعة.

روى البخاري عن خارجة بن زيد بن ثابت: (أن أم العلاء [1] ـ امرأة من نسائهم [الأنصار] بايعت النبي ﷺ [2] ـ أخبرته أن عثمان بن مظعون طار لهم في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين..) [2].

٢ ـ لم تقتصر المشاركة على السكن فقد تناولت أيضاً الطعام والمال.

قال أنس بن مالك: (لما قدم المهاجرون المدينة من مكة، قدموا وليس بأيديهم شيء، وكان الأنصار أهل الأرض والعقار [3]، فقاسمهم الأنصار على أن أعطوهم أنصاف ثمار أموالهم كل عام، ويكفونهم العمل والمؤونة..) [4].

وفي تفسير ابن كثير: قال رسول الله ﷺ: «إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم» فقالوا: أموالنا بيننا قطائع، فقال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «هم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم، وتقاسمونهم الثمر» فقالوا: نعم يا رسول الله [5].

---

(١) هي أم خارجة راوي الحديث.

(٢) رواه البخاري برقم ٣٩٢٩.

(٣) المقصود بها: النخيل.

(٤) رواه البخاري برقم ٢٦٣٠ ومسلم برقم ١٧٧١.

(٥) في تفسير الآية التاسعة من سورة الحشر.

٣ ـ يضاف إلى ذلك ما قدمه الأنصار من منائح، قدموها إلى النبي ﷺ وجعلوها تحت تصرفه يضعها حيث يشاء.

ففي حديث أنس: (كان الرجل يجعل للنبي النخلات.. وأن أم أنس أعطت رسول الله ﷺ عِذاقاً[١] لها، فأعطاها رسول الله ﷺ أمّ أيمن، مولاته، أم أسامة بن زيد)[٢].

٤ ـ وهناك أنواع أخرى من العطاء والكرم كانت تقدم بشكل هدايا وغيرها.. قال مخرمة بن سليمان: وكانت جفنة سعد تدور على رسول الله ﷺ منذ يوم نزل المدينة في الهجرة إلى يوم توفي، وغير سعد بن عبادة يفعلون ذلك، فكان أصحاب رسول الله ﷺ يتواسون..[٣].

تلك نماذج مما قدمه الأنصار، ليس ذلك ليوم أو شهر.. وإنما لمدة طويلة من الزمن، ولقد كانت الأخوة التي آخى رسول الله ﷺ إشعاراً بأن الرجل يعاون أخاه بكل ما تعنيه الكلمة من معنى.

ولقد كان هذا العطاء صادراً عن نفوس طيبة، سجل لها القرآن الكريم هذا الموقف وأثنى عليها بما تستحقه، فقال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٤].

ومما يبين لنا مقدار كرم الضيافة وحسن المواساة، ما أخرجه أحمد عن أنس قال: (قال المهاجرون: يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا

(١) جمع عذق: وهي النخلة.
(٢) رواه البخاري برقم ٤١٢٠ ومسلم برقم ١٧٧١.
(٣) طبقات ابن سعد ٤٠٩/١.
(٤) سورة الحشر: الآية ٩.

عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلاً في كثير، لقد كفونا المؤنة، وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله، قال: «لا، ما أثنيتم عليهم، ودعوتهم الله لهم»[1].

ولقد أكرم الله الأنصار إذ سماهم في القرآن الكريم بهذا الاسم ثم جعلهم في عداد السابقين، وذلك في قوله تعالى:

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ .. ﴾[2].

* * *

وقبل أن نختم هذه الفقرة، هناك سؤال يطرح نفسه: لمَ لم يقسم النبي ﷺ الأرض والمزارع بين المهاجرين والأنصار، كما طلب ذلك الأنصار؟.

ومن خلال دراسة السيرة نستطيع أن نرجع هذا الأمر لسببين:

١ ــ إن هذه المساعدة في نظره ﷺ مساعدة مؤقتة، وإن طالت مدتها نسبياً، فهي إنما كانت تحت عامل الضرورة، والضرورات تقدر بقدرها، ولذلك نجده ﷺ في أول فرصة تسنح يحاول إرجاع تلك المنائح لأصحابها. ولذا أحب أن تبقى الأرض والمزارع بيد أصحابها وأن لا تخرج عنها وأن تكون المقاسمة قاصرة على الثمرة.

٢ ــ وهناك قضية أخرى، وهي أنه لا يريد شغل المهاجرين بالأرض والزرع، لأن هناك مهمات جهادية تنتظرهم. ولقد رأينا كيف تتابعت السرايا والغزوات في هذه المدة الوجيزة من الزمن، وكيف كانت قاصرة على المهاجرين الذين يختارهم الرسول ﷺ لكل مهمة من تلك المهمات.

---

(١) المسند ٣/٢٠٠.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٠٠.

وبهذا تظهر الحكمة العظيمة في تصرفات الرسول الكريم ﷺ، ومدى النظرة المستقبلية التي يقدر لها ما يناسبها، وذلك هو التخطيط الصحيح.

عفة المهاجرين وعملهم:

نستطيع القول بأن كرَم الأنصار وسخاءهم الكبير، قابله عفة وكرم نفس من المهاجرين قلما نجد له نظيراً، فهم لم يتركوا أموالهم في مكة على أمل تعويضها من أموال إخوانهم الأنصار، وإنما تركوها في سبيل عقيدتهم، وإذا ألجأتهم الحاجة في هذه الفترة فقد كانوا يقتصرون على ما يقيم أودهم..

روى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: (قدم عبدالرحمٰن بن عوف المدينة، فآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري - وكان ذا غنى - فقال لعبدالرحمٰن: أقاسمك مالي نصفين وأزوجك. قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلوني على السوق، فما رجع حتى استفضل أقطاً وسمناً، فأتى به أهل منزله ...)[1].

ونقول إن مسلك عبدالرحمٰن هذا ليس خاصاً به، بل إن الكثير من المهاجرين كان مكوثهم يسيراً في بيوت إخوانهم من الأنصار ثم باشروا العمل والكسب واشتروا بيوتاً لأنفسهم وتكفلوا بنفقة أنفسهم..

ومن هؤلاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه، الذي أخرج ماله معه عندما هاجر، قالت أسماء بنت أبي بكر: لما خرج رسول الله ﷺ، وخرج أبو بكر معه، احتمل أبو بكر ماله كله، ومعه خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم، فانطلق بها معه.. قالت: فدخل علينا جدي أبو قحافة وقد ذهب بصره، فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه، قالت: قلت: كلا يا أبت، إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً قالت: فأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة.. ثم وضعت عليها ثوباً، ثم أخذت بيده فقلت: يا أبت، ضع يدك على هذا

---

(١) رواه البخاري برقم ٢٠٤٩.

المال، فوضع يده فقال: لا بأس إذا كان ترك لكم هذا فقد أحسن. ولا والله ما ترك لنا شيئاً، ولكني أردت أن أسكن الشيخ بذلك[1].

والمعروف أن أبا بكر كان تاجراً، ولا شك بأنه زاول تجارته منذ وصوله إلى المدينة.

وخرج عمر بن الخطاب بأمواله أيضاً، ففي قصة هجرته مع عياش بن أبي ربيعة.. أنه قال لعياش ـ وقد جاء أبو جهل يقنعه بالعودة إلى مكة رحمةً بأمه ـ: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي ولا تذهب..[2].

وهذا يعني أن عمر قد خرج بماله، وإلا فكيف يَعِدُ عياشاً بنصف ماله إن لم يكن قد خرج به؟ ومن المعلوم أن عمر كان تاجراً وأنه مارس تجارته بعد وصوله إلى المدينة.

وكذلك حمل عثمان جميع أمواله معه..[3].

وكذلك نقدر أن عثمان بن مظعون قد خرج بماله، فقد أخرج ابن سعد الخبر التالي: دخلت امرأة عثمان بن مظعون على نساء النبي ﷺ فرأين هيئتها فقلن مالك؟ فما في قريش أغنى من بعلك، فقالت: أما ليله فقائم..[4] وهذا يعني أنه قد خرج بأمواله، ذلك أن الفترة التي عاشها في المدينة لا تتيح له هذا الغنى، فقد توفي رضي الله عنه في شعبان سنة ثلاث من الهجرة.

ولا شك أن غيرهم أيضاً استطاع أن يحمل ماله أو بعض ماله، وهكذا فإن بعض المهاجرين استطاع أن يتكفل بنفقات نفسه وعياله دون أن يكلف الأنصار شيئاً. بل إنه ساهم في نفقات بعض إخوانه من المهاجرين كما سوف نرى.

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٤٨٨.

(٢) سيرة ابن هشام ١/٤٧٥.

(٣) ذكر ذلك محمد رضا في كتابه (محمد رسول الله) ص ١٥٦ بالنسبة لعثمان.

(٤) فتح الباري ١٢/٤١١.

السوق التجارية:

قلنا إن الأوس والخزرج غلب عليهم العمل في الزراعـة، وهذا لا ينفي وجود من يعمل في التجارة، فقد ورد في البخاري أن البراء بن عازب وزيد بن أرقم كانا تاجرين على عهد رسول الله ﷺ[1]. وكان الأول أوسياً وكان الثاني خزرجياً.. ولكن تجارة المدينة قد سيطر عليها اليهود.

وجاء المهاجرون إلى المدينة، وهم التجار، فنزلوا إلى السوق بعضهم بأمواله وخبرته كأبي بكر وعمر وعثمان.. وبعضهم ممن لم يحمل معه ماله نزل بخبرته وحدها كعبدالرحمٰن بن عوف.. ولا شك بأنه كان لهم تأثير فعال، وذلك بتضييق مجال سيطرة اليهود، الأمر الذي زاد من ضغينتهم على المسلمين.

على أنه قد بقيت لليهود بعض المجالات التي لم يقربها المسلمون، وهي مجال تجارة اليهود الأصيلة تلك هي الحانات وبيع الخمور، فقد كانوا متخصصين بها حتى قبل نزول تحريم القرآن للخمر..

---

(١) رواه البخاري برقم ٢٠٦٠.

الفصل الخامس
الوضع الاقتصادي (٢)
(الصفَّة)

في هذا الفصل نتحدث عن مرفق اقتصادي مهم، كان له أثره طوال المرحلة المدنية، هو «الصفـة»[١]، وعلى الرغم من امتـداد فعاليتـه طول الحياة المدنية فإننا سنتحدث عنه جملة في هذا الباب الأول، حتى لانجزئه إلى أقسام، وتفادياً لصعوبة التقسيم، إذ ليس بين أيدينا ما هو دوره في كل مرحلة من المراحل الثلاث التي تحدثنا عنها عند تقسيمنا للبحث.

التعريف بالصفة:

قال القاضي عياض: الصفة ظلة في مؤخر مسجد رسول الله ﷺ يأوي إليها المساكين، وإليها تنسب أهل الصفة[٢].

وقال ابن تيمية: الصفة كانت في مؤخر مسجد النبي ﷺ في شمالي المسجد بالمدينة المنورة[٣].

وقال ابن حجر: الصفة مكان في مؤخر المسجد النبوي مظلل أعد لنزول الغرباء فيه ممن لا مأوى له ولا أهل[٤].

---

(١) أصلها من صفة البيت، وهي شيء كالظلة قدامه.
(٢) نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية لعبدالحي الكتاني ١/٤٧٤.
(٣) الفتاوى ١١/٣٨.
(٤) فتح الباري ٦/٥٩٥ و١/٥٣٥.

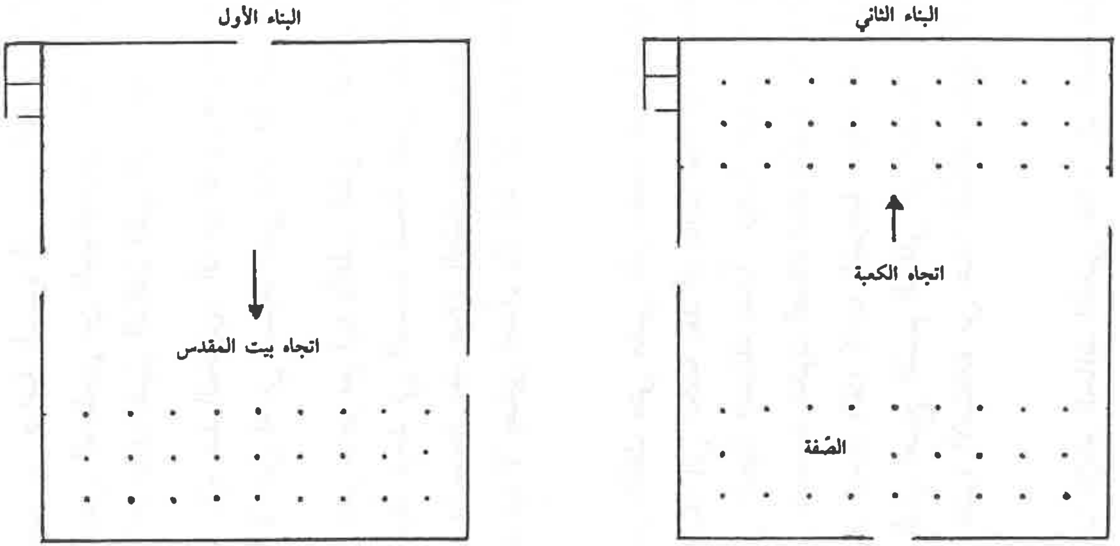

مسقط أفقي لبناء المسجد النبوي الشريف

عن كتاب (الفن الإسلامي) للمؤلف

وهكذا تجمع الأقوال كلها على أمر واحد، أنها مكان في مؤخر مسجد رسول الله ﷺ، ولكن ما هو أصل الفكرة وكيف حدثت؟.

والذي يظهر من دراسة السيرة أنه بعد قدوم المهاجرين وبناء المسجد، كان بعض المسلمين من المهاجرين يلجأون إلى النوم في المسجد، وربما كان ذلك لضيق المكان الذي أنزلوا فيه.

ففي حديث نافع عند البخاري، أن عبدالله بن عمر أخبره أنه كان ينام وهو شاب أعزب لا أهل له في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم(١).

وعبدالله بن عمر هاجر مع أبيه وأغلب الظن أن المكان الذي نزل فيه عمر كان مكاناً ضيقاً فوجد في المسجد فسحة يقضي ليله فيه، ولعل غيره كان يفعل ذلك. فالمسجد بعد صلاة العشاء وحتى صلاة الصبح يكون خالياً، ونوم إنسان فيه لا يضايق أحداً، ولا شك أن رسول الله ﷺ كان على علم بذلك..

واستمر الأمر كذلك حتى مضى عام ونصف على الهجرة عندما نزلت الآيات بتحويل القبلة إلى الكعبة بعد أن كانت تجاه بيت المقدس. أي أن القبلة تحولت إلى الجهة المقابلة تماماً. وهنا حدث أن بني أو سقف القسم الخلفي من المسجد لتكون الصلاة تجاه الكعبة، وترك القسم السابق على ما كان عليه، وعند ذلك كانت الفرصة مواتية لمن أراد النوم في المسجد القديم الذي أصبح القسم الخلفي من المسجد النبوي الشريف، ومن هنا نشأت فكرة الاستفادة من هذا المكان الذي أطلق عليه اسم الصفة(٢).

وقد قرر هذا الإمام الحافظ الذهبي فقال: إن القبلة قبل أن تتحول

---

(١) هذا لفظ البخاري برقم ٤٤٠، وهو عند مسلم برقم ٢٤٧٩.
(٢) انظر تفصيل بناء المسجد النبوي في كتاب «الفن الإسلامي التزام وإبداع» للمؤلف.

كانت في شمال المسجد، فلما حولت القبلة بقي حائط القبلة الأولى مكان أهل الصفة[1].

وعلى هذا فالصفة لم تأخذ وضعها كدار ضيافة إلا في نهاية هذه الفترة التي نتحدث عنها في هذا الباب.

أهل الصفة:

قال أبو هريرة: (وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد)[2].

إن المهاجرين الأول الذين هاجروا قبل النبي ﷺ أو معه أو بعده حتى نهاية الفترة الأولى قبل غزوة بدر، استطاع الأنصار أن يستضيفوهم في بيوتهم وأن يشاركوهم النفقة، ولكن فيما بعد كبر حجم المهاجرين مما لم يعد هناك قدرة للأنصار على استيعابهم..

قال ابن تيمية: ثم صار المهاجرون يكثرون بعد ذلك شيئاً بعد شيء، فإن الإسلام صار ينتشر والناس يدخلون فيه، ويكثر المهاجرون إلى المدينة من الفقراء والأغنياء، والآهلين والعزاب، فكان من لم يتيسر له مكان يأوي إليه يأوي إلى تلك الصفة في المسجد[3].

والذي يبدو أن المهاجر الذي يقدم إلى المدينة كان يلتقي بالرسول ﷺ، ثم يوجهه بعد ذلك إلى من يكفله فإن لم يجد فإنه يستقر في الصفة مؤقتاً ريثما يجد السبيل.

جاء في المسند عن عبادة بن الصامت قال: (كان رسول الله ﷺ يُشغَل، فإذا قدم رجل مهاجر على رسول الله ﷺ دفعه إلى رجل منا يعلمه القرآن. فدفع إلي رسول الله ﷺ رجلاً، وكان معي في البيت أعشيه عشاء أهل البيت، فكنت أقرئه القرآن.)[4].

---

(١) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ١/ ٣٧٠.

(٢) رواه البخاري برقم ٦٤٥٢.

(٣) الفتاوى ١١/ ٤٠ - ٤١. (٤) المسند ٥/ ٣٢٤.

وهكذا استضاف عبادة هذا الرجل في مبيته وطعامه.

وإذا كان القادم إلى المدينة له من يعرفه فيها نزل عليه، وإلا نزل مع أصحاب الصفة.

جاء في حديث طلحة بن عمرو ـ عند أحمد وابن حبان والحاكم ـ: (كان الرجل إذا قدم على النبي ﷺ، وكان له بالمدينة عريف نزل عليه، فإذا لم يكن له عريف نزل مع أصحاب الصفة)(١).

وفي رواية المسند: قال: أتيت المدينة وليس لي بها معرفة فنزلت في الصفة..(٢).

وقد كان عامة من نزل الصفة من العزاب الذين لا أهل لهم(٣).

كما كان عامتهم من المهاجرين، إذ لا حاجة للأنصار للنزول بها، فالمدينة بلدهم وفيها دورهم وعشائرهم. وهذا لا يمنع من نزولهم، ولكني لم أجد نصاً يدل على أن أنصارياً نزل بها.

أما ما جاء في الحديث المتفق عليه عن أنس في قصة إرسال النبي ﷺ سبعين رجلاً من الأنصار فيهم خال أنس «حرام» فليس هناك نص أنهم من أهل الصفة، وإنما كانوا يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفة وللفقراء(٤). فهم يساعدون أهل الصفة بعملهم هذا ليس أكثر.

---

(١) فتح الباري ٢٨٦/١١.

(٢) المسند ٤٨٧/٣.

(٣) ويبدو أن العزاب ـ قبل الصفة ـ كانوا ينزلون على سعد بن خيثمة، إذ كان عزباً لا أهل له، فكان العزاب من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين ينزلون في بيته، ولهذا سمي «بيت العزاب» كما ذكر ذلك الطبري ٣٨٢/٢ في تاريخه.

(٤) انظر نص الحديث في البخاري برقم ٤٠٩٠ وعند مسلم في كتاب الإمارة رقم ١٤٧.

نفقة أهل الصفة:

تبين لنا أن أهل الصفة ليسوا أناساً ثابتين لا يتغيرون، وأن المكث في الصفة إنما هو وضع اضطراري يلجأ إليه من به حاجة.

وبناء على ذلك، فلم يكن هناك مورد ثابت ينفق عليهم منه، وإنما كان ﷺ يؤمن ذلك بوسائل مختلفة..

وهذا أبو هريرة يبين لنا بعض ذلك فيقول: (وأهل الصفة أضياف الإسلام.. إذا أتته ﷺ صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها)(١).

وعن بشير بن الخصاصية قال: (أتيت رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام ثم قال لي: «ما اسمك؟» قلت: نذير، قال: «بل أنت بشير»، فأنزلني بالصفة فكان إذا أتته هدية أشركنا فيها، وإذا أتته صدقة صرفها إلينا)(٢).

وقد يلجأ ﷺ بعض الأحيان إلى توزيعهم على أصحابه، ففي حديث عبدالرحمٰن بن أبي بكر: (إن أصحاب الصفة كانوا أناساً فقراء، وإن النبي ﷺ قال مرة: «من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس ـ أو كما قال ـ وإن أبا بكر جاء بثلاثة، وانطلق النبي ﷺ بعشرة...)(٣).

وعن يعيش بن طخفة بن قيس الغفاري قال: (كان أبي من أصحاب الصفة، فأمر رسول الله ﷺ بهم، فجعل الرجل ينقلب بالرجل، والرجل بالرجلين، حتى بقيت خامس خمسة، فقال رسول الله ﷺ: «انطلقوا»، فانطلقنا معه إلى بيت عائشة..)(٤).

---

(١) رواه البخاري برقم ٦٤٥٢.
(٢) أخرجه ابن عساكر، كما في حياة الصحابة للكاندهولي ١/ ٨٠.
(٣) رواه البخاري برقم ٣٥٨١ ومسلم برقم ٢٠٥٧.
(٤) المسند ٣/ ٤٢٩.

وكان أصحاب حقول النخيل يساهمون في ذلك، فكان الرجل منهم يأتي بالقنو والقنوين.. يضع ذلك في المسجد عند أهل الصفة.. ولما كان بعضهم يأتي بالقنو فيه الشيص والحشف.. أنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ فكانوا بعد ذلك لا يأتي الواحد منهم إلا بصالح ما عنده[1].

وكان ﷺ يطلب من الناس إن يوجهوا صدقاتهم إليهم. فقد جاء في المسند أن فاطمة لما ولدت حسنا، طلب منها ﷺ أن تحلق رأسه وتتصدق بوزن شعره من فضة على أهل الصفة..[2].

وقد كان ﷺ يقدم حاجتهم على غيرها مما يطلب منه، فقد أتى بسبي مرة فأتته فاطمة رضي الله عنه تسأله خادماً، فكان جوابه ـ كما في المسند عند الإمام أحمد ـ: «والله لأعطيكم وأدع أهل الصفة تطوي بطونهم من الجوع لا أجد ما أنفق عليهم، ولكن أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم»[3].

وربما كان حال أصحاب الصفة في بعض الأوقات أحسن منها في أوقات أخرى، فذلك تابع للجو الاقتصادي العام الذي يكون في المدينة، ولذا فقد يسوء حالهم في حالات الشدة، وهذا ما وصفته بعض الأحاديث. ومنها:

عن أبي هريرة قال: (رأيت سبعين من أصحاب الصفة، ما منهم رجل عليه رداء، إما إزار وإما كساء، قد ربطوا في أعناقهم، فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده، كراهية أن ترى عورته)[4].

---

(١) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن.
(٢) المسند ٦/٣٩٠ ـ ٣٩١.
(٣) عن فتح الباري ٦/٢١٦، وأصل الحديث في البخاري برقم ٣١١٣.
(٤) رواه البخاري برقم ٤٤٢.

وإذا علمنا أن أبا هريرة إنما كان وصوله إلى المدينة بعد العام السابع من الهجرة، تبين لنا أن هذا الضيق قد استمر حتى وقت متأخر.

وعن فضالة بن عبيد: (أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى بالناس يخر رجال من قاماتهم في الصلاة من الخصاصة، وهم أصحاب الصفة، حتى تقول الأعراب: هؤلاء مجانين..)[1].

من أسباب ضيق العيش:

مرَّ فيما سبق ذكر بعض هذه الأسباب.. ونترك الحديث لأبي هريرة يحدثنا عن جوانب أخرى من هذا الموضوع:

أخرج محمد بن سعد عن مخرمة بن سليمان الوالبي، أخبرني الأعرج عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ كان يجوع، قلت لأبي هريرة: وكيف ذلك الجوع؟ قال: لكثرة من يغشاه وأضيافه، وقوم يلزمونه لذلك، فلا يأكل طعاماً أبداً إلا ومعه أصحابه وأهل الحاجة يُتتبعون من المسجد، فلما فتح الله خيبر اتسع الناس بعض الاتساع، وفي الأمر بعد ضيق، والمعاش شديد، هي بلاد ظَلَف[2] لا زرع فيها، إنما طعام أهلها التمر، وعلى ذلك أقاموا.

قال مخرمة: وكانت جفنة سعد تدور على رسول الله ﷺ منذ نزل المدينة في الهجرة إلى يوم توفي، وغير سعد بن عبادة من الأنصار يفعلون ذلك. فكان أصحاب رسول الله ﷺ كثيراً يتواسون، لكن الحقوق تكثر، والقدام يكثرون والبلاد ضيقة ليس فيها معاش، إنما تخرج ثمرتهم من ماء ثَمِر، يحمله الرجال على أكتافهم أو الإبل.. وربما أصاب نخلهم القشام[3] فيُذهِب ثمرتهم تلك السنة[4].

---

(١) رواه الترمذي في الزهد باب ٣٩ رقم الحديث ٢٤٧٣، وفي المسند ١٨/٦.

(٢) كل ما اشتد من الأمر فهو ظلف.

(٣) القشام: أن ينتفض ثمر النخل قبل أن يصير بلحاً.

(٤) طبقات ابن سعد ١/٤٠٩.

وهكذا يضع النص يدنا على الأسباب المهمة، فليس ذلك الضيق ناتجاً عن تقصير القادرين في العطاء، فالصحابة يقومون بواجب المواساة.. ولكن:

- تكاثر الحقوق والمسؤوليات.
- كثرة القادمين.
- ضيق المعاش في المدينة واعتماده على الزراعة التي قد لا تسلم في كل موسم..

إنها جوانب مهمة سببت هذا الضيق.

عمل أهل الصفة:

لا نستطيع أن نقول: ما هو عملهم؟ بمعنى المهنة أو الصنعة أو العمل الذي يكون سبباً لمورد رزقهم. لأن الصفة كانت مكان إقامة مؤقتة، فإذا وجد الواحد منهم عملاً أو مأوى خارجها.. غادرها ولم يستمر فيها.

قال أبو نعيم: كان عدد أهل الصفة يختلف بحسب اختلاف الحال، فربما اجتمعوا فكثروا، وربما تفرقوا إما لغزو، أو سفر، أو استغناء فقلوا[1].

وقال ابن تيمية: لم يكن جميع أهل الصفة يجتمعون في وقت واحد، بل منهم من يتأهل، أو ينتقل إلى مكان آخر يتيسر له.. فهي مأوى فقراء المهاجرين، فمن تأهل منهم أو سافر أو خرج غازياً خرج منها[2].

وإذن فمن وجد غنى بعمل أو زواج أو غير ذلك خرج منها..

ولذا يحسن أن نطرح السؤال بشكل آخر، فنقول: كيف كانوا يقضون وقتهم؟ وفي الإجابة عليه نقول:

إن غالب الذين يستقرون في الصفة مؤقتاً، هم من المهاجرين الجدد، وبعضهم ربما كان جديداً على الإسلام، فكان بحاجة إلى تعلم

(١) فتح الباري ١١/٢٨٧ - ٢٨٨.
(٢) الفتاوى ١١/٤١ و٨١.

القرآن وأحكام الشرع، ولذا كان جل وقتهم بين تدارس للقرآن، أو تعلم له يقوم بذلك الرسول ﷺ أو من يوكل إليه ذلك، كما كان ﷺ يجلس إليهم ويذكرهم ويعظهم ويرفع من همتهم، كل ذلك قد وردت به النصوص:

عن عمرو بن أوس، أخبر أن أباه أوساً أخبره قال: (إنا لقعود عند رسول الله ﷺ في الصفة، وهو يقص علينا ويذكرنا..)[1].

وعن عقبة بن عامر الجهني يقول: (خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً، ونحن في الصفة، فقال: «أيكم يحب أن يغدوا إلى بطحان[2]، أو إلى العقيق[3] فيأتي منه بناقتين كوْماوَيْن[4] في غير إثم ولا قطع رحم؟» فقلنا: يا رسول الله، نحب ذلك، قال: «أفلا يغدوا أحدكم إلى المسجد فيَعْلَم أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خير له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع. ومن أعدادهن من الإبل»)[5].

وفي حديث فضالة بن عبيد السابق: .. فإذا صلى رسول الله ﷺ انصرف إليهم - أي أهل الصفة - فقال: «لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة»[6].

وعن عبادة بن الصامت قال: (علمت ناساً من أهل الصفة الكتابة والقرآن)[7].

وهكذا كانوا يقضون وقتهم.. فإذا حضرت سرية أو غزوة خرجوا فيها أو خرج القادر منهم إلى الجهاد..

---

(١) المسند ٨/٤.
(٢) اسم موضع قرب المدينة.
(٣) اسم واد بالمدينة.
(٤) الكوماء من الإبل: العظيمة السنام،
(٥) رواه أحمد في المسند ١٥٤/٤ ومسلم برقم ٨٠٣.
(٦) المسند ١٨/٦ والترمذي في الزهد باب ٣٩ برقم ٢٤٧٣ وقال: حديث حسن صحيح.
(٧) المسند ٣١٥/٥.

قال الإمام الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ..﴾(1): نزلت في فقراء المهاجرين. وهم أصحاب الصفة.. وكانوا ملازمين المسجد ويتعلمون القرآن، ويخرجون في كل غزوة.

ولما كان مكوث أهل الصفة فيها مكوثاً اضطرارياً، وكان جل الإنفاق عليهم من باب الصدقات، فإنه لا يسمح لأحدهم أن يدخر مالاً ولو قليلاً، بل عليه أن ينفقه على نفسه وزملائه، أو أن يغادر الصفة إذا كان هذا المال كافياً للاستغناء عن الإقامة في الصفة.. وهذا ما يوضح لنا النصين التاليين:

عن علي رضي الله عنه قال: (مات رجل من أهل الصفة، وترك دينارين أو درهمين، فقال رسول الله ﷺ: «كيتان، صلوا على صاحبكم»)(2).

وعن أبي أمامة: (أن رجلاً من أهل الصفة توفي وترك ديناراً، فقال رسول الله ﷺ: «له كية»، ثم توفي آخر فترك دينارين، فقال ﷺ: «كيتان»)(3).

إيضاح وبيان:

إن الإنسان ليعجب وهو يقرأ بعض الأحاديث التي تصف فقر أهل الصفة، ويتساءل كيف استطاعوا الصبر على ذلك؟.

وقبل الإجابة أحب أن أنوِّه ببعض الأمور التي قد تغيب عن ذهن القارىء الكريم:

١ ــ الصفة ليست مكان إقامة دائمة، فالذين وجدوا فيها في يوم، ربما لم يكونوا فيها في اليوم الذي قبله، أو ربما لن يستمروا فيها إلى اليوم

(1) سورة البقرة: الآية ٢٧٣. (2) المسند ١/١٠١.
(3) المسند ٥/٢٥٢.

الذي يليه. وهذا يعني أن تلك الشدة كانت مؤقتة كمحطة في طريق المسافر ريثما يستقر، وهذه أمور يتحملها الناس عادة.

٢ ـ هذه الحال من الشدة ليست جديدة على حياة الفرد العربي، الذي تعود على قسوة الجوع في كثير من أوقاته، بل كان في بعض الأحيان يبلغ من شدته أن مسمى الجوع لا ينطبق عليه، وهذا ما قاله المغيرة بن شعبة ليزدجرد في مقابلته له قبل معركة القادسية، قال: فأما ما ذكرت من سوء الحال، فما كان أسوأ حالاً منا، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع، كنا نأكل الخنافس والجعلان.. ونرى ذلك طعامنا..[1].

وإذن فالعرب قد تعودوا قسوة العيش وشدته، فليس هذا الوضع جديداً عليهم.

٣ ـ إن كثيراً من الأحاديث المتعلقة بالصفة هي من رواية أبي هريرة رضي الله عنه، الذي كان أكثر الناس ـ فيما يبدو ـ مكوثاً في الصفة، وهذه الأحاديث ليست كلها وصفاً لأناس بعينهم، لأنها تتحدث عن الصفة في أوقات مختلفة، ومعنى هذا أن ما أشار إليه حديث ما، من شدة العيش في الصفة، لا ينطبق على جميع من انتسب إليها، بل يتعلق بالفئة التي كانت وقتئذ.. وإذا كانت هذه الشدة المذكورة في الأحاديث موزعة على أناس عاشوا في أوقات مختلفة فذلك أمر محتمل.

يضاف إلى ذلك أن أبا هريرة قد طال مكثه في الصفة ـ فيما نعتقد ـ رغبة منه لا اضطراراً، فقد جاء إلى المدينة في وقت متأخر، في العام السابع بعد فتح خيبر.. وأحب أن يلازم الرسول ﷺ فيعوض ما فاته من الوقت، حرصاً منه على سماع أكبر قدر ممكن من حديثه ﷺ ومعرفة أحواله وتبركاً بخدمته ﷺ، وهذا لا يتوفر له إلا إذا كان قريباً من بيت النبي ﷺ، فكانت الصفة هي المكان الوحيد الذي يؤمن له ذلك.

ولنستمع إليه يوضح لنا ذلك:

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ٤٢/٧.

قال أبو هريرة: (إنكم تقولون إن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ، وتقولون: ما بال المهاجرين والأنصار لا يحدثون عن رسول الله ﷺ بمثل حديث أبي هريرة، وإن إخوتي من المهاجرين كان يشغلهم صفق الأسواق، وكنت ألزم رسول الله ﷺ على ملء بطني، فأشهد إذا غابوا، وأحفظ إذا نسوا، وكان يشغل إخوتي من الأنصار عمل أموالهم، وكنت أمرءاً مسكيناً من مساكين الصفة، أعي حين ينسون)(١).

وهكذا يوضح رضي الله عنه أنه فعل ذلك رغبة منه في ملازمة النبي ﷺ ثم إن أبا هريرة كان له سكن في المدينة، وهو المكان الذي تسكنه أمه، والتي طلب من النبي ﷺ أن يدعو لها بالهداية(٢).

ثم إن أبا هريرة لم يكن فقيراً معدماً، ففي أول يوم قدم فيه على النبي ﷺ في خيبر أسهم له ﷺ من الغنيمة.. كما أنه لما قدم كان معه عبد يخدمه كما ورد في الصحيح..(٣) وإذن فالذي أفقره هو إيثاره ملازمة النبي ﷺ واستماع أحاديثه.. وكان يستطيع الاستغناء عن الصفة لو أراد.. نقول بعد هذا:

إن الصحابة الذين مروا بالصفة في يوم من أيامهم فمكثوا فيها بعض الوقت كانوا يحتسبون ذلك عند الله تعالى، فهذا الجوع كان في سبيل الله تعالى، ومن أجل العقيدة التي يحملونها. ولعل الجوع هو أقل ما يقدم..

---

(١) رواه البخاري برقم ٢٠٤٧ واللفظ له، ومسلم برقم ٢٤٩٢.

(٢) جاء في الحديث الذي رواه مسلم برقم ٢٤٩١ ما خلاصته: أن أبا هريرة كان يدعو أمه إلى الإسلام وهي مشركة، فدعاها يوماً فأسمعته في النبي ﷺ ما يكره، فأتى النبي ﷺ وهو يبكي وطلب منه الدعاء لها، وبعد الدعاء رجع إليها فوجدها قد أسلمت..
وهذا يعني أنها كانت مصاحبة له في المدينة.. وقد نزلت هي وإياه مع الدوسيين الذين كانوا بمعية الطفيل بن عمرو الدوسي في حرة الدَّجَّاج، كما في طبقات ابن سعد ١/٣٥٣.

(٣) رواه البخاري برقم ٢٥٣٠.

ثم إن قدوتهم ـ الرسول ﷺ ـ لم يكن أحسن حالاً منهم، وهم يعلمون حقيقة عيشه، فهم على مقربة منه، لا يفصلهم عن بابه إلا بضع خطوات، وإذا كان ﷺ يجوع وهو رسول الله، فما بالهم لا يصبِّرون أنفسهم ولهم فيه الأسوة كل الأسوة؟!.

نهاية دور الصفة:

ليس هناك نص ـ فيما أعلم ـ يحدد التاريخ الذي انتهى فيه دور الصفة كدار ضيافة مؤقتة، اللهم سوى ما جاء عند ابن سعد من قوله: «حتى جاء الله بالغنى»(1) وهذا القول وما شابهه، لا يحدد وقتاً معيناً.

وكان يغلب على ظني أن دورها انتهى بفتح مكة، ذلك أن المصدر الرئيسي لروادها هم المهاجرون، وقد أنهى فتح مكة الهجرة فقال ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح»، لكني وجدت بعد ذلك نصاً يدل على استمرارها بعد الفتح..

فقد أخرج ابن عساكر (١٠٥/١) عن ابن عباس قال: (جئت رسول الله ﷺ بعد خروجه من الطائف بستة أشهر، ثم أمره الله بغزوة تبوك، وهي التي ذكر الله في ساعة العسرة، وذلك في حرّ شديد، وقد كثر النفاق، وكثر أصحاب الصفة..)(2).

ولعل كثرة أصحاب الصفة في تبوك كان نتيجة لتجمع القبائل حول المدينة للإنطلاق إلى تبوك، وهذا هو المرجح، ولم يكن كما سبق ناتجاً عن الهجرة.

ومهما يكن من أمر فقد استمرت الصفة حتى بعد الفتح إذن، حتى جاء الله بالغنى كما قال ابن سعد.

وربما كان الغنى هو المال الذي ورد إلى المدينة من جزية البحرين،

---

(١) طبقات ابن سعد ٢٥٥/١.

(٢) حياة الصحابة للكاندهلوي ٤١٧/١.

فقد كان مالاً عظيماً..[1] وقد وزعه ﷺ بكامله، ولم نجد لأهل الصفة ذكر في توزيعه، مما يدل على أن الصفة كانت خالية يومئذ وقد كان وصول هذا المال قبل حجة الوداع بقليل.

وأما عدد أصحاب الصفة، فليس بين أيدينا إحصاء دقيق لذلك، وإنما هي أقوال مبناها على التخمين، فقال بعضهم: هم أربعمائة، وقال أبو عبدالرحمٰن السلمي: هم نحو من ستمائة أو سبعمائة..

وكانوا ـ كما قال ابن تيمية ـ يقلون تارة ويكثرون أخرى، فتارة يكونون عشرة أو أقل، وتارة يكون عشرين وثلاثين وأكثر، وتارة يكونون ستين وسبعين[2].

الخطأ الفادح:

استدل بعضهم بحال أهل الصفة على مشروعية مسلك بعض المنحرفين من المتصوفة، من حيث ترك العمل والإخلاد إلى الراحة والكسل، والمكوث في الزوايا والتكايا، بحجة التوكل.

وننقل بعض هذه الأقوال:

---

(١) جاء في تفسير ابن كثير عند الآية ٧٠ من سورة الأنفال:
أخرج البيهقي عن أنس بن مالك قال: «أتي رسول الله ﷺ بمال من البحرين فقال: انثروه في مسجدي، قال: وكان أكثر مال أتي به رسول الله ﷺ، فخرج إلى الصلاة ولم يلتفت إليه، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه، فما كان يرى أحداً إلا أعطاه، إذ جاءه العباس، فقال: يا رسول الله أعطني فإني فاديت نفسي، وفاديت عقيلاً، فقال له رسول الله ﷺ: خذ، فحثا في ثوبه، ثم ذهب يقله فلم يستطع، فقال: مر بعضهم يرفعه إلي، قال: لا، قال: فارفعه أنت علي، قال: لا، فنثر منه ثم احتمله على كاهله ثم انطلق.. فما قام رسول الله ﷺ وثم منها درهم. وقد رواه البخاري في مواضع من صحيحه تعليقاً بصيغة الجزم. [وانظر زاد المعاد ٣/٦٩٢ في هذه الجزية].
أقول: فلو كان هناك أحد من أهل الصفة لم يسمح للعباس أن يأخذ ما أخذ.

(٢) الفتاوى ١١/٤١.

قال أبو عثمان سعيد بن أبي جعفر: إن الفقراء المتجردين من الصوفية، هم الذين ورثوا أهل الصفة في الجلوس في المساجد والرباط والتجرد وقلة التسبب، والناس ينكرون على الفقراء هذه الصفة، وهي السنة، لأن السنة في عرف الشرع ما أقره عليه السلام، أو عمله أو علمه، وكان عليه السلام يحسن إليهم ويؤنسهم، ولم يأمرهم بتكسب.

وقال المقريزي في الخطط: ولاتخاذ الربط والزوايا أصل من السنة، وهو أن النبي ﷺ اتخذ لفقراء الصحابة الذين لا يأوون إلى أهل ولا مال مكاناً في مسجده كانوا يقيمون به عرفوا بأهل الصفة.

وقال ابن ليون التجيبي: وفي الصحيح أن أهل الصفة لم يتسببوا، ولا اشتغلوا بغير الذكر والفكر والقعود في المسجد. وكان القراء يخدمونهم، والنبي ﷺ وأصحابه يطعمونهم. وقال لهم: أبشروا يا أهل الصفة.. فترك التسبب طريقة أقرها النبي ﷺ ولم يصح أنه أمرهم بالتسبب، وإنما أمرهم بالتوكل..[1].

أقول: وهذه الأقوال وما شابهها، كلها يجانبها الصواب، لأن قائليها لم يدرسوا وضع أهل الصفة دراسة مستفيضة كما فعلنا.. وإنما استوقفهم ظاهر نص من النصوص فوقفوا عنده ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث.

وليس من هدفنا في هذه الدراسة مناقشة هذه الأقوال والرد عليها، وإنما نلفت النظر إلى بعض الملاحظات:

* إذا كانت الأمر كما يقول هؤلاء، فلماذا لم يستمر أصحاب الصفة فيها حتى نهاية حياتهم. ولماذا غادروها بعد ذلك لينغمسوا في شؤون الحياة الدنيا؟.

* ثم إن كل النصوص تؤكد أن نزلاء الصفة كانوا من العزاب ومن

---

(١) عن نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية لعبدالحي الكتاني ١/٤٧٣ - ٤٧٨.

المهاجرين.. فهل معنى ذلك أن المتزوجين وكذلك الأنصار لم يكونوا متوكلين على الله؟ ولماذا المهاجرون فقط؟.

* ثم إن أبا هريرة، وهو أكثر ارتباطاً بالصفة من غيره، لماذا لم يستمر فيها، وخرج إلى الحياة، بل أصبح أميراً في بعض أيامه على البحرين في عهد عمر ولم يكن مخشوشناً في حياته ـ كما قال ابن سيرين ـ وكان يلبس ثوبين ممشقين.. وأخذ بأسباب الرفاهية[1].

* والخلاصة: إذا كانت حال أهل الصفة هي ذروة حال المؤمن، فلماذا لم تستمر الصفة حتى نهاية حياته ﷺ، بل انتهت قبل ذلك، ولو كانت عملاً إيمانياً لماذا لم تستمر في عهد الخلفاء الراشدين؟.

إنها جميعاً أسئلة لا تجد جواباً لدى الذين اتخذوا الصفة دليلاً على مسلك بعض المنحرفين من المتصوفة.

ثم إن أهل الصفة كانوا من المجاهدين في سبيل الله في ساحات القتال، كما وردت النصوص الكثيرة بذلك[2]، فأين هؤلاء من ذلك؟.

الخلاصة:

إن الصفة كما رأينا هي تدبير اقتصادي مؤقت، دعت إليه الظروف الصعبة التي عاشها المسلمون في المدينة، ذلك البلد الذي وصفنا اقتصاده فيما سبق.

وقد انتهى دورها حينما وسع الله على المسلمين..

وهي تدبير نبوي كريم، استطاع أن يحل به مشكلة اقتصادية ليست يسيرة..

---

(١) انظر ترجمته في الإصابة. وكذا في طبقات ابن سعد ٣٢٥/٤ وما بعدها.

(٢) ومن ذلك ما أخرجه ابن عساكر عن ابن عباس ـ وقد مرَّ بعضه ـ: «وإذا حضر غزو عمد المسلمون إليهم ـ إلى أهل الصفة ـ فاحتمل الرجلُ الرجلَ منهم أو ما شاء..» [انظر حياة الصحابة للكاندهلوي ٤١٧/١].

ومن ذلك قصة واثلة بن الأسقع يوم تبوك ـ وهو من أهل الصفة ـ كيف ذهب ينادي: من يحملني وله سهمي.. [انظر من معين السيرة للمؤلف ص ٤٨٧].

الفصل السادس

التربية في المرحلة الأولى

إن الخطوط العامة للتربية هي هي لا تتغير، وقد تحدثنا في القسم الأول من هذا الكتاب بالتفصيل عن الأركان والمسارات والسمات العامة للتربية.

والذي يحدث من الناحية العملية في بعض الأحيان أن تكون بعض الأركان أو بعض المسارات بحاجة إلى أن تكون في مكان الصدارة لشدة الحاجة إليها.

وقد يظن للوهلة الأولى أن المهاجرين كانوا في غاية الراحة من جراء ما يبذله إخوانهم الأنصار في سبيل تأمين راحتهم. وقد كانوا كذلك.

ولكن التعامل مع الجو الجديد كان بحاجة إلى جهد غير يسير حتى يتكامل الاطمئنان إليه والتواؤم معه..

وفي سبيل ذلك تبرز الحاجة ملحة إلى «الصبر» الذي هو العدة في التغلب على الصعاب.

- إن الإحساس بالغربة كان قوياً في البدء، وبدأ الحنين يدب في النفوس إلى الموطن الأول.. وقد رأينا حنين بلال..
- إن جو المدينة الموبوء الذي كان سبباً في مرض بعض الصحابة، كان عاملاً منغصاً أيضاً.
- بدأ الإيذاء يتسع نطاقه على أيدي المشركين من الأوس والخزرج ومن اليهود..

إزاء هذا كله لا بد من التواصي بالصبر..

جاء في سنن أبي داود: عن كعب بن مالك: (كان كعب بن الأشرف يهجو النبي ﷺ ويحرض عليه كفار قريش، وكان النبي ﷺ حين قدم المدينة، وأهلها أخلاط، منهم المسلمون، والمشركون يعبدون الأوثان، واليهود، وكانوا يؤذون النبي ﷺ وأصحابه، فأمر الله عز وجل نبيه بالصبر والعفو، ففيهم أنزل الله: ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ الآية..)[1].

والآية المشار إليها في الحديث هي قوله تعالى: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾[2].

قال ابن كثير: يقول تعالى للمؤمنين عند مقدمهم المدينة قبل وقعة بدر، مسلياً لهم عما ينالهم من الأذى من أهل الكتاب والمشركين وآمراً لهم بالصفح والصبر والعفو حتى يفرج الله فقال:

﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾[2].

ونعطي نموذجاً لإيذاء المشركين واليهود:

عن أسامة بن زيد: (أن رسول الله ﷺ ركب على حمار على قطيفة فدكية، وأردف أسامة بن زيد وراءه، يعود سعد بن عبادة، قبل وقعة بدر، قال: حتى مر بمجلس فيه عبدالله بن أُبي بن سلول، وذلك قبل أن يسلم عبدالله بن أبي، فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود والمسلمين، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت

(١) رواه أبو داود برقم ٣٠٠٠ باب كيف كان إخراج اليهود من المدينة.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٨٦.

المجلس عجاجة الدابة، خمر عبدالله بن أُبي أنفه بردائه، ثم قال: لا تغبروا علينا، فسلم رسول الله ﷺ عليهم، ثم وقف فنزل، فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن. فقال عبدالله بن أبي بن سلول: أيها المرء؛ إنه لا أحسن مما تقول، إن كان حقاً فلا تؤذينا[١] به في مجلسنا، ارجع إلى رحلك، فمن جاءك فاقصص عليه، فقال عبدالله بن رواحة: بلى يا رسول الله. فأغشنا به في مجالسنا، فإنا نحب ذلك، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم حتى سكنوا..)[٢].

وكان كعب بن الأشرف يشبب بنساء المسلمين..

وقد مرَّ بنا في الفصل الثالث من هذا الباب[٣] ما أثاره شاس بن قيس من مشاحنة بين الأوس والخزرج كادت تؤدي إلى وقوع القتال لولا تدخل الرسول صلى الله عليه وسلم.

والخلاصة:

إن التربية في هذه الفترة تطلبت جهوداً كبيرة في التأكيد على التحلي بالصبر، كما أنها تطلبت توعية وبياناً لما يحيكه الأعداء من دسائس، واحتاجت إلى معاناة للقضاء على التصرفات المتصلة بالجاهلية والقضاء على رواسبها.

كل هذا يضاف إلى الأعباء الأخرى في شتى الميادين، والتي كانت مطلوبة من النبي الكريم عليه الصلاة والسلام. وقد قاد بها أمته على أحسن وجه، فجزاه الله عنا وعن الإسلام خيراً.

---

(١) كذا في البخاري.

(٢) رواه البخاري برقم ٤٥٦٦.

(٣) في الصفحة (١٦١).

الباب الثاني
المرحلة الثانية
الكفاح الدّامي

تبـدأ هذه المرحلة من الثامن عشر من رمضان للسنة الثانية من الهجرة ـ أي عقب بدر مباشرة ـ وتنتهي في ذي القعدة من السنة السادسة عند الذهاب لعمرة الحديبية.

وتعد هذه المرحلة التي نتناول الحديث عنها في هذا الباب الفترة الحرجة من الحياة المدنية، فقد كانت هجمة الكفر عنيفة على الإسلام والمسلمين.

ومع ذلك فهي المرحلة التي كان لها ما بعدها:

ــ فقد حدث فيها تغير الخارطة السكانية للمدينة.

ــ كما تغيرت فيها خارطة القوى في الجزيرة العربية.

ــ وشهدت ميلاد الانحراف الاجتماعي «النفاق».

وسوف نتناول البحث في فصول متتابعة كما فعلنا في الباب الأول.

الفصل الأول

الوضع السياسي والعسكري

١

يوم الفرقان

وانتهت معركة بدر..

كان ذلك في يوم الجمعة السابع عشر من رمضان للعام الثاني من الهجرة. ذلكم هو يوم الفرقان.

جيش قوامه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، لم يخرج للقتال، ولم يستعد له، وجد نفسه فجأة في ميدان المعركة.

وجيش خرج قاصداً للقتال، متخذاً له العدة، أهبته على أتمها، قوامه ألف مقاتل..

وما هي إلا ساعة من زمن حتى انتهى كل شيء، وانتصرت القلة، وانهزمت الكثرة هزيمة منكرة..

كيف حدث هذا؟:

سؤال حيَّر المشركين من قريش وغيرها، كما فاجأ اليهود..

كل المعطيات الحسابية المادية كانت تعطي نتيجة أخرى غير ما حصل. ولذلك أصرَّ أبو جهل على خوض المعركة باعتبارها معركة مضمونة النتيجة. وهذا عمير بن وهب يؤكد هذه النتيجة فالقوم قليلو العدد والعُدد ولكنه يتوقع كثرة القتلى من الجانبين..

ولهذا لما وصل الخبر إلى قريش لم تصدق.. فقد وقف الحيسمان بن عبدالله الخزاعي، وكان أول من وصل إلى مكة، وقف يعدد القتلى.. حتى ظنه بعضهم قد فقد عقله..

ولما وصل الخبر إلى المدينة، وقد قدم به زيد بن حارثة وعبدالله بن رواحة، قال كعب بن الأشرف: أحق هذا؟ أترون محمداً قتل هؤلاء الذين يسمِّي هذان الرجلان؟ فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، والله لئن كان محمداً أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها.

والذي نريد الحديث عنه هو النتائج التي أسفر عنها هذا اللقاء، وخاصة أنه اللقاء الأول.

الآثار العامة لبدر:

كانت آثار يوم بدر عظيمة بعيدة المدى، حتى لنستطيع القول بأن ما حدث بعدها من أحداث إنما كان من آثارها ومن ذلك:

١ ـ **قوة المسلمين**: فقد برزت على واقع الأحداث هذه القوة التي لم يكن يحسب لها حساب، والتي عبر عنها أبو جهل بقوله: «إنهم أكلة جزور» وهذا يدل على استهانته بهم على الأقل من الناحية العددية.

٢ ـ **جرح قريش**: وكان الجرح الذي أصاب كبرياء قريش كبيراً جداً، حتى لم يصدقوا الخبر أول الأمر، ثم لما تبين لهم صدقه، وأنه لم يخل بيت من بيوت مكة من إصابة.. ناحت على قتلاها شهراً ثم انتهت حتى لا يشمت محمد ﷺ على حد زعمها، ولقد مات أبو لهب بعد تأكد الخبر بسبعة أيام كمداً وغماً، وحلف أبو سفيان ألا يمسَّ رأسه الماء حتى يثأر..

٣ ـ **خيبة أمل اليهود**: كان اليهود ينتظرون ويتوقعون خبر هزيمة المسلمين، ولما جاء الأمر على غير ما يشتهون، حزنوا، وبدى على وجوههم بعض ما كانت تكنه نفوسهم من الحقد والضغينة والكيد، ولقد رأينا بعض ذلك في كلمة كعب بن الأشرف حين بلغه الخبر..

٤ ـ **الإعلام**: لقد وصلت أنباء هذا الانتصار إلى كل أرجاء الجزيرة العربية وكان لهذا أثره في إحجام الذين كانوا يفكرون بالنيل من القوة الجديدة، هذا من جانب، ومن جانب آخر فقد بدأت منزلة قريش تتزعزع، فها هي قد فشلت في أول لقاء مع عظم حجم قوتها.. ولعل هذا الجرح في نفس قريش كان أكبر من فقدها من فقدته من قتلاها.. ولذا بدأت تفكر بالثأر لاستعادة مكانتها.

آثار بدر بالنسبة للمسلمين:

١ ـ تعد بدر بداية لعهد جديد، فقد كانت فرقاناً بين الحق والباطل، وكانت فرقاناً بين عهدين من تاريخ الحركة الإسلامية، عهد الصبر والمصابرة والتجمع والانتظار، وعهد القوة والحركة والمبادأة والاندفاع، كما يقول سيد قطب رحمه الله[(١)].

فقد صبر المسلمون على انتفاش الباطل طويلاً، وذاقوا مرارة ذلك على مدى سنوات غير قليلة وكان يوم بدر يوماً فاصلاً، كان إيذاناً بانتهاء تلك الفترة ليبدأ عهد جديد يحتاج إلى نوع آخر من الصبر والمصابرة في ميادين القتال وغيرها.

٢ ـ وبدأ واقع جديد تغيرت فيه الموازين، فقد رأى المسلمون من خلال الواقع العملي أن القوة المادية والعددية وحدها ليست هي عوامل النصر، وأن هناك عوامل غير منظورة، تلك هي الإيمان والآثار العديدة المترتبة عليه والمنبثة في شتى جوانب النفس الإنسانية.

٣ ـ السلطة الكاملة: كانت بيعة العقبة الثانية تنص على أن الأنصار يمنعون الرسول ﷺ مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم. ولم يكن فيها أن يخرج بهم إلى عدو.

---

(١) في ظلال القرآن ١٥٢٢/٣. أقول: ولهذا المعنى اعتبرنا بدراً بداية للمرحلة الثانية في تقسيمنا للحياة المدنية.

وقد كانت جميع السرايا قبل بدر وكذلك الغزوات قاصرة على المهاجرين، كما رأينا، فلما كانت الدعوة إلى بدر كانت على عجل فقد قال ﷺ: «إن لنا طلبة فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا» فجعل رجال يستأذنونه في ظهورهم في علو المدينة فقال: «لا، من كان ظهره حاضراً»(١).

وهكذا كانت الدعوة عامة لمن كان حاضراً من المهاجرين والأنصار، وكان الخروج من أجل العير، ثم تغير الموقف وأصبح المسلمون أمام النفير. وكان النبي ﷺ يتخوف أن لا ترى الأنصار وجوب مناصرته خارج المدينة.. فقال: «أشيروا عليَّ أيها الناس..».

وتكلم بعض المهاجرين.. ولكنه ﷺ كان يكرر قوله: «أشيروا عليَّ أيها الناس»، فلما كرر قوله، قال سعد بن معاذ:

ـ و الله لكانك تريدنا يا رسول الله.

ـ قال: «أجل».

ـ قال: (قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوناً غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك، فسر على بركة الله).

فسرَّ ﷺ بقول سعد ونشطه ما سمع منه..

لم تكن كلمات سعد بن معاذ موافقة على الاشتراك في المعركة وحسب، وإنما كانت تعبيراً عن حقيقة مهمة، وهي أن الأنصار في إيمانهم مثلهم مثل المهاجرين، لا يحده اتفاق أو معاهدة، وإنما هو التصديق

(١) رواه مسلم، انظر جامع الأصول برقم ٦٠١٤.

المطلق والطاعة لله ولرسوله، ويستطيع ﷺ أن يأمر ـ بعد الآن ـ بما أراد دون حساب لما قد تفسَّر به بعض نصوص البيعة، فقد تجاوز الأنصار هذا الحاجز.. فهو الإيمان غير المشروط.

وهكذا توثق الرسول ﷺ من استكمال سلطته، لا فرق بين الأنصار والمهاجرين وكان هذا أيضاً بداية عهد جديد في ميدان الجهاد..

إن الانتصار في بدر، لا يعني اطمئنان المسلمين إلى قوتهم وعدم المبالاة، فقد فتح هذا النصر الأعين عليهم، من قريش وغيرها على أخذ الحيطة والاستعداد للقائهم في المرات القادمة، ولذلك كان على المسلمين أن يكونوا على بصيرة من أمرهم، وأن يكون استعدادهم تاماً لكل طارىء يستجد على الساحة.

ولهذا كانت عيون المسلمين مبثوثة في كل مكان تستطلع الأخبار.

ـ وبلغه ﷺ تجمع بني سليم وغطفان على ماء يقال له الكدر، يريدون المدينة فخرج في مائتي رجل فباغتهم.. وهربوا تاركين نعمهم.

ـ ثم بلغه تجمع بني ثعلبة وبني محارب بقيادة دعثور بن الحارث، فخرج إليهم في أربعمائة وخمسين رجلاً.. فهربوا.. وأقام ﷺ بنجد شهر صفر كله..

ـ ثم بلغه تجمع بني سليم.. فخرج في ثلاثمائة رجل حتى بلغ بحران. فوجدهم قد تفرقوا.

ـ ونقض بنو قينقاع من اليهود العهد، وانتقصوا المسلمين، وحاول ﷺ أن يذكرهم فكان أن أغلظوا الجواب وقالوا: يا محمد، إنك ترى أنا كقومك؟ لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس..

فحاصرهم ﷺ في حصنهم خمس عشرة ليلة.. ثم أجلاهم عن المدينة.

وهكذا كان على المسلمين أن يكونوا حذرين مما يحاك لهم، فقد تطلعت إليهم الأعين حسداً وحنقاً وكيداً، وأصبحوا محط الأنظار بغياً وعدواناً.

٢
غزوة أُحد

كان حرياً بقريش أن لا تسكت على تلك الهزيمة، وأن تحاول استعادة مكانتها، فقام أبناء الذين قتلوا في بدر من أمثال: عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية.. يطالبون أبا سفيان أن يمدهم بمال التجارة التي كانت سبباً لمعركة بدر..

وكان كعب بن الأشرف قد قدم مكة يبكي قتلى قريش ويحرض على حرب الرسول صلى الله عليه وسلم.

وجاء أيضاً من المدينة أبو عامر عبد عمرو ـ الفاسق ـ في بعض غلمان من الأوس يحرض قريشاً، ويعدهم بأن معه قوة تنتظره هناك..

واستشار النبي ﷺ أصحابه.. وكان رأي الأكثرية على الخروج إليهم..

وسار ﷺ إلى أُحد وفي الطريق رجع عبدالله بن أُبي بن سلول ـ وكان قد أسلم بعد بدر ـ ورجع معه ثلث الناس..

وتابع جيش المسلمين مسيره في سبعمائة رجل.. وُضع منهم خمسون من الرماة على الجبل لحماية ظهر المسلمين، وأمرهم ﷺ ألا يغادروا أماكنهم سواء أكانت لهم أم عليهم..

وجاء المشركون في ثلاثة آلاف مقاتل..

ودارت المعركة وانتصر المسلمون.. ثم خالف بعض الرماة أمر رسول الله ﷺ ونزلوا فالتف المشركون وقتلوا بقية الرماة وأصاب المسلمين ما أصابهم، وأصيب ﷺ بجراح..

وعاد جيش المشركين أدراجه إلى مكة، ثم تذكروا أثناء الطريق أنهم لم يفعلوا شيئاً يذكر، وأن الرسول ﷺ ما زال على قيد الحياة.. وفكروا بالعودة ثانية، ولكن قطع عليهم هذا التفكير ما بلغهم من أن الرسول ﷺ في أعقابهم وقد بلغ حمراء الأسد..

* * *

انتصر المسلمون في أُحد، ثم ذهب النصر من أيديهم لخلل يسير وهو عدم انضباط بعض الرماة بالأوامر التي صدرت إليهم..

وكان لهذا الوضع الجديد آثاره على جميع الأصعدة..

فقد كان فرح اليهود واضحاً لم يستطيعوا إخفاءه..

وقد كانت شماتة عبدالله بن أُبي بن سلول وجماعته واضحة لا يخفيها ذلك التظاهر المتصنع بالحزن والأسى..

وبدأ التطاول على المسلمين داخلياً وخارجياً . فهاهم اليهود يستغلون الفرصة لتضخيم انتصار قريش، وإظهار المسلمين بمظر الضعف والوهن، وقالوا: ما محمد إلا طالب ملك، ما أصيب نبي قط في بدنه وفي أصحابه.

ومن الناحية الخارجية فقد بدأت تظهر مطامع بعض مشركي العرب في أنحاء الجزيرة بالمدينة، وخاصة بعد سماعهم قصة ذلك الانتصار المضخم..

ـ فهذا عامر بن الطفيل العامري جاء إلى المدينة يطلب من الرسول ﷺ أن يقاسمه الملك؟!.

ـ كان يوم أحد يوم النصف من شوال من العام الثالث للهجرة، وبعد انتهاء موسم الحج بلغ النبي أن طلحة بن خويلد الأسدي قد جمع حلفاء بني أسد بقصد حربه ﷺ، فبعث له أبا سلمة في مائة وخمسين من الأنصار والمهاجرين.. فلما انتهوا إليهم تفرقوا..

ـ وفي شهر محرم جمع خالد بن سفيان الهذلي جموعه يريد المدينة.. فأرسل ﷺ عبدالله بن أنيس.. فقتله..

ولما تبين للمشركين يقظة النبي ﷺ ومعرفته بما يجري من حوله لجأ المشركون إلى الخديعة.. فكانت قصة يوم الرجيع، وقصة بئر معونة، اللتين أصيب بهما من أصيب من المسلمين غدراً.

وفي السنة الرابعة خرج ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دية رجلين ـ وفقاً للاتفاق المبرم ـ فتظاهروا بتلبية طلبه ثم عمدوا إلى صخرة وأرادوا إلقاءها عليه وقتله، فأطلعه الله على ذلك.. فحاصرهم ثم أجلاهم..

وهكذا تمر الأيام والمسلمون في جهاد دائم تفرضه عليهم الظروف المحيطة بهم..

٣
غزوة الأحزاب

ذهب بنو النضير إلى خيبر.. ثم انطلق زعماؤهم إلى قريش وغطفان.. يحرضونهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وسرَّت قريش لذلك وسارعت لتلبيته، وكذلك غطفان..

ووصل الخبر إلى رسول الله ﷺ واستشار أصحابه.. وكان حفر الخندق..

ووصل المشركون فوجدوا أنفسهم أمام الخندق.. وطال مكوثهم.. ثم استطاعوا إقناع قريظة بنقض العهد مع الرسول صلى الله عليه وسلم..

وكانت أياماً عصيبة بالنسبة للمسلمين ﴿.. وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ..﴾ ثم فرج الله عنهم بفضله ورحمته..

وغادرت الأحزاب مواقعها..

وكانت بعد ذلك تصفية الحساب مع بني قريظة جزاء خيانتهم.

* * *

كانت غزوة الأحزاب ذروة الخط البياني في هجوم المشركين على المدينة، وكانت كذلك نهاية له. فقد قال ﷺ بعد ذهاب الأحزاب: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا» وفي رواية: «الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم»(١).

وتنفس المسلمون الصعداء بعد الخندق، وأُتيح لهم بعد ذلك أن يجدوا شيئاً من الراحة ولو إلى مدة يسيرة.

- فبعد ستة أشهر من قريظة، خرج ﷺ يريد بني لحيان الذين غدروا بأصحاب الرجيع، وأظهر أنه يريد بلاد الشام، وذلك بقصد التمويه.. ولكنهم هربوا.. وأرسل فوارس إلى كراع الغميم لتسمع به قريش.

- وفي جمادى الأولى سنة ست من الهجرة بعث ﷺ زيد بن حارثة في مائة وسبعين رجلاً لاعتراض تجارة لقريش.. فأخذوها وأسروا ناساً ممن كان في العير.

- وفي شعبان سنة ست من الهجرة، بلغه ﷺ أن الحارث بن ضرار يجمع بني المصطلق لحربه، فأرسل إليه بريدة بن الحصيب، حيث تأكد من الخبر، ثم ندب ﷺ الناس وخرج إليهم وداهمهم وقتل مقاتلتهم..

- وبعث ﷺ أبا عبيدة بن الجراح في ثلاثمائة إلى سيف البحر يرصدون عيراً لقريش.

- كما كانت عيونه ﷺ ترصد تحركات اليهود في خيبر..

* * *

تلك هي الخطوط العريضة التي تبين لنا الحركة الجهادية والسياسية

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق.

فيما بين بدر والحديبية. تلك الحركة التي لم تهدأ، ولم تعرف الراحة في يوم من الأيام، وكان على المدينة أن تكون عيونها ساهرة في كل مكان في طول الجزيرة وعرضها، تتعرف ما يدور فيها، فقد كانت هجمة الكفر شديدة قاسية.

وقد فوتت يقظة المسلمين على المشركين الكثير من الخطط التي كانت قد أعدت للنيل منهم، والغدر بهم.

وقد تميزت خطته ﷺ في الأحداث التي وقعت في هذه الفترة بسرعة المبادرة، ومباغتة أعدائه، وعدم إتاحته الفرصة لهم للبدء بتنفيذ ما يريدون وفي هذا ما فيه من صيانة لطاقات المسلمين، والحفاظ عليها.. كما أنه كان مرهباً لأعداء المسلمين.

الفصل الثاني

الوضع السكاني
في المرحلة الثانية

تغير الخارطة السكانية:

شهدت المدينة خلال هذه الفترة التي تزيد على أربع سنوات قليلاً تغيراً جذرياً في الخارطة السكانية.

وقد تم ذلك على ثلاث مراحل:

فبعد غزوة بدر نقض بنو قينقاع من اليهود عهدهم.. وبعد حصارهم وشفاعة عبدالله بن أبي بن سلول لهم ـ وكان حليفاً لهم ـ تم إجلاؤهم من المدينة، فذهبوا إلى أذرعات من أرض الشام.

وبعد غزوة أُحد، وفي شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة، غدر بنو النضير بالنبي ﷺ وحاولوا قتله، ولكن الله أعلمه بذلك.. فحاصرهم.. ثم سألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم، ولهم ما حملت إبلهم من الأموال.. وتم ذلك، فخرجوا إلى خيبر، وبعضهم إلى الشام.

وشارك بنو قريظة في غزوة الخندق في صف المشركين، ونقضوا العهد أثناء هذه المعركة، مما كان له أسوأ الأثر على وضع المسلمين العسكري.. وكان لا بد من عقوبتهم بعد الخندق وقد تم ذلك.

وهكذا ومع مطلع شهر ذي القعدة من السنة الخامسة للهجرة. كانت المدينة قد خلت من قبائل اليهود..

هذا الأمر كان له الأثر الكبير في الوضع السكاني للمدينة، فقد كان اليهود مع المشركين من الأوس والخزرج يشكلون نسبة غير قليلة بالنسبة لمجموع السكان، أما الآن وبعد خلو المدينة من قبائل اليهود، فقد أصبح المسلمون هم الغالبية العظمى من السكان، وأصبح المشركون ـ الذين تحولوا إلى منافقين ـ أقلية ضئيلة العدد.

المهاجرون:

وقد وفد على المدينة خلال هذه الفترة عدد من المهاجرين، بعضهم من سكان مكة ممن كان حبس أو منع من الهجرة، وبعضهم من غير مكة..

* فقد انحاز عبدالله بن سهيل بن عمرو إلى صف المسلمين قبل معركة بدر وكان خرج مع المشركين.. وكان من أصحاب بدر رضي الله عنهم.

* وهذا سلمة بن الأكوع الأسلمي، يأتي مهاجراً إلى المدينة ـ كما يقول عن نفسه ـ وترك أهله وماله وعمل أجيراً عند طلحة بن عبيد الله[١]، كان ذلك في السنة الرابعة من الهجرة.

* وقال عبدالله بن أبي أوفى: كانت أسلم ثمن المهاجرين الذين شاركوا في بيعة الرضوان[٢].

قال في الفتح: ولم أعرف عدد من كان بها من المهاجرين خاصة، ليعرف عدد الأسلميين، إلا أن الواقدي جزم بأنه كان مع النبي ﷺ في غزوة الحديبية من أسلم مائة رجل[٣].

وهذا يعني أن الذين شاركوا في بيعة الرضوان من أسلم كانوا قد

---

(١) رواه مسلم، رقم الحديث ١٨٠٧.
(٢) رواه البخاري برقم ٤١٥٥ ومسلم برقم ١٨٥٧.
(٣) انظر فتح الباري ٤٤٤/٧.

هاجروا قبل ذلك إلى المدينة واستقروا فيها، ثم لما خرج ﷺ خرجوا معه.

* وربما فر بعض المسجونين في مكة، وربما التحق مهاجرون آخرون..

وهذا يعني أن الكثافة السكانية المسلمة بدأت عملياً تستقر في المدينة وفي مقابل ذلك يهون شأن المنافقين الذين ظلوا على كفرهم.

الفصل الثالث

حركة الدعوة
في المرحلة الثانية

لا شك بأن انتصار المسلمين في بدر كان له أثره الكبير في المدينة، وإن بعض المشركين من الأوس والخزرج قد أعلنوا إسلامهم إيماناً وعقيدة وتصديقاً ولكن بعضهم الآخر تظاهر بالإسلام وهم الذين عرفوا فيما بعد بالمنافقين.

ويحسن بنا أن نعطي صورة عن النفاق في هذه الفترة من الزمن.

النفـاق:

ظل بعض الأوس والخزرج على شركهم بعد الهجرة المباركة، وقد امتنع بعض هؤلاء عن الإسلام بدافع الكبر، وقد كان لهم مكانتهم في قومهم.. وقد رأينا قصة واحد منهم وهو عبدالله بن أُبي بن سلول، وكيف كان موقفه من رسول الله صلى الله عليه وسلم..

ولما كانت بدر رأوا أن الأمر يسير في صالح المؤمنين، وأنهم إذا ظلوا على شركهم سوف يفقدون مكانتهم في قومهم، عندها (قال ابن أُبي بن سلول، ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان: هذا أمر قد توجه، فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام فأسلموا)[1].

لم يكن أحد يدري أن إسلامهم لم يكن إسلاماً حقيقياً، وإنما كان تظاهراً بالإسلام، حتى مرت الأحداث فأوضحت ذلك.

(١) رواه البخاري برقم ٤٥٦٦.

كان أول ذلك حين حاصر النبي ﷺ بني قينقاع من اليهود ونـزلوا على حكمه فقام إليه عبدالله بن أُبي فقال: أحسن في موالي.. فأعرض عنه.. فأدخل يديه في جيب درع رسول الله، فقال له: أرسلني وغضب حتى رأوا لوجهه ﷺ ظللاً. ثم قال: «ويحك أرسلني»، قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي.. فقال ﷺ: «هم لك».

هذه الصورة من الإلحاح على الرسول ﷺ والأخذ بثوبه لم يحدث أن فعلها صحابي من قبل ولا من بعد، وهي تدل على عدم الاحترام والتقدير..

ولما كان يوم أُحد وخرج ﷺ في ألف من أصحابه.. فلما كانوا بين المدينة وأُحد رجع عبدالله بثلث الناس.. وقال: ما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس ورجع بمن تبعه. وحاول عبدالله بن عمرو بن حرام إقناعهم بالعدول عن رجوعهم ولكنهم استعصوا عليه..

وهذه الحادثة هي التي كشفت أمر عبدالله ومن معه، فقد كان قبل أُحد ـ حفاظاً منه على مكانته في قومه ـ إذا كان يوم الجمعة وجلس ﷺ ليخطب، قام عبدالله فقال: أيها الناس، هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم أكرمكم الله وأعزكم به، فانصروه وعزروه، واسمعوا له وأطيعوا، ثم يجلس.

فلما كان يوم الجمعة بعد أُحد، قام يفعل ما كان يفعله، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه، وقالوا: اجلس، أي عدو الله، لست لذلك بأهل، وقد صنعت ما صنعت. فخرج يتخطى رقاب الناس..

والذي يبدو: أنه لم يكن جميع الذين رجعوا معه من المنافقين، وإنما كانوا جميعاً من المسلمين الجدد الذين أسلموا بعد بدر، وكان بعضهم لا يعرف ما ينبغي عليه تجاه النبي ﷺ من الطاعة والتوقير.. ولكنهم لما اكتشفوا انحراف عبدالله بن أُبي.. وذلك بعد نزول الآيات في فضح أمره.. عادوا إلى الصواب.. بينما استمر أتباعه على سيرتهم..

وقد كانت مواقفهم بعد ذلك تنطلق من منطق الكفر لا من منطق الإيمان، فلما حاصر ﷺ بني النضير، أرسل إليهم عبدالله بن أُبي: أن أثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم..

وفي يوم الخندق، والمسلمون في الموقف الحرج، كان المنافقون يشككون في شخصية الرسول ﷺ.. وقد فصلت سورة الأحزاب موقفهم السيىء وبينت ما كانت تكنه نفوسهم..

ولم يتركوا بعد ذلك مناسبة للنيل من الرسول ﷺ وأصحابه إلا وفعلوها.. مما يطول ذكره..

هذا المسلك المنحرف من المنافقين قد كلف الدعوة جهداً كبيراً، يبذل في غير طائل، سوى الحفاظ على وحدة صف المؤمنين، وعدم إتاحة الفرصة للمنافقين لإيجاد الثغرات، وخلخلة الصف.

وكمثال على ذلك. نسوق ما حدث في غزوة بني المصطلق:

بعد انتهاء الغزوة، وفي طريق العودة، اختصم غلام لعمر بن الخطاب مع غلام لبني عوف من الخزرج، فاقتتلا، فصرخ غلام بني عوف: يا معشر الأنصار، وصرخ الآخر: يا معشر المهاجرين، فغضب عبدالله بن أُبي بن سلول، وعنده رهط من قومه فيهم: زيد بن أرقم، غلام حدث، فقال:

أوقد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أَعُدُّنا وجلابيب[1] قريش إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم:

هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

---

(١) كان لقباً للمهاجرين، لقبهم به المشركون، بسبب ما كانوا يلبسونه من الأزر الغليظة.

فسمع ذلك زيد بن أرقم، فمشى به إلى رسول الله ﷺ، وعنده عمر بن الخطاب، فقال: مُر به عبَّاد بن بشر فليقتله، فقال له رسول الله ﷺ: «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس إن محمداً يقتل أصحابه، لا ولكن أذن بالرحيل»، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس.

وجاء عبدالله بن أُبي يعتذر ويحلف أنه ما قال.. وقال بعض الأنصار، عسى أن يكون الغلام قد أوهم..

وجاء أسيد بن حضير إلى النبي ﷺ فحياه بتحية النبوة، ثم قال: يا نبي الله، والله لقد رحتَ في ساعة منكرة، ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول الله ﷺ: «أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟» قال: وأي صاحب يا رسول الله؟ قال: «عبدالله بن أُبي»، قال: وما قال؟ قال: «زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل». قال: فأنت يا رسول الله والله تخرجه منها إن شئت، هو والله الذليل، وأنت العزيز..

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس، يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مسَّ الأرض فوقعوا نياماً.

وإنما فعل ذلك ﷺ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس..

ونزلت سورة «المنافقون» تبين صدق زيد بن أرقم، ومما جاء فيها قوله تعالى:

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۞ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

---

(١) سورة المنافقون: الآيتان ٧ ـ ٨.

كانت تلك الحادثة بداية انحداره الاجتماعي، فقد انكشف أمره بالنسبة للمؤمنين الصادقين من قومه. فكان بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويعنفونه.

وفي أواخر الطريق - طريق العودة من غزوة بني المصطلق - كانت قصة تخلف عائشة رضي الله عنها، وحديث الإفك الذي صاغه عبدالله بن أبي وروج له جماعته من المنافقين..

ثم جاء القرآن الكريم بعد شهر ليثبت براءة عائشة رضي الله عنها..

وهكذا كان المنافقون يشغلون المسلمين بإيذائهم وسخريتهم وكذبهم وقد تحمل المسلمون الشيء الكثير، وذلك بفضل تربية الصبر التي كان يوجههم إليها صلى الله عليه وسلم.

هذه الأحداث لا شك أنها كانت تأخذ شيئاً غير يسير من جهد المؤمنين وتفكيرهم الذي كان ينبغي أن يكون مصروفاً كله لأمر الدعوة.

ولكن هذه الأمور كانت ضرورية من حيث تربية الجماعة الأولى، لتعيش الدعوة في واقع عملي فيه كل المنغصات الداخلية والخارجية.. ليتعرف المؤمنون كيف يتعاملون مع تلك الظروف الصعبة.

حركة الدعوة خارج المدينة:

إن الأحداث المتتابعة - كما بيناها في اختصار شديد في الفصل الأول - حالت دون حمل الدعوة خارج المدينة وكان لحادثتي الغدر - يوم الرجيع، وبئر معونة - أثرهما أيضاً.

ونستطيع القول بأنه لم ينضم إلى الإسلام قبل غزوة الخندق إلا العدد اليسير، نستدل على ذلك من عدد جيش المسلمين في الظروف الصعبة التي مرت به.

فقد كانت عدد هذا الجيش يوم أُحد. سبعمائة مقاتل..

وكان عدده يوم الخندق ألف مقاتل[1] وبعض هذه الزيادة بين أُحد والخندق أتت من رجوع بعض الذين رجعوا مع عبدالله يوم أُحد إلى صوابهم، ومن كبر بعض الصغار الذين ردوا يوم أُحد وقبلوا يوم الخندق كعبدالله بن عمر بن الخطاب.

وكان عدد المسلمين يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة، وهي بعد الخندق، وقد استنفر لها الرسول ﷺ الناس للخروج إليها.

وإذن فقد كانت حركة الدعوة بطيئة، ولكن هذا لم يمنع من امتدادها إلى بعض الأماكن وخاصة بعد الخندق، حيث أمن الناس أن قريشاً لن تعيد الكرة بعد فشلها الذريع مع من صاحبها..

ونستطيع أن نسجل من حوادث امتداد الدعوة ما يلي:

* قدم وفد عبدالقيس على النبي ﷺ، قال: «من القوم؟» قالوا: ربيعة، قال: «مرحباً بالقوم غير خزايا ولا ندامى»، فقالوا يا رسول الله، إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام، وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر،

---

(1) ذهبت بعض الروايات ـ سيرة ابن هشام ٢/٢٢٠ وابن سعد ٢/٦٦ والبداية ٤/١٠٢ ـ إلى أن عدد المسلمين في غزوة الخندق كان ثلاثة آلاف.
وفي البخاري أنهم كانوا ألفاً (الحديث رقم ٤١٠٢) وهو الصواب لأمور:
ـ إن الوقت الفاصل بين أُحد والخندق لم يكن طويلاً يساعد على إسلام هذا العدد.
ـ ولو كان عددهم ثلاثة آلاف ما كانوا بحاجة إلى حفر الخندق فقد كانت نسبتهم إلى المشركين في بدر الثلث، وفي أُحد الربع..
ـ ثم إنه ﷺ استنفر الناس يوم خروجه إلى العمرة فلم يخرج إلا ألف وأربعمائة فأين البقية التي هي ألف وستمائة؟
ـ ثم إن المهمات التي وزعت ليلة الأحزاب تبين أن العدد كان ألفاً: فقد كان مع أسيد بن حضير مائتان في مهمة حراسة الخندق، وكان مع سلمة بن أسلم مائتا رجل، ومع زيد بن حارثة ثلاثمائة رجل ومهمتهما حراسة المدينة، وبقي مع الرسول ﷺ ثلاثمائة (شرح الزرقاني ٢/١١٨).
كل هذا يؤيد رواية البخاري.

فمرنا بأمر فصل نخبر به من وراءنا، وندخل به الجنة..[1].

فنص الحديث يدل على أن مجيئهم كان قبل صلح الحديبية، فهم قد أتوا في الشهر الحرام، وكانت مساكنهم بالبحرين وما والاها من أطراف العراق[2] وقد كانوا مسلمين هم وقومهم.

* وذكرنا في الفصل السابق وصول عدد من الأسلميين إلى المدينة، خلال هذه الفترة، وأن مائة منهم شاركوا في غزوة الحديبية.

* وقدم في العام الخامس في شهر رجب وفد كبير من مزينة، فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، ورجعوا إلى بلادهم[3].

* وقدم وفد من بني عبس، وذلك في وقت مبكر بعد الهجرة، فكانوا من المهاجرين الأولين، وعقد لهم ﷺ لواء بغية اعتراض عير لقريش..[4].

* وقدمت أشجع على رسول الله ﷺ عام الخندق.. فوادعهم. ثم أسلموا[5].

* وفي غزوة بني المصطلق.. حينما تزوج ﷺ جويرية بنت الحارث، وكان ذلك سبباً لإطلاق قومها، حيث قال المسلمون: أصهار رسول الله ﷺ.. ثم كان ذلك سبباً لإسلام بعض قومها..[6].

* وأخيراً نستطيع أن نستلهم آيات سورة الفتح في حديثها عن المخلفين من الأعراب أن بعض القبائل أسلمت بعد الخندق وقبل صلح الحديبية. وتمركزت حول المدينة، ومنها غفار وجهينة والديل وأشجع، كما سوف نرى ذلك في الباب القادم إن شاء الله تعالى.

نلاحظ مما سبق أن الدعوة أخذت طريقها إلى قلوب الناس، ولكن

---

(١) رواه البخاري برقم ٥٣.
(٢) فتح الباري ١/١٣٢.
(٣) طبقات ابن سعد ١/٢٩١.
(٤) طبقات ابن سعد ١/٢٩٥.
(٥) طبقات ابن سعد ١/٣٠٦.
(٦) سيرة ابن هشام ٢/٢٩٥ ـ ٢٩٦.

حركتها كانت بطيئة نسبياً، بسبب إنشغال الرسول ﷺ بالأحـداث التي مرَّ ذكرها، كما أن هناك عاملاً آخر كما ذكرنا من قبل هو انتظار الناس لما تؤول إليه الأمور بين مكة والمدينة.

ولا شك بأن الدعوة في مكة خلال هذه الفترة كانت متوقفة تماما.

الفصل الرابع

الوضع الاقتصادي
في المرحلة الثانية

تعد الحالة الاقتصادية للمدينة في هذه المرحلة حالة ضيق بدأ ينفرج شيئاً فشيئاً في آخرها.

فعلى الرغم مما بذله الأنصار، وهو شيء كبير، فقد كان حجم الهجرة أكبر من إمكاناتهم، وهذا ما دعى إلى إنشاء الصفة، كما أن الحروب والغزوات المتلاحقة والتي تحتاج إلى بذل مالي، كانت بدورها عاملاً من عوامل الضيق.

ولعل هذا يفسر لنا موقف الرسول ﷺ من وفد مزينة. كما ورد ذلك عند ابن سعد، قال: كان أول من وفد على رسول الله ﷺ من مضر أربعمائة من مزينة، وذلك في رجب سنة خمس، فجعل لهم رسول الله ﷺ الهجرة في دارهم، وقال: «أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم». فرجعوا إلى بلادهم[1].

فقد كان الوضع الاقتصادي في المدينة يومها لا يتحمل هذا العدد، ولذا ردهم إلى بلادهم... واحتسب لهم أجرهم بنيتهم وعزمهم على الهجرة.

---

(١) طبقات ابن سعد ١/٢٩١.

ليسوا عالة:

رأينا في الفصل السابق رأي المنافقين في المهاجرين، وقول عبدالله بن أبي: لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم. فهل كان المهاجرون عالة على الأنصار إلى هذه الدرجة التي يتخيلها ابن أبي؟

تحدثنا فيما سبق أن كثيراً من المهاجرين جلبوا معهم أموالهم، وأن كثيراً منهم كان غنياً بعمله كما فعل عبدالرحمن بن عوف.. وقد ساهم هؤلاء الأغنياء من المهاجرين بدور فعال في تحمل جزء كبير من نفقات إخوانهم.

وقد رأينا في فصل سابق كيف أن النبي ﷺ حين كان يوزع أهل الصفة حين يكثرون في أوقات الأزمات، كان أبو بكر وعمر وعثمان.. ومن كان على شاكلتهم يقومون بتحمل العبء الأكبر..

بل إن القادر منهم كان يتحمل نفقات أقربائه الضعفاء، يدلنا على ذلك أن أبا بكر رضي الله عنه كان قد أجرى نفقة دائمة على مسطح بن أثاثة، وكان ابن خالته، فلما اشترك في حديث الإفك حلف الصديق أن لا ينفعه أبداً، فأنزل الله تعالى:

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(1).

عندها قال أبو بكر: بلى والله إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا..

على أن المهاجر كان حين يصل إلى المدينة يحاول أن يفتش عن عمل، وألا يكون عالة على غيره فطبيعة الإسلام تأبى ذلك، وهذا ما حصل لكثير من المهاجرين ونضرب مثالاً على ذلك:

---

(1) سورة النور: الآية ٢٢.

جاء سلمة بن الأكوع إلى المدينة مهاجراً في السنة الرابعة للهجرة، فعمل عند طلحة بن عبيدالله، ولم يلتحق بأصحاب الصفة، قال عن نفسه: «وكنت تبيعاً لطلحة بن عبيدالله، أسقي فرسه، وأحسُّه، وأخدمه، وآكل من طعامه، وتركت أهلي ومالي مهاجراً إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم...»[1]..

بل لقد عمل المهاجرون في الزراعة، فها هو الزبير يعمل في الأرض التي أقطعه إياها رسول الله ﷺ من أموال بني النضير ويقوم بالسقاية وغيرها، وتقوم زوجه أسماء بنت أبي بكر الصديق بنقل النوى على رأسها من هذه الأرض وهي على ثلثي فرسخ من بيتها[2]...

هذا على الرغم من انتقاص العرب يومئذ للزارعة وخاصة أهل مكة[3]..

وقد جاء أبو موسى الأشعري يوماً فاستأذن على عمر ثلاثاً، ثم انصرف، فطلبه عمر بعد ذلك.. فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: إنا كنا نؤمر بهذا.. فقال عمر: خفي عليَّ هذا من أمر رسول الله ﷺ، ألهاني عنه الصفق في الأسواق[4].

وهكذا كان العمل يشغلهم بعض الأحيان حتى تخفى على بعضهم الأحكام الجزئية التي يتعامل بها يومياً.

وكان كل منهم يعمل وفق طاقته. فهذا صحابي فقير لا يجد أجر

---

(١) رواه مسلم برقم ١٨٠٧.

(٢) انظر البخاري رقم ٢٣٦٠ ومسلماً برقم ٢٣٥٧، وأما عمل أسماء وحملها النوى ففي البخاري برقم ٥٢٢٤ وعند مسلم برقم ٢١٨٢.

(٣) قال أبو جهل حين قتل: فلو غير أكار قتلني. كما رواه مسلم برقم ١٨٠٠. والأكار: المزارع.

(٤) رواه البخاري برقم ٢٠٦٢ ومسلم في كتاب الاستئذان برقم ٣٦.

الدكان التي يعمل فيها فيستأذن أسماء بنت أبي بكر في أن يبيع في ظل دارها فتأذن له[1]. .

وقد سبق أن لخص لنا أبو هريرة الحركة الدائمة في الأسواق من قبل المهاجرين بقوله: (إن إخوتي من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق)[2].

نسوق هذا كله لا لنرد على المنافقين، وإنما لنبين أن المهاجرين لم يلقوا بثقلهم كله على إخوانهم من الأنصار وقد أخذوا دورهم في ميادين العمل. .

انفراج الأزمة:

كان إجلاء بني النضير من اليهود إثر نقضهم العهد، في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة، وقد سألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح، ففعل، فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، فكان الرجل يهدم بيته ليأخذ بابه، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به[3].

أما بقية أموالهم فكانت مما أفاء الله على رسوله ﷺ، وكانت خالصة له كما ورد ذلك نصاً في سورة الحشر التي نزلت في بني النضير، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۞ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ

---

(١) رواه مسلم في كتاب السلام برقم ٣٥.
(٢) رواه البخاري برقم ٢٣٥٠ ومسلم برقم ٢٤٩٢.
(٣) سيرة ابن هشام ١٩١/٢.

دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[1].

فكانت هذه الغنيمة خالصة لرسول الله ﷺ ولهذا تصرف فيه ـ أي الفيء ـ كما يشاء، فرده على المسلمين في وجوه البر والمصالح التي ذكرها الله عز وجل في هذه الآيات.. كما قال ابن كثير[2].

وتوضح لنا الأحاديث كيف تصرف ﷺ بهذا الفيء: «فقد كان يحبس قوت أهله منه سنة، ثم يجعل ما بقي منه مجعل مال الله[3] عز وجل»[4].

وفي رواية: «كان ينفق على أهله نفقة سنة من مال بني النضير، ويجعل ما بقي في الكراع والسلاح»[5].

وقال ابن سعد: «كانت بنو النضير صفياً لرسول الله ﷺ خالصة له، حبساً لنوائبه، ولم يخمسها، ولم يسهم منها لأحد، وقد أعطى ناساً من أصحابه، ووسع في الناس منها..»[6].

وروى الحاكم في الإكليل عن أم العلاء قالت: (.. فلما غنم ﷺ بني النضير، دعا ثابت بن قيس فقال: «ادع لي قومك»، قال ثابت: الخزرج؟ فقال ﷺ: «الأنصار كلها»، فدعا له الأوس والخزرج:

فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم ذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين وإنزالهم إياهم في منازلهم وأموالهم، وأثرتهم على أنفسهم ثم قال: «إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله عليَّ من بني

---

(١) سورة الحشر: الآيتان ٦ ـ ٧.

(٢) تفسير ابن كثير عند الآيتين السابقتين.

(٣) أي في مصرف ما جعل عدة في سبيل الله من مصالح المسلمين.

(٤) رواه البخاري برقم ٥٣٥٧ ومسلم برقم ٥٠ من كتاب الجهاد واللفظ له.

(٥) أخرجه إسحاق بن راهويه عن الزهري كما في فتح الباري ٩/٥٠٣.

(٦) طبقات ابن سعد ٢/٥٨.

النضير، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في منازلكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم».

فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ: يا رسول الله، بل تقسم بين المهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا.

وقالت الأنصار: رضينا وسلمنا يا رسول الله.

فقال ﷺ: «اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار».

وقسم ما أفاء الله، وأعطى المهاجرين ولم يعط أحداً من الأنصار شيئاً، غير أبي دجانة، وسهل بن حنيف لحاجتهما[1].

قال البلاذري: وكان ﷺ يزرع تحت النخيل في أرضهم فيدخر من ذلك قوت أهله وأزواجه سنة، وما فضل جعله في الكراع والسلاح[2].

يتبين مما سبق أن فيء بني النضير اشتمل على الأرض والنخيل، والدور والمال، والسلاح..

فأما الدور والمال فقد وزعت على المهاجرين ورجلين فقيرين من الأنصار.

وأما السلاح فقد احتفظ به للحاجة..

وأما النخيل والأرض فقد احتفظ بها ﷺ لنفقة أهله، ثم يتصرف بالباقي حسب الحاجة..

وأما القوت الذي كان يحبسه لعياله لسنة فهو الشعير والتمر، فكان ﷺ يحبس ما يكفيهم من الموسم إلى الموسم، والموسم لا يكون في السنة إلا مرة واحدة. ومع ذلك ففي كثير من الأحيان كان يأخذ منه ويعطي لمن يَرِدُ

---

(١) شرح الزرقاني على المواهب ٢/٨٦.
(٢) المصدر السابق ٢/٨٦.

عليه من ذوي الحاجات ولذلك لما مات ﷺ كانت درعه مرهونة على شعير اقترضه قوتاً لأهله[1].

وأما جمعه ﷺ الأنصار وسؤالهم عن قسمة الأموال.. علماً بأنها فيء خاص له.. والأنصار يعلمون ذلك.. فذلك من الهدي النبوي الكريم في سياسة الأمور.

كانت الغاية من هذا التوزيع تخفيف العبء عن الأنصار، وهكذا انتقل المهاجرون إلى دور بني النضير، وأعيدت دور الأنصار إلى أصحابها، واستغنى بعض المهاجرين مما يمكن أن يقال فيه: إن الأزمة قد بدأت بالانفراج.

* * *

وكانت قصة غدر بني قريظة، وعقوبتهم في نهاية شهر ذي القعدة من السنة الخامسة للهجرة. وكانت هناك غنائم كبيرة وزعت بعد عزل الخمس على المجاهدين من المهاجرين والأنصار.

وقد جعل رسول الله ﷺ على الخمس «محمية بن جزء الزبيدي، فكان ﷺ يعتق منه ويهب منه، ويخدم منه من أراد..»[2].

ولا شك بأن أحوال كثير من المهاجرين قد تحسنت من الناحية الاقتصادية بعد توزيع غنائم قريظة، الأمر الذي استدعى مراجعة الحساب في شأن منائح الأنصار.

* * *

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (كان الرجل يجعل للنبي ﷺ النخلات من أرضه، حتى فتحت عليه قريظة والنضير، فجعل بعد ذلك يردُّ عليه ما كان أعطاه)[3].

---

(١) فتح الباري ٥٠٣/٩.
(٢) طبقات ابن سعد ٧٥/٢ وشرح الزرقاني على المواهب ١٣٧/٢.
(٣) رواه البخاري برقم ٣١٢٨ ومسلم برقم ٧١ من كتاب الجهاد.

وقد بينت ـ فيما مضى ـ أن منائح الأنصار كانت على نوعين، منائح من الثمار، ومنائح أخرى من النخيل كانت توضع تحت تصرف الرسول ﷺ يضعها حيث شاء.

أما وقد تحسنت أحوال المهاجرين فقد أمر الرسول الكريم برد هذه المنائح إلى أصحابها، والذي يبدو أن هذا الرد كان لمعظمها وبقي بعض ذلك حتى كان فتح خيبر، حيث كانت الإعادة شاملة.

اقتصاد الأزمات:

للضرورة قوانينها الخاصة التي لا تطبق في الأحوال العادية، وهذا الاتجاه واضح كل الوضوح في المنهج الإسلامي..

١ ـ لهذا رأينا كيف خصَّ ﷺ المهاجرين بفيء بني النضير.

٢ ـ ومن هذا المنطلق كان تصرف أبي عبيدة بن الجراح قائد غزوة سيف البحر التي كانت في آخر هذه الفترة التي نتحدث عنها في هذا الباب.

روى البخاري عن جابر رضي الله عنه قال: (بعث رسول الله ﷺ بعثا قِبَل الساحل وأمَّر عليهم أبا عبيدة بن الجراح وهم ثلاثمائة، فخرجنا وكنا ببعض الطريق فني الزاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش فجمع، فكان مِزْوَدَي تمرٍ، فكان يقوتنا كل يوم قليلاً قليلاً، حتى فني، فلم يكن يصيبنا إلا تمرة تمرة.. فقلت: ما تغني عنكم تمرة؟ فقال: لقد وجدنا فقدها حين فنيت، ثم انتهينا إلى البحر..)(١).

إن جمع الأزواد كان بعامل الضرورة، وهكذا تعالج الأمور في أوقات العسر وهذا ما أرشد إليه الرسول ﷺ حين أثنى على الأشعريين.

روى البخاري عن أبي موسى قال: قال النبي ﷺ: «إن الأشعريين إذا

---

(١) رواه البخاري برقم ٤٣٦٠ ومسلم برقم ١٩٣٥.

أرملوا[1] في الغزو، أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثـوب واحد، ثم اقتسمـوه بينهم في إناء واحـد بالسـوية، فهم مني وأنـا منهم»[2].

٣ ـ وللأغنياء دورهم، ففي هذه الغزوة لما رأي قيس بن سعد بن عبادة ما أصاب الجيش من الجوع، وحدث أن التقوا برجل من جهينة معه إبل، فاستدان على مال أبيه ـ كما في حديث البخاري ـ ثلاث جزر ثم ثلاث جزر، ثم ثلاث جزر، ثم إن أبا عبيدة نهاه لأنه إنما كان يستدين على مال أبيه[3].

٤ ـ وفي الأزمات لا مجال للرفاهية لأحد، حتى ولو كانت فاطمـة رضي الله عنها بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

جاء سبي إلى النبي ﷺ ويغلب على الظن أنه سبي بني قريظة.. فجاء علي وفاطمة إلى رسول الله ﷺ، فقال علي: يا رسول الله، والله لقد سنوت[4] حتى اشتكيت صدري، وقالت فاطمة: «قد طحنت حتى مجلت يداي[5]، وقد جاءك الله بسبي وسعة فأخدمنـا، فقال رسول الله ﷺ: «والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوي بطونهم لا أجد ما أنفق عليهم، ولكني أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم..» فرجعا..[6].

وعلي وفاطمة إنما يطلبان من نصيب النبي ﷺ من الخمس.. ولكن حتى هذا النصيب إنما يضعه النبي ﷺ فيما هو أولى حتى ولو كان الطلب من أعزِّ الناس عليه من فاطمة بنته رضي الله عنها..

تلك أمثلة عن السلوك الاقتصادي في أوقات الشدة، وغيرها كثير..

---

(١) أرملوا: أي فني زادهم، وأصله من الرمل، كأنهم لصقوا بالرمل من القلة.
(٢) رواه البخاري برقم ٢٤٨٦.
(٣) رواه البخاري برقم ٤٣٦١.
(٤) أي استقيت.
(٥) أي ثخن جلدها.
(٦) رواه الإمام أحمد. انظر الفتح الرباني للبنا ٤٤/٢١.

المرافق العامة:

إن المرافق العامة، وهي ما يحتاجه الناس عامة، لا ينبغي أن تكون في ملك فرد أو جماعة، أو تحت هيمنة فرد أو جماعة، وإنما ينبغي أن تكون متاحة للجميع وفي متناول الجميع، ونتحدث في هذه الفقرة عن مثالين؛

١ ـ سوق المدينة:

قدم رسول الله ﷺ المدينة وفيها عدد من الأسواق منها: سوق زَبالة وسوق بني قينقاع ويطلق عليها أيضاً اسم سوق الجسر، وسوق الصفصاف، وسوق مزاحم[١].

وكانت السوق الرئيسة هي سوق بني قينقاع، وأما الأسواق الأخرى فكانت صغيرة..

وكما هو واضح من اسم «سوق بني قينقاع» أن اليهود هم الذين يسيطرون عليها ويتحكمون بها، وعلى الرغم من ذلك، فقد كانت هي السوق التي يرجع إليها الجميع. ولذلك لما سأل عبدالرحمن بن عوف عند بدء هجرته عن السوق، أرشد إلى سوق بني قينقاع.

وجاء رسول الله ﷺ فرأى الأمر على ذلك، ورأى اليهود يتحكمون في السوق وعندها كان لا بد من التفكير في إقامة سوق للمسلمين، لا يكون فيها سيطرة لأحد.

روى الطبراني من طريق الحسن: أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: إني رأيت موضعاً للسوق أفلا تنظر إليه، قال: بلى، فقام معه، حتى جاء موضع السوق فلما رآه أعجبه، وركض برجله وقال: «نعم سوقكم هذا، فلا ينقص ولا يضربن عليكم خراج»[٢].

---

(١) عن كتاب (المدينة في العصر الجاهلي) للدكتور محمد الخطراوي ص ١٢٦.
(٢) انظر (نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية) للكتاني ٢/١٦٣.

وروى ابن ماجه عن أبي أسيد: أن رسول الله ﷺ ذهب إلى سوق النبيط، فنظر إليه، فقال: «ليس هذا لكم بسوق»، ثم ذهب إلى سوق فنظر إليه فقال: «ليس هذا لكم بسوق» ثم رجع إلى هذا السوق فطاف فيه ثم قال: «هذا سوقكم، فلا ينتقص، ولا يضربن عليه خراج»[1].

وعن عمر بن شبة عن عطاء بن يسار قال: لما أراد رسول الله ﷺ أن يجعل للمدينة سوقاً، أتى سوق بني قينقاع، ثم جاء سوق المدينة، فضربه برجله وقال: «هذا سوقكم فلا يضيق، ولا يؤخذ فيه خراج»[2].

تبين هذه النصوص أن الرسول ﷺ لم يكن راضياً عن تعامل المسلمين في سوق بني قينقاع فطلب من المسلمين أن يفتشوا عن مكان يصلح لهذه المهمة، ثم أخبر بوجود المكان المناسب، فخرج بنفسه فرآه، ثم أقره، وقال: هذا سوقكم..

وهكذا انتقل المسلمون إلى المكان الذي أشار إليه ﷺ.

ويغلب على الظن أن هذه القضية ـ قضية نقل السوق ـ كانت عاملاً من عوامل حقد بني قينقاع على المسلمين، وربما كانت السبب في أنهم كانوا أول من نقض العهد مع النبي صلى الله عليه وسلم.

وفي فعل الرسول ﷺ ما فيه من الحرص على الاستقلال الاقتصادي للمسلمين وفي وقت مبكر، فقد كانت الحادثة في تقديري مع بداية هذه المرحلة الثانية أي بعد بدر مباشرة.

٢ ـ بئر رومة:

قدم النبي ﷺ المدينة، والماء الصالح للشرب قليل، «فليس هناك ما يستعذب إلا بئر رومة»[3].

---

(١) سنن ابن ماجه، كتاب التجارات، باب (٤٠) رقم الحديث ٢٢٣٣.

(٢) انظر كتاب (آثار المدينة) لمؤلفه عبدالقدوس الأنصاري ص ١٦٣، المكتبة السلفية. نقلاً عن كتاب: وفا الوفا.

(٣) رواه النسائي والترمذي. انظر جامع الأصول ٦٣٨/٨ رقم الحديث ٦٤٧٤.

وكانت هذه البئر ليهودي يبيع ماءها بيعاً «فلم يكن يشرب منها أحد إلا بثمن»(١).

ولم ير الرسول الكريم ﷺ استقامة هذا الوضع، فماء الشرب حاجة يومية لا يستغني عنها إنسان، وليس من المعقول أن يتحكم بهذه الحاجة إنسان من الناس بغض النظر عن دينه، ولذا لفت الأنظار إلى هذا المرفق الضروري فقال ﷺ: «من يشتري بئر رومة فيكون دلوه فيها كدلاء المسلمين»(٢).

إنه ﷺ يريد ممن يشتريها أن يجعلها عامة للمسلمين وتكون دلوه فيها كدلاء المسلمين غير متميز عليهم، أي تكون دلوه فيها باعتباره مسلماً لا باعتباره أنه الذي اشتراها. وبهذا تكون ملكاً عاماً لا سيطرة لأحد عليه.

ليست القضية إذن أن تنتقل البئر من ملك يهودي إلى ملك مسلم، وإنما أن تنتقل من الملك الخاص إلى ملك عام، ولم يكن لدى النبي ﷺ يومئذ من المال ما ينفذ به هذا الأمر فكان لا بد من حضّ المسلمين على القيام به ابتغاء رضوان الله تعالى.

ولا شك أن صاحب البئر سيغالي بها، فهي بئر وحيدة، وتدرُّ عليه المال الكثير.. ولكن الله تعالى هيأ لهذا العمل عثمان بن عفان رضي الله عنه.

جاء في كتاب الاستيعاب لابن عبدالبر في ترجمة عثمان رضي الله عنه:

«واشترى عثمان بئر رومة، وكانت ليهودي يبيع المسلمين ماءها، فقال ﷺ: «من يشتري رومة، فيجعلها للمسلمين، يضرب بدلوه في

---

(١) رواه الترمذي. انظر جامع الأصول ٨/٦٤١ رقم الحديث ٦٤٧٥.

(٢) رواه البخاري معلقاً عند الباب الأول من كتاب المساقاة. قال في فتح الباري: وقد وصله الترمذي والنسائي وابن خزيمة من طريق ثمامة بن حزن ٥/٣٠.

دلائهم، وله بها مشرب في الجنة» فأتى عثمان اليهودي فساومه بها، فأبى أن يبيعها كلها، فاشترى نصفها بإثني عشر ألف درهم، فجعله للمسلمين. فقال له عثمان: إن شئت جعلت على نصيبي قرنين، وإن شئت فلي يوم ولك يوم، قال: بل لك يوم ولي يوم، فكان إذا كان يوم عثمان استقى المسلمون ما يكفيهم يومين. فلما رأى ذلك اليهودي قال: أفسدت عليَّ ركيتي[1]، فاشتر النصف الآخر، فاشتراه بثمانية آلاف».

الإحصاء:

الإحصاء ضرورة من الضرورات التي لا بد أن تكون متوفرة تحت يد كل قائد أو مسؤول كلٌ فيما يخصه..

فهو ضرورة لتقدير أي موقف عسكري، كما أنه ضرورة لمعرفة الوضع الاقتصادي.. والسكاني..

وبين أيدينا أكثر من حديث يتناول طلب النبي ﷺ إحصاء عدد المسلمين.

عن حذيفة بن اليمان قال: «قال النبي ﷺ: اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من الناس فكتبنا له ألفاً وخمسمائة»

وفي رواية: «فوجدناهم خمسمائة».

وفي رواية: «ما بين ستمائة وسبعمائة»[2].

ولا تناقض بين هذه الروايات، لأن العمليات الإحصائية تجري من وقت لآخر بسبب المتغيرات.

والذي يبدو أن طلب الإحصاء تكرر من النبي ﷺ في أزمان مختلفة، فاختلفت الأرقام بسبب ذلك.

---

(١) هي البئر.

(٢) هذه الروايات كلها في البخاري برقم ٣٠٦٠ والرواية الأخيرة في مسلم برقم ١٤٩.

ويظهر أن هذه الإحصاءات كلها كانت في هذه الفترة التي نتحدث عنها، فأكثر الروايات من حيث العدد فيما يتعلق بصلح الحديبية تقول إنهم كانوا ألفاً وخمسمائة

وهكذا كانت الأمور تسير بقيادته ﷺ تراعى فيها كل المعطيات، وبناء عليها يكون تحديد مستوى الحركة واتجاهها.

الفصل الخامس

التربية في المرحلة الثانية

رأينا في القسم الأول من هذا الكتاب كيف سارت العملية التربوية في مسارات عدة في آن واحد، وقد ظلت هذه المسارات مستمرة وفي نماء متصل.

ونحن في صدد الحديث عن هذه المرحلة لن نتحدث عن نظريات، وإنما سيكون حديثنا من خلال الوقائع، نحاول تسجيل الخطوط العريضة التي سجلتها الأحداث فيها. وسنتناول البحث من ثلاثة جوانب:

ـ التربية الجهادية.

ـ التربية الأخلاقية.

ـ التربية الاقتصادية.

١
التربية الجهادية

تعد هذه الفترة فترة غنية بالوقائع الجهاديـة، ويكفي لبيان كثـافة الحركة الجهادية فيها أن نقول: إن عدد الغزوات التي قادها النبي ﷺ بنفسه فيها هو سبع عشرة غزوة، وعدد السرايا والبعوث هو أربع وعشرون سرية، كل هذا خلال مدة لا تزيد عن أربع سنوات وشهر واحد.

وقد كانت الآيات تنزل لتوجه وتسدد الخطوات الجهادية في مسارها الصحيح وقد حملت معهـا كل مـا ينبغي أن يتحلى به المجـاهدون من سلوكيات.

وسأحاول في عرض هذا الموضوع الاختصار قدر الإمكان والإشارة إلى النقاط المهمة حتى لا يخرج البحث عن حدوده المقدرة له.. وسيكون هذه العرض متمشياً مع التتابع التاريخي للوقائع.

ومما يلاحظ أن المعارك التي جرت في هذه الفترة كانت بمبادرات خارجية فوجىء المسلمون بها، كان ذلك واضحاً في بدر، وفي أحد والأحزاب فقد جاء أعداء الله للقضاء على الإسلام في عقر داره، فهزمهم الله تعالى.

* * *

إخلاص وتجانس:

وقبل أن نباشر حديثنا عن التربية المستقاة من التوجيهات القرآنية الكريمة التي نزلت تعقيباً على الغزوات، لا بد من كلمة موجزة عن الجهاد:

عرف العرب القتال دفاعاً عن القبيلة، أو انتصاراً لها، بدافع العصبية، بعيداً عن موازين الحق والعدل والقيم الفاضلة..

وكان الاحتكام إلى السلاح أمراً يحدث لأتفه الأسباب..

وجاء الإسلام.. وجاء بمشروعية القتال، ولكنه قتال في سبيل الله تعالى، غايته أن تكون كلمة الله هي العليا.

وبهذا يختلف مفهوم القتال في الإسلام عنه في الجاهلية اختلافاً كلياً. في الأسباب وفي الغايات..

أصبح القتال عملاً عبادياً، يتقرب به إلى الله تعالى، ولهذا فهو يحتاج إلى النية الصالحة ككل العبادات من الصلاة وغيرها..

وأن تكون هذه النية خالصة من كل الشوائب..

إن غاية القتال في سبيل الله، هي أن تكون كلمة الله هي العليا،

وبمعنى آخر: نشر الإسلام وتبليغ الدعوة إلى كل الناس حتى يتاح لهم معرفة الحق والدينونة به أو الدينونة له.. وعندها تكون كلمة الله هي العليا لأنها تحكم حياة الناس.

ولهذا المعنى السامي كان الموت في سبيل الله شهادة، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون.

ولما كان هذا المفهوم عن القتال مفهوماً جديداً يطرحه الإسلام، جاء بعضهم يسأل: كيف يكون الجهاد في سبيل الله؟

قال أبو موسى: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»(١).

وفي رواية: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»(٢).

وهكذا يستوعب هذان النصان كل الأغراض التي كان يقاتل الناس من أجلها، وهي الرغبة في الغنيمة، والرغبة في أن يذكر الرجل بشجاعته وبطولته، وقد تستثيره الحمية لقومه وعصبته.. فأي ذلك في سبيل الله؟

لا شيء منها في سبيل الله، ذلك أن الباعث على القتال قد تغير. فهناك نوع واحد في سبيل الله.. أن تكون المشاركة فيه لتكون كلمة الله هي العليا.

ولهذا كان ﷺ يذكرهم الله تعالى قبل بدء المعركة، وأن تكون قلوبهم متجهة إليه، خالصة النية، لا تشوبها شائبة. وبهذا أضحت الحياة تبذل في

---

(١) رواه البخاري برقم ٢٨١٠ ومسلم برقم ١٩٠٤.
(٢) رواه البخاري برقم ١٢٣ ومسلم برقم ١٥٠ من كتاب الإمارة.

سبيل أمر غالٍ عزيز المنال، هو رضوان الله تعالى، وليس في سبيل عرض من الدنيا، أو كلمة ثناء يتداولها الناس.. أو أمر عصبية قد أبطلها الإسلام..

* * *

وكما يطلب الإسلام أن تكون النية في القتال خالصة لوجه الله تعالى.. فإنه كذلك يطلب أن يكون المقاتلون تحت راية الإسلام خالصين لله، من المسلمين، لا يشاركهم في ذلك غيرهم. فكما أن خلوص النية في الفرد أمر ضروري، فكذلك خلوص الجيش في أفراده بأن يكونوا من المسلمين وحدهم أمر ضروري. وهذه هي طريقة الإسلام في تناسق أنظمته على كل المستويات.

فقد جاء في صحيح مسلم: «خرج رسول الله ﷺ قِبَل بدر، فلما كان بحرة الوبرة أدركه رجل، قد كان يذكر منه جرأة ونجدة، ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه، فلما أدركه قال لرسول الله ﷺ: جئت لِأَتَّبِعَك وأصيب معك، قال له رسول الله ﷺ: «تؤمن بالله ورسوله؟» قال: لا، قال: «فارجع، فلن أستعين بمشرك»[1].

وفي مسند الإمام أحمد عن خبيب عن عبدالرحمن عن أبيه عن جده[2] قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو يريد غزواً، أنا ورجل من قومي، ولم نسلم، فقلنا: إنا نستحي أن يشهد قومنا مشهداً لا نشهده معهم، قال: «أو أسلمتما؟» قلنا: لا، قال: «فلا نستعين بالمشركين على المشركين»[3].

وهكذا تأتي النصوص صريحة بعدم قبوله ﷺ في جيش المسلمين لأي فرد غير مسلم، ذلك أن اختلاف الأهداف والغايات في الجماعة يفسد اجتماعها ويبطل عملها، وكما ذكرنا فالجهاد في الإسلام يختلف عن كل

---

(١) رواه مسلم برقم ١٨١٧.

(٢) هو خبيب بن إساف، من الأوس. انظر الفتح الرباني في ترتيب المسند ١٤/٤١.

(٣) المسند ٣/٤٥٤.

قتال آخر. وهكـذا دخل المسلمـون كل معـاركهم متوكلين على الله دون اعتماد على مساعدة أحد من غير المسلمين.

وبعد هاتين الملاحظتين حول التخلص من الشوائب في النيـة وفي الجيش نعود إلى الفوائد التربوية المستفادة من الغزوات في هذه المرحلة:

* * *

درس بـدر:

من المتفق عليه أن سورة الأنفال كلها نزلت في بدر. ونلفت النظر إلى بعض ما ورد فيها:

- هناك خط عام في السورة يؤكد أن وقوع المعركة والفوز فيها إنما كان بفعل الله تعالى.

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ..﴾ الآية ٥.

﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ الآية: ٧.

﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ..﴾ الآية: ١١.

﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾

الآية: ١٧.

وهكذا فكل ما حدث بأمر الله، وهذا يعني أن على المؤمنين أن يطامنوا من كبريائهم، ويتجهوا بالشكر والثناء على الله تعالى، وخاصة أنهم لم يكونوا راغبين بالقتال..

- على المؤمنين أن يوطنوا أنفسهم على استمرار عملية الجهاد، ذلك أنه لا بـد من القضـاء على الفتنـة.. ولا بـد أن يكـون الخضـوع في كـل الأرض لله.

﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ الآية: ٣٩.

ـ تؤكد الآيات على المؤمنين أن يثبتوا في المعارك فالفرار ذنب عظيم ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ الآية: ١٥ ـ ١٦.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ الآية: ٤٥.

ـ كما تؤكد على التعاون وعدم الاختلاف.

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ الآية: ٤٦.

ـ وتحذرهم من البطر والتكبر والرياء:

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ... ﴾ الآية: ٤٧.

ـ وإذا كان القتال سوف يستمر فلا بد من الإعداد.. والإنفاق في سبيل ذلك ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ الآية: ٦٠.

هذه التوجيهات أشياء أساسية في مفهوم الجهاد الإسلامي. وقد احتوت السورة قضايا أخرى كثيرة ترتبط بالموضوع ولهذه المعاني سميت هذه السورة «سورة الجهاد» وأصبحت النشيد الذي يردده المسلمون قبل معاركهم.

وهكذا فالجهاد يحتاج إلى: توكل على الله، وإعداد للقوة، وثبات في مواطن القتال، وابتعاد عن الرياء والبطر، وابتعاد عن الاختلاف..

تلك المعاني كان على المؤمنين أن يوطنوا أنفسهم عليها..

درس أحـد:

وجاءت غزوة أحد وعقبها غـزوة حمراء الأسـد، وقد فصَّل القرآن الكريم أحداثهما في آيات طويلة من سورة آل عمران..

ولعل من أهم دروس التربية في هذه المعـركة أن مخـالفة الأوامر والاختلاف يؤديان إلى الفشل، وقد كان هذا الدرس عملياً في واقع الحياة كلفهم الأنفس والجراح..

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية: ١٥٢.

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ الآية: ١٦٥.

على أن الذين يستشهدون في المعارك في سبيل الله فإنما ذلك إكرام من الله لهم وهم ينتقلون إلى حياة أخرى.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ الآيتان: ١٦٩ - ١٧٠.

وهنا تتغير المفاهيم تغيراً كاملاً تجاه الحرص على الحياة، ويصبح الموت في ساحة المعركة أمنية يسعى إليها المؤمن.

ولقد كان من نتائج أحد أن ظهر المنافقون على حقيقتهم وسجلت الآيات هذه الحقيقة فقال تعالى:

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ .. ﴾ الآية: ١٧٩.

وتذكرهم الآيات بالصبر الذي تدربوا عليه طويلاً، والصبر لا يعرف أصحابه إلا في وقت الشدة. وتذكرهم الآيات بخروجهم إلى المعركة وهم يتمنون الموت فما بالهم عندما حضر تغيرت مواقفهم. قال تعالى:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ الآيتان: ١٤٢ - ١٤٣.

ولهذا المعنى وجههم الرسول الكريم ﷺ إلى أن يقلوا من الكلام في مثل هذه المواطن، وأن يحولوا الكلام إلى عمل، فقال: «أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»[1].

درس الخندق:

عالجت آيات من سورة الأحزاب ما حدث في غزوة الخندق، وقد بينت الآيات الظروف القاسية التي أحاطت بالمؤمنين الصادقين، ثم تحدثت عن المنافقين وموقفهم السيء الذي تمثل بتثبيط همم بعضهم عن المشاركة في القتال، كما تمثل في التشكيك بقدرة المؤمنين، وكذلك بانتحال الأعذار لعدم المشاركة في القتال.

وتضمنت الآيات حض المؤمنين على التأسي بالرسول الكريم ﷺ في

---

(١) رواه البخاري برقم ٢٩٦٦.

ثباته ووقوفه في وجه أعداء الله، ثم أثنت على المؤمنين بصدق إيمانهم، وهذه شهادة من الله عظيمة.

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۞ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ۞ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ الآيات: ٢١ - ٢٣.

ثم أشارت الآيات بعد ذلك إلى ما لقيه بنو قريظة عقوبة على خيانتهم.

وهكذا يكون الدرس الأول في هذه الغزوة هو التأسي بالرسول ﷺ في مواقفه الجهادية بل وفي كل شأن من شؤونه صلى الله عليه وسلم.

* * *

تلك كانت جولة مع الآيات القرآنية التي نزلت بصدد الغزوات الكبرى في هذه المرحلة، والآيات الأخرى المتعلقة بالجهاد كثيرة، ومن آثار هذه الآيات الكريمة في نفوس المؤمنين كانت تلك الانطلاقة العظيمة التي تطاول فيها الصغار على رؤوس أصابعهم كي يقبلوا في الجيش.. وكان من آثارها اشتراك الفتية من أمثال عبدالله بن عمر في غزوة الخندق في أول بلوغهم..

والملاحظ في كل هذه الغزوات أن عدد وعدة الكافرين دائماً كانت أكبر، وأن أوضاع المسلمين الاقتصادية لم تكن على ما يرام، بل إنها في غزوة الخندق، وهي أضخم هذه الغزوات من حيث عدد الكافرين، كانت في غاية من السوء، من حيث قلة الطعام وقلة اللباس وقلة السلاح.

وإذن ما هو الشيء الذي تفوق به المسلمون حتى استطاعوا كسب النصر؟

يقول سيد قطب رحمه الله في الجواب على ذلك: كان التفوق الحقيقي للمجتمع المسلم على المجتمعات الجاهلية من حوله.. هو تفوقه في البناء الروحي والخلقي والاجتماعي والتنظيمي.. قبل أن يكون تفوقاً عسكرياً أو اقتصادياً أو مادياً على العموم.. بل هو لم يكن قط تفوقاً عسكرياً واقتصادياً[1]..

لهذا نجد أن الحركة الجهادية لم تكن متوقفة على حساب العامل الاقتصادي، بل تُقَرَّر خطة الحركة أولاً، ثم يسعى - قدر الإمكان - في تلبية حاجاتها. وقد ساعد على ذلك تلك التربية التي قامت على الصبر كما رأينا فيما سبق.

٢
التربية الأخلاقية

لا شك بأن مكانة النظام الخلقي هي في الذروة بين أنظمة الإسلام الأخرى، فهي كلها تصب فيه، وهو غايتها، ولذا لما سئلت عائشة عن خلق النبي ﷺ قالت: (كان خلقه القرآن)[2] وليس من مهمتنا هنا تتبع كل ما ورد في ذلك، إنما الغاية هي إلقاء الضوء على الأحداث الأخلاقية المهمة في هذه المرحلة.

لقد كانت أهم قضية خلقية شغلت المدينة شهراً كاملاً هي ما عرف «بحديث الإفك» ونحاول أن نلخص القصة من حديث عائشة رضي الله عنها:

(قالت كان ﷺ إذا أراد أن يخرج سفراً أقرع بين نسائه.. فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي، فخرجت معه ﷺ وذلك بعدما أنزل

---

(١) في ظلال القرآن ٢/٦٧٣.
(٢) أخرجه مسلم برقم ٧٤٦.

الحجاب. فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه، حتى إذا فرغ ﷺ من غزوه، وقفل ودنونا من المدينة، آذن ليلة بالرحيل، فقمت حينئذ فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت من شأني أقبلت إلى الرحل، فلمست صدري فإذا عقدي قد انقطع، فرجعت فالتمسته فحبسني ابتغاؤه).

(وأقبل الرهط الذين كانو يرحلون لي، فحملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب، وهم يحسبون أني فيه. وكان النساء إذ ذاك خفافاً.. فلم يستنكر القوم ثقل الهودج، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا).

(ووجدت عقدي.. فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فتيمَّمت منزلي[1] الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعون إلي. فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي قد عرَّس[2] من وراء الجيش فادَّلج[3] فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني.. وقد كان يراني قبل أن يضرب الحجاب علي، فاستيقظت باسترجاعه[4] حين عرفني).

(فخمرت وجهي بجلبابي، ووالله ما كلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته فوطىء على يدها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش.. فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولى كبره عبدالله بن أبي سلول، فقدمنا المدينة).

(فاشتكيت حين قدمنا المدينة شهراً، والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف منه ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول: «كيف تيكم» فذاك يريبني، ولا أشعر بالشر..).

---

(١) أي قصدته.
(٢) النزول آخر الليل في السفر.
(٣) هو السير آخر الليل.
(٤) أي قوله: إنا لله وإنا إليه راجعون.

وعرفت عائشة الخبر بعد ذلك، فازداد مرضها واستأذنت أن تذهب إلى بيت أبيها لتتأكد من الخبر. . وذهبت.

واستشار ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد قالت: (فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، والذي يعلم في نفسه لهم من الود، فقال: يا رسول الله، هم أهلك ولا نعلم إلا خيراً، وأما علي فقال: لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير. .).

(قالت: فقام رسول الله ﷺ على المنبر فقال: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً. ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي).

(فقام سعد بن معاذ الأنصاري(1) فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك).

(قالت: فقام سعد بن عبادة ـ وهو سيد الخزرج ـ وكان رجلاً صالحاً، ولكن أجهلته الحميَّة، فقال لسعد بن معاذ: كذبت، لعمرُ الله لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير ـ وهو ابن عم سعد بن معاذ ـ فقال لسعد بن عبادة: كذبت، لعمرُ الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فثار الحيان: الأوس والخزج، حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر. فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت).

واستمرت عائشة في بكائها يوماً وليلة. . ثم دخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(1) في غير رواية البخاري ومسلم، الذي قام هو أسيد بن حضير لأن سعد بن معاذ كان قد توفي عقب غزوة الخندق. انظر التفصيل في ذلك فتح الباري ٨/٤٥٥ وما بعدها.

(قالت: فسلم ثم جلس، ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل. وقد لبث شهراً لا يوحى إليه من شأني بشيء).

(قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: «أما بعد، يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب، تاب الله عليه»).

(قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته، قلص دمعي، حتى ما أحسُّ منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله، فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله، فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ فقلت: .. إن قلت لكم إني بريئة - والله يعلم أني بريئة - لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر - والله يعلم أني بريئة - لتصدقوني. وإني والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون).

(قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي.. فوالله ما رام رسول الله مجلسه.. حتى أنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ.. فلما سري عنه - وهو يضحك - فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: «أبشري يا عائشة، أما الله فقد برأك».. فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ عشر آيات، فأنزل الله هؤلاء الآيات براءتي..)[1].

هذا معظم رواية عائشة رضي الله عنها أثبتناها لأنها تبين الأجواء والملابسات التي وقعت فيها الحادثة، والحجم الذي أخذته من تفكير النبي ﷺ وتفكير المؤمنين وما نتج عن ذلك من لغط وإفك طبَّل له المنافقون ووقع فيه بعض المؤمنين عن غفلة منهم..

والذي نحب أن نلفت النظر إليه أن هذه الحادثة وقعت في شعبان من

---

(١) رواه البخاري برقم ٤٧٥٠ ومسلم برقم ٢٧٧٠ واللفظ له.

السنة السادسة للهجرة، أي قبل نهاية هذه المرحلة التي نتحدث عنها بستة أشهر. ولذا فهي تستوقفنا لأمور عدة:

١ ـ **دور النفاق**: هذه الحادثة كلها من إخراج عبدالله بن أبي ابن سلول.. وهذا يبين لنا كم عانى المجتمع الإسلامي في عهد النبوة من آثار النفاق على جميع الجبهات، الداخلية والخارجية، العسكرية.. والأخلاقية..

وكان ﷺ يصبر ويصبِّر أصحابه، لأن غير المسلمين ينظرون إلى المنافقين على أنهم مسلمون، فالإساءة إليهم ربما كانت عائقاً في انتشار الدعوة ولهذا قال ﷺ لعمر عندما اقترح قتل ابن أبي: كيف بك إذا قيل إن محمداً يقتل أصحابه؟

٢ ـ **التربية والوقت**: ها هي خمس سنوات مضت والرسول ﷺ بين أظهر القوم ومع ذلك لم يمنع هذا رجلاً فاضلاً مثل سعد بن عبادة أن تأخذه الحمية الجاهلية، ليس وحده، وإنما انضم إليه قومه، وهذا يعني أن التربية تحتاج إلى وقت كبير، ولا تكون إلا شيئاً فشيئاً، فليست هي محاضرة تلقى وتنتهي المهمة، بل هي ممارسة لعملية التغيير من داخل النفوس.. وإن هذا ليضع بين أيدينا حجم الجهد الذي بذله الرسول ﷺ في صياغة هذه النفوس وفق منهج الإسلام.

٣ ـ عصبة النفاق: وتبين الآيات أن الذي تولى كبر هذه الفرية هو عبدالله بن أبي بن سلول، ولكنه محاط بعصبة تتعاون معه وتنفذ له ما يريد، وقد انساق في ظل ضوضاء هذه الفرية أناس من المؤمنين هم: حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثه، وحمنة بنت جحش..

ولهذا عندما نزلت الآيات الكريمة لم يثبت على عبدالله بن أبي بن سلول المشاركة في الحديث هو ولا أتباعه، ولذلك لم يحدوا، بينما حُدَّ المؤمنون الذين تابوا ورجعوا إلى الله تعالى وهم: حسان ومسطح وحمنة.

وهكذا يقوم النفاق بدوره في الظلام دون أن يظهر على السطح، وكان على المؤمنين أن يكونوا أكثر تنبهاً وحذراً.

ونعود بعد هذا إلى نص الآيات الكريمة التي نزلت ببراءة عائشة، وفيها التوجيه القرآني الكريم. قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ۞ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ۞ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ۞ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ۞ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۞ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (سورة النور: الآيات ١١ ـ ٢٠).

وكما هو واضح فالآيات الكريمة تبين أشياء كثيرة منها:

١ ـ براءة السيدة عائشة رضي الله عنها.
٢ ـ إثم الذين خاضوا في هذا الإفك.
٣ ـ العتب على المؤمنين وبيان الموقف الذي كان ينبغي أن يتخذ من قبلهم.. وهو أن يظنوا بأنفسهم الخير، وهو الأمر الذي فعله بعضهم مثل أبي أيوب الأنصاري، حيث قالت له امرأته أم أيوب: أما تسمع

ما يقول الناس في عائشة؟ قال: نعم وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله. قال: فعائشة ـ والله ـ خير منك.

٤ ـ عظم الخوض في مثل هذا الأمر في المجتمع الإسلامي، وأنه من رحمة الله وفضله أن عفا عنهم، ولولا ذلك لمسهم عذاب عظيم في الدنيا والآخرة.

٥ ـ ثم بينت الآيات كيف خاضوا في أمر لا علم لهم به. وأنهم حسبوا أن ذلك أمراً هيناً، وبين لهم أنه ليس كذلك وأنه عظيم عند الله تعالى.

٦ ـ وعتبٌ آخر، أنه كان ينبغي ألا يخوضوا في ذلك الحديث وأن يعلموا أنه بهتان عظيم.

٧ ـ التحذير من أن يحدث هذا في المجتمع الإسلامي مرة أخرى.

٨ ـ بيان عظم عقوبة الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا.

٩ ـ ثم التأكيد على أن عملهم كان يستحق العقوبة للجميع ولكن برحمةٍ من الله تعالى عُفي عنهم.

وهكذا تبين الآيات عظم حرمة البيوت، وعظم جريمة الخوض بأعراض الناس وأن الإنسان مسؤول أمام الله عن ذلك، وأن الموقف السليم للمؤمن أن يحمي سمعه عن سماع هذه الأمور.. ثم لم تكتف الآيات بالحديث عن العقوبة الأخروية فقد جاءت الآيات الأخرى في أول السورة لتسجل عقوبة القذف بالدنيا إضافة إلى عقوبة الآخرة.

وبهذا تصان الأعراض، ويتعلم المسلمون السلوك الذي ينبغي أن يكون تجاه مثل هذه الأحداث من صون السمع واللسان..

* * *

وهناك أمر آخر يتعلق بالتربية الأخلاقية في الحادثة نفسها: وهو أن أبا بكر رضي الله عنه كان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره، فلما نزلت براءة عائشة حلف ألا ينفق عليه أبداً، وذلك بسبب خوضه بهذا

الحديث فأنزل الله تعالى:

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة النور: الآية ٢٢).

فقال أبو بكر: والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح بالنفقة التي كان ينفق عليه، وقال: لا أنزعها منه أبداً.

وهكذا يوجه القرآن الكريم إلى عمل الخير ابتغاء وجه الله تعالى بعيداً عن كل النزعات النفسية، حتى وإن كان لها ما يبررها... وهكذا يرتقي العمل ليصبح خالصاً لوجه الله تعالى.

٣
التربية الاقتصادية

إن الإسلام لم يأت لينكر طبائع الناس وفطرتهم التي فطرهم الله عليها، وإنما أتى ليجعل هذه الفطرة متساوقة مع المنهج الإلهي الأمر الذي ينظم حياة الإنسان في شتى مجالاتها بحيث لا يطغى جانب على جانب.

والرسول الكريم ﷺ ينبه إلى هذا حينما يقرر هذه الحقائق:

قال ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى وادياً ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»[(١)].

وقال ﷺ: «يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان: الحرص على المال، والحرص على العمر»[(٢)].

إنه التقرير للحقائق، وعدم الاعتراف بذلك جهل، ومحاولة إلغائها جهل أكبر، ولكن الإسلام جاء ليضبط مسارها ويوجهها لتؤدي دورها وفق منهج الله تعالى.

---

(١) رواه مسلم برقم ١٠٤٨. (٢) رواه مسلم برقم ١٠٤٧.

ونحن في هذه الدراسة لسنا بصدد وضع النظريات.. وإنما نحاول تسجيل الواقع من خلال الزمن الذي بيناه سابقاً.. وبما أن التربية النبوية قد غطت جميع مسارب النفس، فلا بد من الحديث عن التربية الاقتصادية، وما نبحثه هنا وإن كان خطأ عاماً.. ولكني أقدر أن تربية النفوس عليه كانت في هذه المرحلة. وأستطيع أن ألخص المعالجة النبوية الكريمة بالنقاط التالية.

١ ـ غنى النفس:

لا شك بأن كل إنسان حريص على زيادة أمواله وهو ما يعبر عنه بالغنى، وهذا الحرص كما مر في الحديث السابق غريزة قائمة في النفس الإنسانية، ويحرص الإسلام على تعديل هذا المعنى.

جاء في حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: «قال لي رسول الله ﷺ: يا أبا ذر، أترى كثرة المال هو الغنى؟ قلت: نعم، قال: وترى قلة المال هو الفقر؟ قلت: نعم يا رسول الله. قال: إنما الغنى غنى القلب، والفقر فقر القلب»[(١)].

وهكذا يطرح الرسول الكريم ﷺ معنى آخر للغنى غير ما تعارف عليه الناس، وهو لا يعني خطأ ما تعارف عليه الناس، وإنما ارتقى ﷺ بمعنى الغنى إلى مقام أرفع.

وغنى القلب يعني عدم تقبل المال من كل سبيل، بل مما أحله الله تعالى، وعدم التطلع إلى ما في أيدي الناس، لأنه استغنى بما عنده وبما كتب له عند الله تعالى وقد سلك ﷺ في تقرير هذا المعنى في نفوس أصحابه كل الطرق المجدية..

عن عمرو بن تغلب رضي الله عنه قال: (أعطى رسول الله ﷺ قوماً ومنع آخرين، فكأنهم عتبوا عليه، فقال: «إني أعطي قوماً أخاف ظَلَعَهم[(٢)]

---

(١) رواه ابن حبان. انظر فتح الباري ١١/٢٧٢.

(٢) أي اعوجاجهم. وأصله: الميل، وأطلق هنا على مرض القلب وضعف اليقين.

وجزعهم، وأكِل أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى، منهم عمرو بن تغلب»، فقال عمرو بن تغلب: والله ما أحبُّ أن لي بكلمة رسول الله ﷺ حمر النعم)[1].

ومن هذا المنطلق يصبح عدم العطاء هو المرغوب وهو الذي يسعى إليه. أرأيت كيف تُعدَّل المعاني في الاتجاه الصحيح..

وفي سبيل استشعار الغنى حقيقة، يضع الرسول الكريم ﷺ الوسائل النفسية بين الأيدي حتى تكون في متناول الجميع في سبيل الوصول إلى المعنى المطلوب وهو «غنى النفس» فيقول:

«إذا نظر أحدكم إلى من فضّل عليه في المال والخَلق فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضّل عليه»[2].

وفي رواية: «انظروا إلى من أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله»[3].

وبهذا يشعر الإنسان بنعم الله عليه، وتعرض نفسه عن التطلع إلى ما في أيدي الناس، فيرتاح هو نفسياً في الدرجة الأولى، فلا يجد الحسد في نفسه مقراً له، وبالتالي يكون الناس سعداء به طالما أنه لا يتطلع إلى ما في أيديهم..

وعندما تستكمل هذه المعاني في النفس تصل إلى درجة الغنى التي عناها النبي الكريم بقوله:

«ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس»[4].

---

(١) رواه البخاري برقم ٣١٤٥.

(٢) رواه البخاري برقم ٦٤٩٠ ومسلم برقم ٢٩٦٣.

(٣) من رواية مسلم برقم ٢٩٦٣.

(٤) رواه البخاري برقم ٦٤٤٦ ومسلم برقم ١٠٥١.

٢ ـ العمل:

لا يتوفر للإنسان «غنى النفس» إلا إذا استطاع الاستغناء عن حاجته إلى الآخرين، وهذا إنما يتوفر بإحدى وسيلتين أو بهما معاً. وسيلة نفسية وأخرى مادية:

أما النفسية فإن حديث أبي سعيد الخدري يرشدنا إليها.

قال رضي الله عنه: (إن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفد ما عنده، فقال: «ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم. من يستعفف يعفَّه الله، ومن يستغنِ يغنه الله، ومن يتصبَّر يصبِّره الله، وما أُعطيَ أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر»[1]).

هذه هي الوسائل النفسية: التعفف، الاستغناء، الصبر.

وأما الوسيلة المادية فهي الاستغناء عن الحاجة إلى الناس بالعمل. أياً كان هذا العمل طالما أنه فيما أحلَّ الله تعالى. وفي هذا قضاء على المفهوم السائد لدى العرب قديماً وهو امتهان أصحاب الصنعات من حدادة ونجارة وحتى الزراعة. ولننظر إلى الحديث التالي وهو يحض على العمل.

قال ﷺ: «لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة الحطب على ظهره، فيبيعها فيكف الله بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه»[2].

إن هذه المهنة البسيطة خير من المسألة.. وهو أمر لا يشك فيه عاقل، إن الحاجة إلى الناس أمر مذل، وإذا كان الاحتطاب يغني عن ذلك فهو الخير كل الخير.

وتطبيقاً لهذه المعاني عمل أهل مكة بالزراعة كما رأينا في صدد الحديث عن الزبير رضي الله عنه. وحملت أسماء بنت أبي بكر النوى على رأسها يومياً مسافة كبيرة.

---

(١) رواه البخاري برقم ١٤٦٩. (٢) رواه البخاري برقم ١٤٧١.

٣ ـ الاكتفاء الذاتي:

اتجهت التربية الاقتصادية بالفرد في هذه المرحلة نحو الاكتفاء الذاتي، الذي نعني به اعتماد الفرد على دخله الخاص، بحيث تكون مصروفاته في حدود دخله أو أقل من ذلك. الأمر الذي لا يحوجه إلى الاستدانة من الآخرين. وهذه الخطة تعني أن يضغط المرء مصروفاته إذا كان دخله قليلاً، وأن يعوِّد نفسه الصبر عن كثير من حاجياته..

وبهذا يسهم كل فرد بشكل مباشر في دعم اقتصاد الأمة، فحيثما يتكفل الفرد بنفسه اقتصادياً يكون قد خطى خطوة عظيمة في أنه قلل عدد المحتاجين للمساعدة وبهذا تخف الأعباء على الدولة.. وإذا خطى الفرد الخطوة الثانية. وهي المساهمة في تحمل أعباء غيره فهذا يكون إحسانه مضاعفاً.

نلمح هذا الاتجاه من دعوة الرسول ﷺ إلى تقليل المصروفات، بحيث لا يكون عند الإنسان شيء لا يحتاجه عملياً، وهذا ما أرشد إليه الحديث التالي:

عن جابر بن عبدالله، أن رسول الله ﷺ قال له: «فراش للرجل، وفراش لامرأته، والثالث للضيف، والرابع للشيطان»(١).

وإذا قسنا على الفراش كل الحاجات الأخرى التي قد يحويها بيت الإنسان أمكننا أن نتفهم كيف أنه يمكن تقليل هذه المصروفات إلى حد كبير.

ونلمح الاتجاه الثاني لتحقيق الاكتفاء الذاتي وهو البعد عن الاستدانة من الآخرين من النص التالي:

عن سلمة بن الأكوع قال: (كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ أُتيَ بجنازة

---

(١) رواه مسلم برقم ٢٠٨٤.

فقالوا: صلِّ عليها، فقال: «هل عليه دين؟» قالوا: لا، قال: «فهل ترك شيئاً؟» قالوا: لا، فصلى عليه.

ثم أتي بجنازة أخرى، فقالوا: يا رسول الله صلِّ عليها، قال: «هل عليه دين؟» قيل: نعم، قال: «فهل ترك شيئاً؟» قالوا: ثلاثة دنانير، فصلى عليها.

ثم أتى بالثالثة فقالوا: صلِّ عليها، قال: «هل ترك شيئاً؟» قالوا: لا، قال: «فهل عليه دين؟» قالوا: ثلاثة دنانير، قال: «صلوا على صاحبكم».

قال أبو قتادة: (صلِّ عليه يا رسول الله، وعليَّ دينه، فصلى عليه)[1].

وعن أبي هريرة: (أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بالرجل الميت، عليه الدين، فيسأل: هل ترك لدينه من قضاء؟ فإن حُدِّث أنه ترك وفاء صلى عليه، وإلا قال: «صلوا على صاحبكم»)[2].

ومن الحديثين يتبين أنه ﷺ لم يكن يصلي على الميت الذي عليه دين ولم يترك وفاء له.

وإذا علمنا كم هو حرص كل صحابي إذا مات أن يصلي عليه رسول الله ﷺ، بل حرص المسلمين كلهم، تبين لنا أن هناك إرشاداً نبوياً كريماً غير مباشر بالابتعاد عن الدين. وهذه قضية كما وضحنا تحتاج إلى اتخاذ العدة لها من صبر أحياناً، وتنازل عن بعض الحاجيات أو الضروريات أحياناً أخرى[3].

بل إنه ﷺ أراد من بعض أصحابه أن ترتقي هممهم إلى مستوى عال

---

(١) رواه البخاري برقم ٢٢٨٩.

(٢) رواه البخاري برقم ٢٢٩٨ ومسلم برقم ١٦١٩.

(٣) عدم صلاته ﷺ على من عليه دين كان خاصاً بهذه المرحلة التي نتحدث عنها، فلما فتح الله عليه بعد ذلك الفتوح قال: أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم.. كما سوف نتحدث عن ذلك في الباب القادم إن شاء الله تعالى.

يصل بهم إلى عدم سؤال الناس شيئاً ويدخل ضمن ذلك الدين. ولكنَّ هذا كان لفئة خاصة، لأن هذه القضية إنما تستطيعها القلة من الناس ولنستمع إلى الحديث الشريف في ذلك:

عن عوف بن مالك الأشجعي قال: (كنا عند رسول الله ﷺ، تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: «ألا تبايعون رسول الله؟» قلنا: فعلامَ نبايعك؟ قال: «على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، والصلوات الخمس، وتطيعوا، وأسرَّ كلمة خفية ـ: ولا تسألوا الناس شيئاً» فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إياه)[1].

٤ ـ تربية العطاء:

جاء في الحديث الشريف عن عبدالله بن عمر، أن رسول الله ﷺ قال ـ وهو على المنبر ـ وهو يذكر الصدقة والتعفف عن المسألة: «اليد العليا خير من اليد السفلى، واليد العليا المنفقة، والسفلى السائلة»[2].

وقد سعى رسول الله ﷺ جهده في سبيل أن تكون كل يد مؤمنة هي العليا، وذلك بالتنفير من المسألة، والحث على الصدقة، مهما كانت هذه الصدقة قليلة، ففي حديث عدي بن حاتم، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من استطاع منكم أن يستتر من النار ولو بشق تمرة فليفعل»[3].

وأن يكون المسلم من المساهمين في دفع الصدقة فذلك يعني أنه في الجانب الإيجابي من المجتمع مهما قل عطاؤه، وذلك ما يسعى إليه المنهج الإسلامي.

ويرتفع المستوى الاقتصادي للمجتمع بمقدار ما يكثر فيه المعطون، وبمقدار ما يقل فيه الآخذون..

---

(١) رواه مسلم برقم ١٠٤٣. (٢) رواه مسلم برقم ١٠٣٣.
(٣) رواه مسلم برقم ١٠١٦.

ولقد آتت هذه التربية ثمارها، حتى بلغت حداً غير متصور إلا في المجتمع الإسلامي.

عندما تطلب منك الصدقة وليس عندك شيء فكيف تشارك؟ إن فاقد الشيء لا يعطيه كما هو معلوم.

ولكن الصحابة وجدوا لذلك مخرجاً، ولندع أبا مسعود الأنصاري يحدثنا عن ذلك:

قال أبو مسعود: (كان رسول الله ﷺ إذا أمر بالصدقة انطلق أحدنا إلى السوق فيحامل[1] فيصيب المد)[2]...

يقول أبو مسعود الأنصاري رضي الله عنه، إنه كثيراً ما يأمر ﷺ بالصدقة، فلا يكون في ملك بعضهم ما يتصدق به، فيذهب إلى السوق فيحمل للناس أمتعتهم مقابل أجر.. قد يكون هذا الأجر مداً من تمر أو شعير.. فيأتي فيتصدق به.

وبهذا المسلك تحول الإنسان الذي لا يملك شيئاً إلى عضو فعال إيجابي في هذا المجتمع.

وبهذه التربية فتح الباب أمام كل إنسان أن يكون معطاء، يمثل اليد العليا التي تكلم عنها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

وفي رواية النسائي: ينطلق إلى السوق فيحمل على ظهره[3].

يحصل هذا في الوقت الذي كان العربي فيه يأنف أن يكون صاحب صنعة فضلاً عن أن يقوم بعملية الحمل التي هي مهنة الأرقاء والعبيد يومئذ، أليس هذا تغيراً جذرياً في بنية المجتمع؟! إنه الإسلام.

---

(١) المحاملة: تكون بين اثنين، يكون الحمل من أحدهما والأجرة من الآخر.
(٢) رواه البخاري برقم ٢٢٧٣ و١٤١٧ ومسلم في الزكاة برقم ٧٢.
(٣) فتح الباري ٤/٤٥٠.

وأما تتمة الحديث «وإن لبعضهم لمائة ألف» وفي رواية النسائي: وما كان له يومئذ درهم.. لتبين كيف أن هـذا الجيل وحـده استطاع بفضـل الإسلام أن ينتقل تلك النقلة البعيدة في كل الميادين، والميدان الاقتصادي هو آخرها فالذي كان يحمل على ظهره ليتصدق بأجرته يمتلك يوم حدث هذه الحديث مائة ألف.

* * *

تلك هي معالم التربية الاقتصادية التي نشَّأ عليها الرسول ﷺ أصحابه في هذه المرحلة العصيبة من عمر الدعوة.. وهي المعالم التي لا بد من سلوكها إذا أريد للمسلمين أن يأخذوا دورهم مرة أخرى.

الباب الثالث
المرحلة الثالثة
انتشار الدعوة

تبدأ هذه المرحلة بصلح الحديبية، في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة، وتنتهي بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقد رأينا كيف تم في المرحلة الأولى بناء القاعدة الصلبة التي قامت عليها الدعوة والدولة في المدينة.

كما تم في المرحلة الثانية ردُّ كل اعتداء استهدف النيل من هذه الدعوة... وكان آخر هذه الاعتداءات يمثل تحالف كل قوى الشر من المشركين ـ من قريش وغيرها ـ ومن اليهود، ومن المنافقين.. وما أن انتهت هذه المرحلة، حتى كانت الدعوة قد أخذت زمام المبادرة.

ولهذا نستطيع أن نعد هذه المرحلة ـ الثالثة ـ مرحلة انتشار الدعوة.. هذا الانتشار الذي عم الجزيرة العربية بكاملها، ثم أخذ طريقه بعد ذلك بخطوات ثابتة.. ليصل إلى كل مكان في المعمورة.

الفصل الأول

الوضع السياسي والعسكري

١
صلح الحديبية

كان قد مضى عام كامل على انتهاء غزوة الأحزاب حين أعلن رسول الله ﷺ عزمه على أداء العمرة واستنفر الناس للمشاركة في ذلك.

والمستنفرون هم أهل المدينة المهاجرون والأنصار، وكذلك الأعراب الذين أسلموا حديثاً واستقروا حول المدينة. وهم من أعراب غفار ومزينة وجهينة وأشجع وأسلم والديل(١).

لم تكن المعطيات العامة ـ بغض النظر عن الالتزام الإيماني ـ تشجع على المشاركة في هذه العمرة، لأكثر من سبب:

ـ فالحرب ما زالت قائمة بينه ﷺ وبين قريش، وقد هاجمته في المدينة مرتين خلال سنتين، في أحد والخندق، وذهابه ﷺ للعمرة فيه تحدٍ كبير لقريش مما يتوقع معه بل يغلب على الظن وقوع القتال.

ـ كانت العرب كلها تهاب قريشاً، ولا تريد أن تدخل معها في معركة، بل إن وفد بني عبد بن عدي حين وفدوا على رسول الله ﷺ وأسلموا اشترطوا ألا يقاتلوا قريشاً. فكان من قولهم: يا محمد، نحن أهل الحرم وساكنه وأعز من به، ونحن لا نريد قتالك، ولو قاتلت غير قريش قاتلنا معك ولكنا لا نقاتل قريشاً، وإنا لنحبك ومن أنت منه.. فأسلموا(٢).

(١) انظر تفسير سورة الفتح في تفسير العلامة أبي السعود.
(٢) طبقات ابن سعد ٣٠٦/١.

وإذن فالمعركة لو حدثت ستكون مع قريش، وهذا أمر لا ترغب به كثير من القبائل.

ـ إن قوة الرسول ﷺ ما زالت قليلة في نظر كثير من الناس ولذلك لو حدث قتال فالمتوقع حسب المعطيات المادية أن ينتصر صاحب القوة الأكبر. .

لهذا ولغيره لم يجد استنفار النبي ﷺ من المنافقين الذين هم في المدينة (1) ولا من الأعراب الذين هم في أطراف المدينة أذناً صاغية، فقد كانوا يتوقعون ويظنون ظن السوء، وقد سجل القرآن أمر الفريقين في سورة الفتح:

فقال تعالى في حق المنافقين:

﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ (2).

وقال تعالى في حق الأعراب:

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ۞ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ (3).

---

(1) إلا الجد بن قيس، فإنه خرج ـ فيما يبدو ـ لحاجة خاصة به، ولذلك لم يشترك في البيعة.

(2) سورة الفتح: الآية ٦.

(3) سورة الفتح: الآيتان ١١ ـ ١٢ قال في صفوة التفاسير نقلاً عن التسهيل لعلوم =

وهكذا تذكر الآيات الكريمة ما كان يجول بخاطرهم وخاطر المنافقين من أن قريشاً سوف تحصد المسلمين حصداً، بحيث لن يرجع أحد إلى أهله.

وانطلق ﷺ مع هلال ذي القعدة للسنة السادسة من الهجرة مع ألف وأربعمائة[1] من المهاجرين والأنصار وبعض الأعراب، تجاه مكة لأداء العمرة.

عمرة أم غزوة؟:

عنوَن بعض كتاب السيرة لهذا البحث بـ «غزوة الحديبية» منهم ابن حزم وابن كثير.. فهل كانت غزوة؟

الذي يبدو أن الرسول ﷺ كان على قناعة كاملة بأن قريشاً ما زالت الحاجز بينه وبين الناس، وأنه لا بد من إجراء ما، في سبيل كسر هذا الحاجز. ولعل اللقاء بين الفريقين أثناء أداء مناسك العمرة يكون فاتحة جديدة لعهد سلم بين الفريقين...

لقد اتخذ ﷺ كل الإجراءات التي تؤكد سلامة نيته وأنه يريد العمرة ولا يريد قتالاً، ومن ذلك:

- إحرامه ﷺ وأصحابه.
- سَوْق الهدي.
- خروجه في ذي القعدة وهو من الأشهر الحرم التي يضع الناس فيها السلاح. ولكن إذا كان ﷺ إنما يريد العمرة ولا يريد القتال، فما الذي يضمن له أن قريشاً ستكون راغبة في السلم؟

= القرآن: وقد رأى الأعراب أنه يستقبل عدداً كثيراً من قريش وغيرهم فقعدوا عن الخروج، ولم يكن إيمانهم متمكناً..

(١) وهذا مما يؤكد أن المسلمين كانوا في غزوة الخندق ألف مقاتل فقط.

إن احتمال حدوث القتال أمر قائم إذا لجأت قريش إلى ذلك، ولهذا نجد أن الرسول ﷺ قد اتخذ بعض الاحتياطات لذلك:

ـ لم يكن جميع الصحابة محرمين، مما يدل أن مدلول استنفار النبي ﷺ للناس كان أوسع من كونه للعمرة فحسب. ففي حديث أبي قتادة المتفق عليه قوله: (خرجنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بالقاحة[1] فمنا المحرم ومنا غير المحرم..)[2] وهذا يعني أن غير المحرمين لم يقصدوا العمرة وإنما قصدوا مصاحبة رسول الله ﷺ، لأنهم لو أرادوا العمرة لأحرموا من الميقات الذي تجاوزوه.

ويؤكد هذا: وقوف المغيرة بن شعبة، أثناء المفاوضات، خلف رسول الله ﷺ بكامل عتاده الحربي والمغفر فوق رأسه وهذا يعني أنه غير محرم[3].

ـ وفي حديث مسلم أن رسول الله ﷺ وجَّه فئة من أصحابه في مهمة منهم أبو قتادة فقال لهم: «خذوا ساحل البحر حتى تلقوني»[4] ولعلها كانت مهمة استطلاعية..

ـ تذكر بعض الروايات أنه كان مع رسول الله ﷺ مائتا فارس[5].

ـ كما تذكر أنه قدم أمامه عيناً له من خزاعة[6].

فكل هذه الأمور تدل على أنه ﷺ قد احتاط للأمر وهيأ نفسه للحالة التي قد يحدث فيها قتال على الرغم من الاقتصار في السلاح على السيوف.

---

(١) هو واد على ثلاث مراحل من المدينة.
(٢) رواه البخاري برقم ١٨٢٣ ومسلم برقم ١١٩٦.
(٣) رواه البخاري برقم ٢٧٣١ وهو عند ابن هشام ٢/٣١٣.
(٤) رواه مسلم، كتاب الحج رقم ٦٠.
(٥) انظر شرح الزرقاني على المواهب ٢/١٨١.
(٦) المصدر السابق ٢/١٨١.

ولا شك بأنه ﷺ كان غير راغب بحدوث القتال، وما سعيه لتكثير الذين يخرجون معه إلا ليكون ذلك أدعى لقريش حتى لا تفكر في القتال، لأنها لو رأت المسلمين قلة فربما تبادر لذهنها أنها فرصة للنيل من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يؤيد ذلك أيضاً قوله ﷺ ـ حين بركت ناقته ـ: «حبسها حابس الفيل، والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها»[1].

نخلص من هذا كله إلى أنها عمرة، ولكن الاحتياطات اتخذت لتحويلها إلى غزوة عند الضرورة.

عقد الصلح:

حطّ ﷺ رحاله قريباً من مكة، وكانت بينه وبين قريش مفاوضات، انتهت إلى عقد الصلح بالشروط التالية:

١ ـ وضع الحرب بين المسلمين وقريش عشر سنين، يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض.

٢ ـ من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه.

٣ ـ من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل، فدخلت خزاعة في عهد النبي، ودخلت بنو بكر في عقد قريش.

٤ ـ أن يرجع الرسول وأصحابه من غير عمرة هذا العام، فإذا كان العام القابل خرج عنها المشركون، ودخلها المسلمون، ويقيمون بها ثلاثة أيام، وليس معهم من السلاح إلا السيوف في قربها.

---

(١) رواه البخاري برقم ٢٧٣١.

وعلى الرغم من عدم رضى كثير من الصحابة عن هذه الشروط لما فيها من إجحاف بحق المسلمين، وخاصة ما جاء في الشرط الثاني، الذي كان أبو جندل أول تطبيق له[1]. وكان أبو بصير التطبيق الثاني له[2]، نقول على الرغم من ذلك فقد كانت له نتائج ذات آثار كبرى مما جعل هذا العقد فتحاً كما أشار إليه القرآن الكريم في سورة الفتح. ومن هذه النتائج:

١ ـ اعتراف قريش بالنبي ﷺ وبالمسلمين كقوة لها وجودها وهي في مستوى النِّدِّ لها[3].

٢ ـ فتح الباب أمام القبائل أن تنضوي تحت أحد الجانبين إذا أرادت.

٣ ـ هيبة القوة الإسلامية وخاصة من قبل المنافقين والأعراب الذين كانوا يظنون أن هذه القوة لن تعود ثانية إلى المدينة، الأمر الذي كان له الأثر الكبير في انسياح الدعوة بعد ذلك.

٤ ـ والأهم من هذا كله، أن الرسول ﷺ قد حقق بهذا الصلح الغاية التي كان يصبو إليها، وهي عزل قريش جانباً، وأن يُخلَّى بينه وبين الناس، فقد كانت قريش عقبة كأداء بينه وبين الناس، مما كان يعيق حركة الدعوة بل ربما عطل حركتها في بعض الأحيان. ووضع قريش جانباً ـ ولو إلى حين ـ يتيح للدعوة أن تأخذ بزمام المبادرة وتتحرك الحركة الإيجابية الفعالة. وقد عبر ﷺ عن رغبته تلك أثناء الطريق.. حينما أُخبِر أن قريشاً خرجت تريد منعه من دخول مكة..

---

(١) جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو إلى المسلمين يرسف في الحديد أثناء كتابة العقد وقد حاول ﷺ أن يستثنيه ولكن أباه الذي كان مفوض قريش رفض ذلك فرد إلى المشركين.

(٢) جاء هارباً من مكة إلى المدينة فأرسلت قريش بطلبه، فسلمه ﷺ إليهم، ولكنه فرَّ ممن استلمه وذهب إلى ساحل البحر. وشكل جماعة ضيقت على قريش الأمر الذي دعاهم إلى التنازل عن شرطهم.

(٣) سيرة الرسول ﷺ لمحمد عزت دروزة ٢/٣٥٢.

فقال عند ذلك: «ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب..»[1].

هذه هي الغاية التي يهدف إليها ﷺ، فإن قريشاً كانت حاجزاً بينه وبين سائر العرب. فإقامة الصلح معها يعني زوال هذا الحاجز.

وقد كان هذا من حكمته ﷺ وتخطيطه البعيد المدى الذي غاب عن الصحابة رضي الله عنهم باستثناء أبي بكر رضي الله عنه.. كما كان واضحاً من مسلكهم عند إبرام العقد..

٢
ما بعد الصلح

أمر اليهود:

لم يسرَّ اليهود لقدوم رسول الله ﷺ إلى المدينة، ولكنهم لم يكن باستطاعتهم فعل شيء، وسكتوا مدة من الزمن حيث وجدوا في المنافقين الوسيلة لتنفيذ ما يريدون. ولكنهم لم يستطيعوا الصبر طويلاً، فقد نكث بنو قينقاع العهد، ثم تبعهم بنو النضير، الذين سار أشرافهم إلى خيبر، وبهذا أصبحت خيبر المركز اليهودي الأول الذي حمل لواء العداوة للرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن خيبر انطلق الوفد الذي جمع الأحزاب وقادهم إلى المدينة، وحيي بن أخطب هو أحد رؤوس الوفد البارزين، وهو الذي زيَّن لقريظة الخيانة والغدر فأوردهم ونفسه موارد الهلاك.

وبعد قريظة أصبحت خيبر مركز الخطر، ولذا كانت تحت رقابة شديدة من قبل النبي صلى الله عليه وسلم.

ففي شهر شعبان من السنة السادسة للهجرة بلغ رسول الله ﷺ أن

---

(١) سيرة ابن هشام ٣٠٩/٢. وأصله في البخاري، في قوله ﷺ: «فإن شاؤوا مادتهم مدة، ويخلوا بيني وبين الناس» رقم الحديث ٢٧٣١.

جمعاً من بني سعد بن بكر بفدك، يريدون أن يُمِدوا يهود خيبر. فأرسل إليهم علي بن أبي طالب.. ففرق جمعهم..

وفي شوال من السنة نفسها، أمَّرت يهود خيبر عليهم أسير بن زارم بعد مقتل رافع بن أبي الحقيق، فسارَ أسير في غطفان وغيرهم يجمعهم لحرب رسول الله ﷺ. وبلغ ذلك رسول الله ﷺ.. فوجه إليه عبدالله بن رواحة في سرية، فقتله وأبطل سعيه.

وكانت النوايا مبيتة لقيام اليهود بهجوم واسع النطاق على المدينة، يستعين فيه يهود خيبر بيهود تيماء وفدك ووادي القرى، ولا تستعين بأحد من العرب، اتعاظاً بما حدث في غزوة الخندق[1]..

على أن هذا لم يمنع اليهود من توثيق صلتهم بغطفان[2]..

إذن كان ﷺ على علم بتحركات اليهود الماكرة التي لم تهدأ في يوم من الأيام، وكان أمر قريش يشغله عنهم، أما وقد انتهت حالة الحرب بينه وبين قريش، فلا بد من تصفية الحساب مع خيبر.

لم يطل ﷺ المكوث في المدينة بعد عودته من الحديبية، فقد أقام بها شهر ذي الحجة، وبعض المحرم، ثم خرج في بقية المحرم قاصداً إلى خيبر[3].

ولم يخرج معه إلا الذين كانوا معه في الحديبية.

وخيبر هي مجموعة حصون متقاربة.. ولم يكن من السهل القضاء على يهود خيبر وقد جمعوا كل قوتهم في هذه الحصون، ولما سمعت

---

(١) كان هذا رأي سلام بن مشكم. الواقدي ٢/٥٣٠.

(٢) ما سبق اقتبس من كتاب (من معين السيرة) للمؤلف الطبعة الثالثة ص٣٧٤.

(٣) هذا ما جاء في سيرة ابن هشام ٣٢٨/٢، وقال ابن سعد: إن خروجه ﷺ كان في جمادى الأولى سنة سبع للهجرة ١٠٦/٢. والأول أرجح، لأنه ﷺ ما كان ليتيح لليهود فرصة التجمع.

قريش والعرب بمسيره وقفوا ينتظرون ما يسفر عنه اللقاء المرتقب، ولقد كان من بعضهم أن راهن على غلب أحد الفريقين.

وبدأ ﷺ هجومه بحصار حصن ناعم.. ثم ما زالت الحصون تسقط بأيدي المسلمين الواحد بعد الآخر حتى كان آخرها حصنا الوطيح والسلالم.. وبهذا تم فتح خيبر كاملة.

وبعد انتهاء المعارك، طلب اليهود من الرسول ﷺ أن يبقيهم ليعملوا في الأرض والنخيل ويكون لهم النصف وللمسلمين النصف فأبقاهم بشرط أن يخرجهم متى أراد.

* * *

فدك ووادي القرى وتيماء:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر، قذف الله الرعب في قلوب أهل فدك حين بلغهم ما آل إليه أمر خيبر، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه، فقدمت عليه رسلهم بخيبر، وكانت المصالحة على مثل معاملة أهل خيبر. وكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصة لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب.

وخرج ﷺ من خيبر إلى وادي القرى.. فاستقبلهم اليهود بالرمي. فدفع ﷺ اللواء إلى سعد بن عبادة.. ثم قاتلهم.. حتى نزلوا على ما عامل به أهل خيبر.

فلما بلغ أهل تيماء خبر خيبر وفدك ووادي القرى، صالحوا رسول الله ﷺ على الجزية، وأقاموا بأيديهم أموالهم(١).

* * *

---

(١) البداية والنهاية ٤/٢١٨.

تتابع الغزوات والسرايا:

* وما أن استقر ﷺ في المدينة حتى بلغه أن بني محارب وبني ثعلبة من غطفان قد جمعوا الجموع يريدون المدينة، فخرج في أربعمائة من أصحابه حتى نزل نخلاً ـ وهو موضع من نجد من أراضي غطفان ـ فلقي جمعاً عظيماً، وتقارب الناس ولم يكن بينهم حرب، وقد أخاف الناس بعضهم بعضاً، حتى صلى رسول الله ﷺ بالناس صلاة الخوف، ثم انصرف بالناس(١).

* وفي شهر شعبان من سنة سبع للهجرة بعث ﷺ ثلاث سرايا:
سرية عمر بن الخطاب إلى «تربة»(٢) إلى هوازن..
وسرية أبي بكر الصديق إلى بني كلاب بنجد ناحية ضربة.
وسرية بشير بن سعد إلى بني مرة بفدك..

* وفي شهر رمضان بعث ﷺ سرية بقيادة غالب بن عبدالله الليثي إلى بني عوال وبني عبد بن ثعلبة بالميفعة بناحية نجد..

* وفي شهر شوال بعث بشير بن سعد في سرية إلى يمن وجبار إلى جمع من غطفان..

* وفي شهر ذي القعدة كانت عمرة القضاء..

* وفي شهر ذي الحجة بعث ﷺ سرية بقيادة ابن أبي العوجاء إلى بني سليم..

* وفي شهر صفر من السنة الثامنة للهجرة أرسل سرية بقيادة غالب بن عبدالله الليثي إلى بني الملوح بالكديد..

* وفي صفر أيضاً سرية أخرى بقيادة غالب أيضاً إلى بني مرة بفدك..

---

(١) هذه الغزوة تسمى غزوة ذات الرقاع، وقد اختلف في وقتها، وذكرتها هنا أخذاً برأي البخاري وابن القيم. وانظر تحقيق ذلك في كتاب (من معين السيرة) للمؤلف.

(٢) وهي على أربع ليال من مكة بطريق صنعاء.

* وفي شهر ربيع الأول بعث سرية مع شجاع بن وهب إلى بني عامر بالسيء[1]..
* وفي الشهر نفسه بعث بسرية مع كعب بن عمير إلى ذات أطلاح وراء وادي القرى..
* ثم كانت سرية مؤتة في شهر جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة.
* ثم أرسل ﷺ سرية بقيادة عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل وراء وادي القرى إلى جمع من قضاعة.. وكانت في جمادى الآخرة..
* وفي شهر شعبان سنة ثمان للهجرة، أرسل ﷺ سرية بقيادة أبي قتادة بن ربعي الأنصاري إلى خضرة، وهي أرض محارب بنجد..

* * *

وهكذا نجد أن الحركة كانت شديدة وباتجاهات متعددة، الأمر الذي يرمي إلى تأكيد سلطة الإسلام على تلك المناطق، وتأكيد قوته التي ينبغي أن تكون مرهوبة من قبل الجميع حتى لا يطمع طامع..

٣
فتح مكة وما بعده

* جاء عمرو بن سالم الخزاعي إلى الرسول ﷺ في المدينة ليبلغه أن بني بكر ـ حلفاء قريش ـ قد غدروا بهم وبيّتوهم ليلاً على ماء يسمى الوتير، وأن قريشاً ساعدتهم على ذلك وأمدتهم بالسلاح وبالرجال، ثم ناشده في أبيات له حلفه معهم منها:

يا رب إني ناشد محمداً ... حلف أبيه وأبينا الأتلدا
فانصر هداك الله نصراً أعتداً ... وادع عباد الله يأتوا مدداً

فقال ﷺ: «نصرت يا عمرو بن سالم».

ثم أمر ﷺ بالتجهز وقال: «اللهم خذ على أبصارهم فلا يروني إلا بغتة».

---

(١) ماء على ثلاث مراحل من مكة إلى البصرة.

وكان لرسول الله ﷺ ما أراد، فقد فوجئت قريش بجيوش المسلمين على أبواب مكة.. ونودي في مكة: من دخل داره وأغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل الحرم فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن..

كان عدد جيش المسلمين عشرة آلاف مقاتل بكامل سلاحهم وعتادهم، وإنما قصد ﷺ بمفاجأتهم ألا يتيح لهم التفكير في القتال، فإنه لا يريد إراقة الدماء..

وتم فتح مكة.. كان ذلك في رمضان من العام الثامن للهجرة..

* وانطلقت سرايا المسلمين في كل مكان لهدم بيوت الأوثان.

* كان لفتح مكة صداه في العرب جميعاً، وكانت هوازن قريبة من مكة في مضاربها. فدعا رئيسها مالك بن عوف إلى حرب رسول الله ﷺ، فاجتمع إليه من هوازن ثقيف كلها، واجتمعت نصر وجشم، وسعد بن بكر، وناس من بني هلال..

وخرج إليهم ﷺ في الخامس من شوال سنة ثمان للهجرة.. وكان اللقاء في وادي حنين.. وانتصر المسلمون.. وكانت الغنائم كبيرة..

وعاد ﷺ بعد ذلك إلى المدينة.

* لا شك أن ما حدث في جزيرة العرب قد وصلت أخباره إلى الروم في دمشق.. وبلغ رسول الله ﷺ أن هرقل يجمع جموعاً كثيرة.. وقد أجلبت معه لخم وجذام وعاملة وغسان وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء..

فندب ﷺ الناس، وكان وقت ذلك وقت ضيق وحر شديد، حتى سمي ذلك الجيش «جيش العسرة». وكان ذلك في رجب من السنة التاسعة للهجرة.

وخرج ﷺ في ثلاثين ألفاً.. حتى وصل إلى تبوك، وعندها أتاه ابن رؤبة صاحب أيلة فصالحه على إعطاء الجزية. وأتاه أهل جرباء وأذرح

فأعطوه الجزية[1]، ثم أرسل ﷺ خالد بن الوليد في سرية إلى أكيدر دومة، فجاء به خالد إلى رسول الله ﷺ فحقن دمه وصالحه على الجزية..

ثم عاد ﷺ إلى المدينة..

* ثم كانت بعض البعوث في السنة العاشرة منها:

بَعْثُ خالد بن الوليد إلى بني الحارث بن كعب في نجران.

وبَعْثُ معاذ إلى اليمن..

ثم بعثُ خالد إلى اليمن.. وبعده بعثُ علي بن أبي طالب.

* ثم كان تجهيز جيش أسامة..

* * *

كانت تلك صورة مقتضبة للحركة العسكرية في هذه المرحلة الأخيرة، تبين منها كثافة البعوث وتتابعها، بل وتعددها - في كثير من الأوقات - في وقت واحد وقد كانت النتائج طيبة، فإنه لم يأت آخر هذه الفترة حتى كانت الجزيرة كلها في حوزة الإسلام..

---

(١) «أيلة» قرية على خليج العقبة. و«الجرباء» قرية من أعمال عمان بالبلقاء من أرض الشام. و«أذرح» قرية مجاورة لجرباء.

الفصل الثاني

الوضع السكاني

لا شك بأن صلح الحديبية، الذي وصلت أنباؤه إلى كل مكان في الجزيرة العربية، كان له الأثر الكبير في أمن الناس بشكل عام، مما سهل حركة الانتقال والسفر.

ولا شك بأن المدينة المنورة بعد ذلك باتت مركز نشاط فعال في استقبال الناس، كنشاطها في انطلاق السرايا، كما رأينا في الفصل السابق.

والذي يهمنا الحديث عنه في هذا الفصل هو الذين قدموا إلى المدينة بغية الإقامة فيها والالتحاق بركب المهاجرين.

وليس باستطاعتنا تسجيل كل أولئك الذين قدموا في هذه المدة ولكنا نشير إلى بعض ذلك.

١ ـ كان نعيم بن عبدالله «النحام» ممن أسلم قديماً، فلما هاجر المسلمون إلى المدينة أراد الهجرة، فتعلق به قومه فقالوا: دن بأي دين شئت، وأقم عندنا، وذلك أنه كان ينفق على أرامل بني عدي وأيتامهم. فأقام بمكة حتى كانت سنة ست، فقدم مهاجراً إلى المدينة ومعه أربعون من أهله[1].

٢ ـ أرسل رسول الله ﷺ بعد عودته من الحديبية عمرو بن أمية إلى النجاشي يطلب منه أن يبعث إليه جعفر بن أبي طالب ومن معه من مهاجرة الحبشة، وقد لبى النجاشي هذا الطلب..

وقد نتساءل: لماذا تأخر رجوع هؤلاء المهاجرين إلى هذا الوقت علماً بأن المسلمين قد قامت لهم دولة..

---

(١) انظر الإصابة، وطبقات ابن سعد ١٣٨/٤.

والذي يبدو لي أن حالة الأمن لم تساعد على عودتهم قبل هذا الوقت، فالحرب قائمة بين الرسول ﷺ وبين قريش من جانب، وبينه وبين اليهود من جانب آخر، ونضيف إلى ذلك تسخير بعض القبائل الأخرى بعمليات غادرة كالتي حدثت يوم الرجيع ويوم بئر معونة..

ولهذه المعاني، لما أرسلت قريش تريد فداء عثمان بن عبدالله والحكم بن كيسان اللذين أُسرا في سرية عبدالله بن جحش.. قال ﷺ: «لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا ـ يعني سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان ـ فإنا نخشاكم عليهما، إن تقتلوهما نقتل صاحبيكم» فقدم سعد وعتبة ففداهما، وكانا قد أضلا بعيراً فتأخرا لأجله[1]..

يتضح من هذا انعدام الأمن، فما كان ﷺ ليعرض حياة أصحابه الذين هم في الحبشة إلى الخطر، وآثر بقاءهم هناك حتى أتيحت الفرصة لذلك، والله أعلم.

٣ ـ وقدم مع جعفر وأصحابه: الأشعريون، أبو موسى وأصحابه، ولنترك الحديث لأبي موسى الأشعري يقص علينا خبر ذلك، قال:

(بلغنا مخرج النبي ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه ـ أنا وأخوان لي، أنا أصغرهم، أحدهما أبو بردة والآخر أبو رهم ـ إما قال في بضع ـ وإما قال في ثلاثة وخمسين، أو إثنين وخمسين رجلاً من قومي، فركبنا سفينة، فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، ووافقنا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده، فقال جعفر: إن رسول الله ﷺ بعثنا هاهنا، وأمرنا بالإقامة، فأقيموا معنا، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً، فوافقنا النبي ﷺ حين افتتح خيبر فأسهم لنا ـ أو قال: فأعطانا ـ منها، وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئاً إلا لمن شهد معه، إلا أصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه)[2].

---

(٢) سيرة ابن هشام ٦٠٤/١.

(٢) رواه البخاري برقم ٣١٣٦ ومسلم برقم ٢٥٠٢.

وقد أنزل أبو موسى وجماعته في بقيع بطحان[1].

وهكذا يصل إلى المدينة مع افتتاح خيبر جماعتان، الأولى جعفر وأصحابه[2] والثانية أبو موسى وأصحابه والذين يزيد عددهم على الخمسين.

٤ ـ وفي الوقت نفسه تقريباً يصل وفد ثالث.

قال ابن سعد: لما أسلم الطفيل بن عمرو الدوسي. . دعا قومه فأسلموا وقدم معه منهم المدينة سبعون أو ثمانون أهل بيت، وفيهم أبو هريرة وعبدالله بن أزيهر الدوسي، ورسول الله ﷺ بخيبر، فساروا إليه فلقوه هناك. . ثم قدموا معه المدينة فقال الطفيل: يا رسول الله لا تفرق بيني وبين قومي، فأنزلهم حرَّة الدَّجَّاج[3]. .

من هذا نتبين أنه ما إن وصل خبر الصلح حتى شد الناس من المسلمين ـ أو ممن يريدون الإسلام ـ رحالهم إلى المدينة، وكان على المدينة أن تؤمن السكن والحاجات الأخرى لهؤلاء القادمين.

وأعتقد أن الضغط على المدينة في هذه الفترة يذكرنا ببدء الهجرة حينما بدأ المسلمون يهاجرون من مكة إلى المدينة.

٥ ـ ووصل بعد ذلك سبعون رجلاً جماعة أبي بصير، وهم الذين أرسلت قريش ترجو رسول الله ﷺ قبولهم، كما سنتحدث عنهم في الفصل القادم إن شاء الله تعالى.

٦ ـ ووصل بعد ذلك إلى المدينة عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة، ليعلنوا إسلامهم أمام رسول الله ﷺ وليأخذوا مكانهم في حمل رسالة الإسلام. . .

---

(١) رواه البخاري برقم ٥٦٧ ومسلم برقم ٦٤١.

(٢) ذكر ابن هشام ٢/٣٥٩ ـ ٣٧٠ عدد وأسماء الذين قدموا مع جعفر من مهاجري الحبشة، وكان عدد الرجال ١٦، ومع بعضهم نساؤهم وأولادهم، يضاف إلى ذلك نساء وأولاد الصحابة الذين ماتوا هناك. . ومن النساء أم حبيبة وابنتها.

(٣) طبقات ابن سعد ١/٣٥٣، وانظر البداية والنهاية ٣/١٠٠.

٧ ــ ولا شك بأن هناك كثيرين وصلوا إلى المدينة واستقروا فيها مهاجرين، يدلنا على ذلك كثافة أهل الصفة في هذه المدة، فقد وصل عددهم إلى سبعين كما تذكر بعض روايات أبي هريرة. ومن المعلوم أن الصفة لا تستقبل إلا العزاب ممن ليس لهم أهل ولا أولاد.

٨ ــ وقد رأينا كثرة السرايا ـ في الفصل السابق ـ في هذه المدة التي سبقت الفتح ولا مانع أن نذكر بحديث بريدة في هذا الصدد.

قال بريدة بن الحصيب: كان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه: «وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكفَّ عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية..»(١).

ونعتقد أنه بموجب هذه التعليمات التي كان يزود بها قادة السرايا، فإن كثيراً من الناس في هذه المدة قد تحولوا إلى المدينة أو إلى ما حولها.

وبهذا تصل الكثافة السكانية أقصاها ما قبل الفتح..

٩ ــ على أن أفواج الهجرة هذه قد توقفت بعد فتح مكة، فقد قال ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح» وكان آخر المهاجرين العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم.

* * *

أما ما يتعلق بالمنافقين، فقد خضدت شوكتهم، وأصبحوا أفراداً قلائل بالنسبة إلى هذه الكثرة الكاثرة من المؤمنين، كما أضحت نواياهم مكشوفة، الأمر الذي قيد حركتهم، وإن لم يمنعها نهائياً.

---

(١) رواه مسلم برقم ١٧٣١.

الفصل الثالث

حركة الدعوة
في المرحلة الثالثة

رأينا في الباب السابق كيف أصبحت حركة الدعوة بطيئة للأسباب التي ذكرناها هناك، على أن هناك عوائق مهمة ينبغي اتخاذ الإجراءات وبذل الجهد في سبيل تجاوزها حتى تنطلق الحركة بعد تحررها من هذه العوائق.

العـوائـق:

تتمثل هذه العوائق بأمرين اثنين:

١ ـ مكانة قريش في العرب، وإصرارها على موقفها العدائي من الرسول الكريم ﷺ، ومن دعوته.

٢ ـ ذلك الحلف الوثيق بين اليهود وبين المنافقين، الذي سبب فيما مضى كثيراً من الأزمات، التي كان بعضها سيقضي على الدعوة قضاء تاماً، كالاتفاق الذي حصل بين قريظة والأحزاب أثناء معركة الخندق.

وكان لا بد من علاج لكل من الأمرين.

كانت العمرة ـ أو الغزوة ـ وسيلة احتكاك بين النبي ﷺ وبين أعدائه في مكة، وقد اختار ﷺ الوقت والمكان اختياراً محكماً، فالوقت هو شهر ذي القعدة، وهو أحد الأشهر الحرم، والمكان هو الحرم، فهو قاصد للعمرة، وإذن فمكان الاحتكاك هو الحرم، يضاف إلى ذلك إعلانه أنه لا يريد الحرب وإنما يريد العمرة.. والبرهان على ذلك.. ذلك الهدي الذي قدمه بين يديه..

كان ﷺ راغباً كل الرغبة بأي اتفاق مع قريش يتيح للناس أن يسمعوا

دعوته، أو بتعبير آخر: يجعل قريشاً بعيداً عن ساحة العمليات التي يريد القيام بها. وهذا ما عبر عنه ﷺ بقوله: «ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب..» كما ذكرنا سابقاً.

وقد تحقق ذلك من خلال الشرط الأول من اتفاق الصلح.

وأما العائق الثاني، فقد يسر الله إزالته بعد إنهاء مشكلة العائق الأول ولو كان ذلك إنهاء جزئياً. وقد رأينا كيف تم له ﷺ فتح خيبر وفدك وتيماء..

وبهذا تمكن ﷺ من إطلاق الدعوة من قيودها التي أحيطت بها ورأينا تلك الحركة الدائبة التي ما فترت بعد ذلك.

الآثار العملية للصلح:

كان من آثار الشرط الأول، أن التقى الناس بعضهم ببعض، التقى المسلمون مع أقاربهم وأصحابهم من المشركين، وأتيح لهم لأول مرة أن يعرضوا أفكارهم، وأن ينقلوا صورة صادقة عن الإسلام، هذه الصورة التي طالما وقف طغاة القوم في وجهها، فطلبوا من الناس أن يغلقوا أعينهم، وأن يصموا آذانهم.

يقول الزهري رحمه الله: فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة، ووُضعت الحرب، وآمن الناس بعضُهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة. فلم يكلَّم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثلُ من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر[1].

لقد التقى الأخ بأخيه، والابن بأبيه، والجار بجاره.. وتركوا قريشاً بعد أن أسمعوهم ما يريدون.. تركوهم ليراجعوا أنفسهم على مهل..

وأما الشرط الثاني، وهو الشرط الذي أثار حفيظة المسلمين.. ودفع

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٣٢٢.

بعمر أن يراجع أبا بكر.. ثم يراجع رسول الله ﷺ ليقول له: يا رسول الله، ألست برسول الله؟ قال: «بلى»، قال: أوَ لَسنا بالمسلمين؟ قال: «بلى»، قال: أو لَيسوا بالمشركين؟ قال: «بلى»، قال: فعلامَ نعطي الدنية في ديننا؟ قال: «أنا عبدالله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني..».

كان الشرط مجحفاً في ظاهره، وزاد من هذا الإجحاف مجيء أبي جندل يرسف في قيوده.. ثم رُدَّ إلى المشركين.. ورسول الله ﷺ يقول له: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً».

أما قصة هذا الفرج والمخرج فقد كانت سريعة العطاء:

فما أن وصل الرسول ﷺ إلى المدينة حتى جاءه أبو بصير، وهو ممن حبس بمكة من المسلمين، فأرسلت قريش في طلبه رجلين، فقدما على رسول الله ﷺ فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فقال ﷺ: «يا أبا بصير، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً. فانطلق إلى قومك». قال: يا رسول الله، أتردني إلى المشركين، يفتنوني في ديني؟ قال: «يا أبا بصير، انطلق..».

فانطلق معهما، حتى إذا بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم. فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستله الآخر فقال: أجل والله إنه لجيد.. فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتى برد، وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذعراً». فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل والله صاحبي وإني لمقتول.

فجاء أبو بصير فقال: يا نبي الله، قد والله أوفى الله ذمتك، وأدى عنك، رددتني إلى القوم، وقد امتنعت بديني أن أفتن فيه، أو يعبث بي.

فقال رسول الله ﷺ: «ويل أمه مِسْعَرَ حرب لو كان له أحد»(١).

فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر.

وبلغ المسلمين الذين كانوا احتبسوا بمكة قول الرسول ﷺ له: «ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد» فخرجوا إلى أبي بصير بالعيص، فاجتمع إليه منهم قريب من سبعين رجلاً.

فضيقوا على قريش، لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه، ولا تمر بهم عير إلا اقتطعوها..

فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم وآواهم فلا حاجة لهم بهم، فأرسل إليهم رسول الله ﷺ، فقدموا عليه المدينة(٢).

وهكذا تنازلت قريش عن شرطها الذي أصرت عليه، بل ناشدت الرسول ﷺ أن يتوسط لإنهاء الأمر.

وإذا كان من شيء يستوقف المرء، فهو سرعة بديهة أبي بصير رضي الله عنه في إيجاد المخلص، والاعتصام بدينه..

وبعد ذلك أصبح الباب مفتوحاً إلى المدينة فمن أراد الإسلام من أهل مكة خرج وهاجر إلى المدينة، كما فعل عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة.. وغيرهم كثير..

* * *

ومن آثار الصلح تفرغ الرسول ﷺ لشؤون الدعوة المختلفة، من إرسال السرايا، وقيادة الغزوات، وإرسال الرسل، واستقبال الوفود..

ولهذا كان هذا الصلح فتحاً:

---

(١) أي يصفه بالإقدام في الحرب والتسعير لنارها، وقوله: (لو كان له أحد) أي ينصره ويعاضده، ورمز إلى من بلغه ذلك من المسلمين أن يلحقوا به [عن فتح الباري ٥/٣٥٠].

(٢) انظر صحيح البخاري رقم ٢٧٣١ وسيرة ابن هشام ٢/٣٢٣.

عن البراء رضي الله عنه قال: (تعدون أنتم الفتح فتح مكة ـ وقد كان فتح مكة فتحاً ـ ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية. .)[1].

وعن ابن مسعود قال: (إنكم تعدون الفتح فتح مكة، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية).

وعن جابر قال: (ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية)[2].

وفي صحيح مسلم: لما نزلت سورة الفتح عقب صلح الحديبية، أرسل ﷺ إلى عمر فأسمعه إياها، فقال: يا رسول الله، أوَ فتح هو؟ قال: «نعم»[3].

ولا أدل على كونه فتحاً من المقارنة بين عدد الذين جاؤوا إلى عمرة الحديبية وبين عدد الذين جاؤوا بعد اثنين وعشرين شهراً فقط لفتح مكة، كان عدد الأولين على الرغم من الاستنفار الذي دعاهم إليه الرسول ﷺ ألفاً وأربعمئة، بينما كان عدد الفاتحين عشرة آلاف. . هذا الفارق الكبير في هذه المدة اليسيرة يبين كم كانت حركة الدعوة فاعلة نشيطة، كما يبين أثر الصلح الذي أتاح فرصة الاتصال بين الناس.

* * *

ثم كان فتح مكة. . :

وقد كان من نتائجه إسلام أهل مكة كلهم إلا أفراداً قلائل أسلموا فيما بعد، منهم صفوان بن أمية الذي طلب من الرسول ﷺ أن يكون له الخيار لمدة شهرين. قال ﷺ: «أنت بالخيار فيه أربعة أشهر. .».

ذلك أنه لا إكراه في الدين. .

---

(١) رواه البخاري برقم ٤١٥٠.

(٢) القولان في تفسير ابن كثير عند تفسير سورة الفتح.

(٣) رواه مسلم برقم ١٧٨٥.

ولكن هل كان هذا الإسلام عن قناعة، أم كان بعامل الإكراه المعنوي تحت ضغط وجود السلطة الجديدة؟.

وفي الجواب على ذلك نقول:

إن الرسول ﷺ حينما أعطى الأمان لمن دخل البيت الحرام.. لم يشترط الإسلام..

ولو نظرنا في سكان مكة لرأينا ثلاث فئات:

ـ فئة مسلمة مغلوبة على أمرها حتى كانت قضية أبي بصير، ففرج الله عنها فالتحقت برسول الله ﷺ في المدينة..

ـ وفئة ثانية هي عامة الناس الذين ظلوا على شركهم، استمراراً للواقع الذي كانوا فيه، وحرصاً على رضى السلطة.. وإن كان الكثير منهم على قناعة تامة بالإسلام ولكن لم تكن لديه الجرأة على إعلان ذلك.

ـ وفئة ناصبت الإسلام العداء، يدفعها إلى ذلك حرصها على زعامة مزيفة كأبي سفيان ومن كان على شاكلته.. على أن غالبية هؤلاء كانوا كما قال القرآن الكريم:

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾[1].

فلما فتحت مكة.. أسلم عامة الناس، بعد أن ارتفع عنهم طغيان السلطة، وأحسّوا بالطمأنينة.. وكان بعضهم يتمنى لو كان أسلم من زمن بعيد.

أما كبار القوم فقد وصلت إليهم القناعات بعد ذلك بوسائل مختلفة لا مجال لذكرها.. ولكنهم جميعاً حاولوا قدر طاقتهم بذل الجهد في الدعوة إلى الإسلام تكفيراً عن موقفهم ضده في أول الأمر.

وإذن فلم يكن هناك إكراه.. ويؤيد هذا أنه لما كانت الردة.. لم ترتد مكة وثبتت على إسلامها.

* * *

(١) سورة النمل: الآية ١٤.

ولما فتحت مكة وأسلم أهلها تتابع بعد ذلك إسلام القبائل الواحدة بعد الأخرى.

ذلك أن العرب قاطبة كانت تنتظر ما تؤول إليه الحال بين الرسول ﷺ وبين قومه، الذين هم سدنة الدين وحماة الوثنية... فلما أسلمت مكة.. بادر الناس بإسلامهم.

روى البخاري عن عمرو بن سلمة قال: (.. وكان يمر بنا الركبان، فنسألهم: ما للناس، ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون: يزعم أن الله أرسله، أوحى إليه، أو أوحى الله بكذا، فكنت أحفظ ذلك الكلام فكأنما يقرُّ في صدري، وكانت العرب تَلوَّم[1] بإسلامهم الفتح، فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم، وبدر أبي قومي بإسلامهم، فلما قدم قال: جئتكم ـ والله ـ من عند النبي ﷺ حقاً..)[2].

قال ابن كثير: إن أحياء العرب كانت تتلوم بإسلامها فتح مكة، يقولون: إن ظهر على قومه فهو نبي، فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجاً، فلم تمض سنتان حتى استوسقت[3] جزيرة العرب إيماناً ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام، ولله الحمد والمنة[4].

الكتب والرسل:

لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية ـ التي أبرم الصلح فيها ـ في ذي الحجة سنة ست، أرسل الرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكتب إليهم كتباً[5].

---

(١) أي تنتظر، وإحدى التائين محذوفة.
(٢) رواه البخاري برقم ٤٣٠٢.
(٣) استوسق: من وسق الشيء: أي جمعه.
(٤) في تفسير سورة النصر.
(٥) السيرة لابن هشام ٢/٦٠٦ وطبقات ابن سعد ١/٢٥٨.

فخرج ستة نفر منهم في يوم واحد، وذلك في المحرم سنة سبع[1].

وفي صحيح مسلم، عن أنس: (أن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كل جبار، يدعوهم إلى الله تعالى، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم)[2].

وهكذا نلاحظ أن النبي ﷺ باشر الدعوة إلى الله تعالى على نطاق عالمي بعد عودته من الصلح مباشرة، فبعث بالرسل يحملون رسائله إلى كل الملوك بما في ذلك كسرى وقيصر أكبر طاغيتين في ذلك العصر.

ويحسن بنا أن نذكر بعض الرسل وبعض من أرسلوا إليهم:

فبعث ﷺ دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر ملك الروم.

وبعث عبدالله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك الفرس.

وبعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة.

وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس ملك الإسكندرية.

وبعث شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني.

وبعث سليط بن عمرو العامري إلى هوذة بن علي الحنفي.

وهؤلاء هم أول من خرج من رسل رسول الله ﷺ.. ثم تتابع إرسال الرسل بعد ذلك[3].

وكانت نصوص هذه الكتب تدعو إلى عبادة الله وحده وعدم الشرك، ونسوق نص كتابه ﷺ إلى هرقل كمثال عليها:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم. من محمد رسول الله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين[4]،

---

(١) طبقات ابن سعد ٢٥٨/١.

(٢) رواه مسلم برقم ١٧٧٤.

(٣) طبقات ابن سعد ٢٥٨/١ وما بعدها.

(٤) هم الفلاحون.

ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون»[1].

وقد كانت ردود هؤلاء الملوك مختلفة، وقد مزق كسرى الكتاب، فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يمزقوا كل ممزق[2] وسكت بعضهم. وأرسل بعضهم بهدايا إلى النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

وقد وصلت هذه الكتب إلى كل الملوك يومئذ كما جاء في صحيح مسلم[3]. وهكذا بينما كان رسل رسول الله ﷺ ينتشرون في كل مكان لتبليغ الدعوة كانت سرايا المسلمين تنتشر في كل مكان داخل الجزيرة لتبلغ الدعوة أو لتدفع عدواناً مبيتاً.

وهكذا تواكبت الدعوة إلى الله تعالى في مجاليها العالمي والإقليمي. وقد كان لهؤلاء الرسل أثر واسع في انتقال عدد لا بأس به من الأمراء إلى الإسلام وتبعهم بعد ذلك أقوامهم.

وقد استمر إرسال هؤلاء الرسل حتى ما قبل وفاته صلى الله عليه وسلم.

الـوفـود:

قال ابن إسحاق: وإنما كانت العرب تربَّص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش وأمر رسول الله ﷺ، وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت الحرام، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقادة العرب لا ينكرون ذلك. وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله ﷺ وخلافه، فلما افتتحت مكة، ودانت له قريش، ودوخها الإسلام، وعرفت العرب أنه لا

---

(١) رواه البخاري برقم ٢٩٤١ ومسلم برقم ١٧٧٣.
(٢) رواه البخاري برقم ٤٤٢٤.
(٣) انظر تفصيل ذلك في طبقات ابن سعد ١/٢٥٨ - ٢٩٠.

طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته فدخلوا في دين الله ـ كما قال عز وجل ـ أفواجاً، يضربون إليه من كل وجه..[1].

وقدمت الوفود على المدينة من كل مكان..

ومجيء الوفود إنما هو ثمرة من ثمار حركة الدعوة، ويعد كتّاب السيرة السنة التاسعة سنة الوفود، وهو ما ذهب إليه ابن هشام.

قال ابن إسحاق: لما افتتح رسول الله ﷺ مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه.

قال ابن هشام: حدثني أبو عبيدة أن ذلك في سنة تسع، وأنها كانت تسمى سنة الوفود[2].

والواقع أن عدداً كبيراً من الوفود قدم المدينة في السنة التاسعة، ولكن يجب أن نذكر أن بعض الوفود قدمت قبل ذلك منها: وفد مزينة ووفد عبدالقيس، ووفد أشجع.. فقد قدمت في السنة الخامسة، وقد أشرت إلى ذلك في الفصل الثالث من الباب الثاني من هذا القسم.

كما قدم وفد صداء لما انصرف ﷺ من الجعرانة أي في العام الثامن..[3].

كما تأخرت بعض الوفود إلى العام العاشر ومنها: وفد محارب، ووفد خولان، ووفد بني الحارث بن كعب[4]، ووفد غامد[5].

كما تأخر وفد النخع إلى العام الحادي عشر في منتصف المحرم منه. فكان آخر الوفود[6].

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٥٦٠.

(٢) سيرة ابن هشام ٢/٥٥٩ ـ ٥٦٠.

(٣) طبقات ابن سعد ١/٣٢٦.

(٤) طبقات ابن سعد ١/٢٩٩، ٣٢٤، ٣٣٩.

(٥) زاد المعاد ٣/٦٧١.

(٦) طبقات ابن سعد ١/٣٤٦، زاد المعاد ٣/٦٨٦.

وقد تحدث ابن سعد عن هذه الوفود وقد زاد عددها كما أوردها في الجزء الأول من طبقاته على سبعين وفداً.

والأمر الذي نحب أن نلفت النظر إليه، أن هذه الوفود جميعاً ليست ذات مهمة واحدة، بل تعددت أهداف الوافدين.. كما تعددت الدوافع إلى ذلك.

فمن هذه الوفود من كان مسلماً جاء يؤكد ولاءه والتزامه.

ومنها من كان مشركاً جاء يعلن إسلامه[1].

ومنها من جاء من تلقاء نفسه رغبة في الإيمان.

ومنها من جاء بدافع من الجو العام..[2].

ومنها من لم يأت حتى قدمت عليهم السرايا، أو أرسل إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم..[3].

ولكن هذه الوفود جميعاً تؤكد أمراً واحداً، هو ولاؤها لراية الإسلام وتأكيد التزامها به.

يدخلون في دين الله أفواجاً:

تحررت حركة الدعوة بعد فتح مكة من كل العوائق، سواء أكانت مادية عسكرية، أم كانت نفسية تقليدية.. فقد أصبحت قوة المسلمين هي القوة

---

(١) ومنهم وفد محارب، الذي قدم سنة عشر، وكانوا عشرة نفر، فأنزلوا دار رملة بنت الحارث، وكان بلال يأتيهم بغداء وعشاء، فأسلموا، وقالوا: نحن على من وراءنا. [طبقات ابن سعد ١/٢٩٩].

(٢) يبين لنا ذلك الخبر التالي: قال الواقدي: عن أبي النعمان، عن أبيه من بني سعد هذيم، قال: قدمت على رسول الله ﷺ وافداً في نفر من قومي، وقد أوطأ رسول الله ﷺ البلاد غلبة، وأداخ العرب، والناس صنفان: إما داخل في الإسلام راغب فيه، وإما خائف من السيف. [زاد المعاد ٣/٦٥٢].

(٣) ومن هؤلاء، بنو الحارث بن كعب، فقد بعث ﷺ خالد بن الوليد في أربعمائة من المسلمين في شهر ربيع الأول سنة عشر إليهم بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً، ففعل.. فاستجابوا له.. وأرسلوا وفدهم [طبقات ابن سعد ١/٣٣٩] ومنهم كذلك صداء.. [طبقات ابن سعد ١/٣٢٦].

الأولى والوحيدة في الجزيرة. . وقد رأى الناس بأم أعينهم أن تلك الأصنام لا تضر ولا تنفع وأن سرايا رسول الله ﷺ قد أزالتها عن بكرة أبيها ولم يحدث نتيجة لذلك أن تغير النظام الكوني. . ؟! وزالت الحجب عن الأعين، وتحرر الفكر من الوهم والخرافة بعد أن سيطرا عليه عدة قرون. . وزال طغيان الجاهلية. .

وأتيح للأعين أن ترى الطريق الحق. وأتيح للفكر أن يصحو من سكرته. . وعندها دخل الناس في دين الله أفواجاً.

قال ابن كثير: لما فتح الله مكة، دخلوا في دين الله أفواجاً، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام ولله الحمد والمنة.

وحتى نستطيع تقدير سعة انتشار الدعوة في هاتين السنتين بعد الفتح، يمكننا الاستفادة من عدد الذين حجوا حجة الوداع مع رسول الله ﷺ. والذين زاد عددهم على مائة ألف. بينما كان عدد الفاتحين لمكة قبل سنتين عشرة آلاف.

ومما ينبغي إيضاحه هنا أن هذه السرعة في انتشار الإسلام لم تكن بعامل القوة أو الإكراه. . فلا إكراه في الدين. . ولم تكن إلا بسبب واحد هو إزالة العوائق التي كانت تمنع وصول الدعوة إلى الناس.

بل نستطيع القول بأن ثقافة الإسلام، وآيات القرآن، كانت قد وصلت إلى كل مكان من الجزيرة قبل ذلك، بل قد وصلت إلى القلوب، قبل أن تقرَّ بها الألسنة. وإن حديث عمرو بن سلمة الذي ذكرناه قبل قليل ليعطينا تصوراً صحيحاً ودقيقاً كيف أن الناس في كل جزيرة العرب كانوا يتناقلون أخبار الإسلام بل ويتناقلون ما نزل من الآيات. ولنستمع إلى حديثه مرة أخرى قال: (. . وكان يمر بنا الركبان، فنسألهم ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ فيقولون: يزعم أن الله أرسله، أوحى إليه، أو: أوحى الله بكذا، فكنت أحفظ ذلك الكلام فكأنما يقر في صدري. .).

وهكذا يتناقل الناس أخبار الإسلام، بل والآيات القرآنية، حتى حفظ عمرو بن سلمة قسماً لا بأس به من القرآن الكريم وذلك قبل أن يسلم أهله.. وهو يومئذ غلام صغير.

وهكذا جاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجاً..

الدعوة والمجال العالمي:

رأينا كيف أن الرسول الكريم ﷺ قد باشر عمله في هذا الميدان مع مطلع السنة السابعة للهجرة حينما أرسل رسله يحملون كتبه إلى الملوك..

وكانت غزوة مؤتة رداً عسكرياً على قتل الحارث بن عمير رسول رسول الله ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر الغساني.. وبداية لخوض غمار المعركة الخارجية في سبيل إيصال دعوة الله إلى الناس كل الناس.

ثم كانت غزوة تبوك، والتي بينت أن دعوة الإسلام ماضية في طريقها، وأن ما ربي عليه المسلمون من «عالمية هذا الدين» لم تكن مجرد فكرة، وإنما هي سمة من سمات هذه الدعوة، لا بد من تحقيقها في الواقع بعد أن تحققت في النفوس المؤمنة..

ولقد حققت هذه الغزوة أغراضها.. وبينت المنهج الإسلامي. من خلال التطبيق العملي، في كيفية معاملة أهل الكتاب ممن يرغب البقاء على دينه، وكيف تؤخذ منه الجزية تطبيقاً لنص القرآن الكريم.

وبهذا نتبين أن الرسول ﷺ لم يلتحق بالرفيق الأعلى حتى كان العرب جميعاً قد دانوا بهذا الدين الحنيف. وحتى وضعت الدعوة خطوات ثابتة في طريق التبليغ العالمي.

ولقد توفي ﷺ وهو يؤكد أمره على إنفاذ جيش أسامة، وما جيش أسامة إلا الخطوة الثانية بعد تبوك في هذا الطريق..

استمرار الكيد والتآمر:

على الرغم من فتح مكة، وخضوع معظم الجزيرة العربية لدولة الإسلام، فإن الكيد للإسلام والمسلمين لم يتوقف، ولم ترهب المتآمرين قوة الدولة، وإنما طوروا عملهم في الكيد مع ما يتناسب والوضع الجديد.

إن أمر النفاق في أواخر هذه المرحلة أصبح مكشوفاً ظاهراً، غير خاف على أحد، نتيجة لسلوكهم السيىء، وكذلك لنزول الآيات التي كانت تفضحهم، لهذا فقد كانوا بحاجة إلى مركز يؤمن لهم اللقاء دون أن تمتد إليه الأعين، وبعد أن أعملوا فكرهم وجدوا ضالتهم في بناء مسجد يكون مركزاً لأعمالهم، والمسجد مكان مأمون، ولن تمتد إليه الأعين، وحتى لو حصل هذا فالحجة قوية في أنهم كانوا في صلاة..

وبني المسجد.. وزيادة في حبك خيوط القصة، وإتقان إخراجها، دعي الرسول ﷺ ليصلي فيه.. وكان يومئذ على وشك الانطلاق إلى غزوة تبوك.. فوعدهم أن يكون ذلك بعد عودته..

وفي طريق عودته ﷺ من تبوك نزل عليه جبريل ليخبره بقصة المسجد، فأرسل إليه من هدمه وحرقه.. ونزل في ذلك قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[1].

إنه درس في الوعي للعوائق التي تهيأ لعرقلة سير الدعوة، والتي قد تكون تحت عناوين غاية في البعد عن طبيعة الكيد والمكر، وفي هذا ما فيه من

---

(١) سورة التوبة: الآيتان ١٠٧ ـ ١٠٨.

البلاء، ولذا كان على المسلمين في المقابل أن يكونوا على درجة من الوعي، فلا تخدعهم العناوين والمظاهر عن حقائق الأمور.

هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن قوة الدولة إذا لم تمنع من استمرار الكيد. بل ومحاولة اتخاذ مراكز له.. فهذا يعني بدوره: أنه ينبغي أن تكون أعين المسلمين يقظة حتى ولو كانوا في وضع من القوة متين.. فإن تخطيط الكيد عادة يكون بعيد الغاية..

حركة الدعوة والاقتصاد:

إن المتأمل لحركة الدعوة خلال العهد المدني بكامله، يظهر له بوضوح أن الوضع الاقتصادي لم تكن له السيطرة على هذه الحركة، سواء في ذلك الوقائع التي كانت تفرض على المسلمين، أو الوقائع التي تكون المبادأة فيها من قبل المسلمين.

وهذا جانب مهم تتميز به حركة الدعوة الإسلامية، الأمر الذي ينبغي الوقوف عنده والإفادة منه.

إن هذا الاتجاه لا يعني الاستهانة بالجانب الاقتصادي، ولكنه بالتالي لا يعطيه حق الهيمنة على الحركة.. لأنه والحالة هذه ربما أدى إلى وقوف الحركة وقوفاً كاملاً حيث يكون الوضع الاقتصادي غير ملائم.

وقد يتساءل بعضهم فيقول: كيف استطاعت الدعوة بحركتها أن تتجاوز هذا العائق فلا يكون له دور كبير في عرقلة سيرها؟.

وفي الجواب على ذلك، لا بد من أن نذكر بأمرين:

١ ـ إن منهج التربية الذي تبناه المنهج الإسلامي يربي أبناءه على الصبر في كل الأجواء وتجاه كل المواقف، وقد رأينا ذلك تفصيلاً في القسم الأول من هذه الدراسة.

هذا الأسلوب من التربية يتكفل بإيجاد الجيل القوي القادر على تخطي الصعاب، وتجاوز العقبات، وتحمل البلاء..

٢ ـ إن الرصيد الاقتصادي لحركة الدعوة، ليس المال الموجود في بيت المال فحسب، وإنما هو ما يمتلكه المسلمون، ومن هنا كان التأكيد الكبير من الآيات القرآنية على الجهاد بالمال والنفس على حد سواء، بل إن بعض الآيات لتقدم المال على ذكر الأنفس.

قال تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ . .﴾[3].

وإذن فالدعوة تمتلك رصيداً ضخماً، هو إمكانية الصبر لدى القائمين بها، وتربية في البذل والعطاء للأنفس والأموال. . هذا الرصيد هو الذي حرر حركتها وجعلها حرة طليقة لا تثقلها القيود الاقتصادية. .

وفي ضوء هذا المسلك لحركة الدعوة نستطيع تفسير كثير من المواقف التي لا يمكن تفسيرها بغير المعطيات السابقة ومن ذلك على سبيل المثال:

* سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى سيف البحر. . والتي فني فيها زاد المسلمين حتى أصبح نصيب الواحد منهم تمرة واحدة في اليوم. .

* وفي غزوة ذات الرقاع لم تكن وسائل النقل متوفرة. حتى كان الستة من المسلمين يعتقبون بعيراً واحداً، ونتيجة لذلك ذهبت نعالهم، واضطروا أن يعصبوا أرجلهم بالخرق. . ولذا سميت الغزوة بذات الرقاع.

* وفي غزوة تبوك، التي سمي جيشها «جيش العسرة» أمثلة كثيرة على ذلك. . والأمثلة بعد ذلك كثيرة كثيرة. .

---

(١) سورة التوبة: الآية ٤١. (٢) سورة النساء: الآية ٩٥.
(٣) سورة الصف: الآيتان ١٠ ـ ١١.

الفصل الرابع

الوضع الاقتصادي

أسباب الضيق:

إن الظروف التي مرَّت بها المدينة حتى الآن ظروف قاسية، فهناك ازدياد مستمر في عدد السكان نتيجة للهجرة، وهذه الزيادات تحتاج إلى رعاية ريثما يؤمن الواحد منهم مورد رزق له، كما أن الوضع التجاري قد تأثر نتيجة للحروب، فقريش التي كان لها تعامل تجاري مع المدينة قد توقف منذ الهجرة، ثم إن البلد الصغير حينما يتسع طفرة لا بد أن يؤثر ذلك على الوضع المادي لجميع الأفراد.

لهذا كله ولغيره من الأسباب استمرت حال الضيق على المسلمين، وكان عليهم أن يصبروا في هذا الميدان كما صبروا في كل الميادين الأخرى، ولقد مارس المهاجرون، أنواعاً من الصبر ـ كما رأينا ـ، وكذلك الأنصار فيما بعد..

ولا بأس أن ننقل بعض النصوص التي تصور الحال الاقتصادية التي صبر عليها المسلمون سنين طوالاً..[1].

* عن عبدالله بن عمر: أنه قال: (كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار فسلم عليه.. فقال ﷺ: «يا أخا الأنصار، كيف أخي سعد بن عبادة؟» فقال: صالح، فقال ﷺ: «من يعوده منكم؟» فقام وقمنا معه، ونحن بضعة عشر، ما علينا نعال ولا خفاف ولا قلانس ولا قمص، نمشي في تلك السباخ حتى جئناه..)[2].

---

(١) حاولت أن أذكر من النصوص ما يغلب على الظن أنه كان في هذه المدة التي نتحدث عنها، أو ما كان يمثل وصفاً عاماً لجميع المراحل المدنية.

(٢) رواه مسلم برقم ٩٢٥.

هكذا كان الضيق في اللباس، ولا شك أن ضيقاً آخر في العيش كان يصاحبه.

* وعن محمد بن المنكدر قال: صلى جابر في إزار قد عقده من قبل قفاه، وثيابه موضوعة على المشجب. قال له قائل: تصلي في إزار واحد؟ فقال: إنما صنعت ذلك ليراني أحمق مثلك. وأينا كان له ثوبان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم؟[1].

* قال أبو هريرة: قسم رسول الله ﷺ بين أصحابه تمراً، فأصابني منه سبع تمرات إحداهن حشفة[2].

* وعن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟» قالا: الجوع، يا رسول الله: قال: «وأنا، والذي نفسي بيده، لأخرجني الذي أخرجكما..»[3].

* وعن أنس بن مالك قال: رأى أبو طلحة رسول الله ﷺ مضطجعاً في المسجد يتقلب ظهراً لبطن، فأتى أم سليم فقال: إني رأيت رسول الله ﷺ.. وأظنه جائعاً.. هل من شيء؟ فقالت: نعم. عندي كِسَرٌ من خبز وتمرات، فإن جاءنا رسول الله ﷺ وحده أشبعناه، وإن جاء آخر معه قلَّ عنهم..[4].

تلك بعض النصوص التي تبين الخط العام الذي عاشه النبي الكريم ﷺ وصحابته رضي الله عنهم. ولم تتحسن هذه الحال إلا في بعض الأوقات من الأيام الأخيرة من هذه المرحلة.

---

(١) رواه البخاري برقم ٣٥٢.
(٢) رواه البخاري برقم ٥٤٤٠.
(٣) رواه مسلم برقم ٢٠٣٨.
(٤) رواه مسلم برقم ٢٠٤٠.

غنائم خيبر:

وتم فتح خيبر مع مطلع العام السابع للهجرة..

وكانت الغنائم نوعين: الأرض بما فيها من نخيل.. والأشياء المنقولة.

أما الأرض فقد اتفق رسول الله ﷺ مع اليهود على أن يعطيهم إياها على أن يعملوا فيها ويزرعوها ولهم شطر ما يخرج منها.. ويخرجهم ﷺ متى أراد[1] وأما الشطر الآخر فإنه يوزع في حينه على المجاهدين.. وفقاً لما شرع الله ورسوله.

وأما الأشياء المنقولة.. فقد بيعت ووزعت على المجاهدين بعد إخراج الخمس.

قال ابن سعد: وأمر رسول الله ﷺ بالغنائم فجمعت، واستعمل عليها فروة بن عمرو البياضي، ثم أمر بذلك فجزىء خمسة أجزاء. وكتب في سهم منها لله، وسائر السهمان أغفال.. فأمر ببيع الأربعة الأخماس في من يزيد، فباعها فروة، وقسم ذلك بين أصحابه.

وكان الذي ولي إحصاء الناس زيد بن ثابت، فأحصاهم ألفاً وأربعمائة، والخيل مائتي فرس..

وكان الخمس الذي صار إلى رسول الله، يعطي منه على ما أراه الله من السلاح والكسوة، وأعطى منه أهل بيته.. واليتيم والسائل[2].

ولا شك أن الوضع الاقتصادي قد تحسَّن نوعاً ما. فأصبح للصحابة مورد سنوي من خيبر حينما يأتي الموسم، كما أنه أصاب كلًّا منهم نصيبه من قيمة الغنائم المنقولة. ولهذا المعنى قالت عائشة رضي الله عنها: «لما فتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر»[3]. وقال ابن عمر: ما شبعنا حتى فتحنا خيبر[4].

---

(١) رواه البخاري برقم ٤٢٤٨.
(٢) طبقات ابن سعد ٢/١٠٧.
(٣) رواه البخاري برقم ٤٢٤٢.
(٤) رواه البخاري برقم ٤٢٤٣.

ردّ المنائح:

تحدثنا في الباب السابق كيف أن الرسول ﷺ أمر برد المنائح إلى الأنصار وذلك بعد توزيع غنائم قريظة.

ويبدو من النصوص أن الرد الذي حصل بعد قريظة كان لمعظم المنائح، ولكن بعضها كانت الحاجة ماسَّة لاستمراره فبقي بأيدي بعض المهاجرين.

والآن وبعد أن فتحت خيبر وأصبح بين أيدي المهاجرين ما يغنيهم، فقد قاموا بردّ هذه المنائح إلى أصحابها من إخوانهم الأنصار، ويبدو أن هذه المنائح كانت من الثمار، أو كان أكثرها كذلك، كما يشير إليه الحديث التالي:

قال ابن شهاب: أخبرني أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ لما فرغ من قتال أهل خيبر وانصرف إلى المدينة، ردَّ المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم من ثمارها[1].

الصفّة:

كان للصفة دور كبير في هذه المدة من الزمن ولنترك لأبي هريرة رضي الله عنه ينقل لنا مشاهدته، ومن المعلوم أن أبا هريرة إنما قدم المدينة بعد خيبر، الأمر الذي يحدد لنا تاريخ هذا الحديث وأنه في هذه المرحلة.

قال أبو هريرة: (رأيت سبعين من أهل الصفة، ما منهم رجل عليه رداء، إما إزار، وإما كساء، قد ربطوا في أعناقهم، فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته)[2].

وقد أشرنا من قبل إلى أن هذا الضغط على الصفة، إنما كان بسبب ضغط المهاجرين الجدد الذين وفدوا إلى المدينة بعد الصلح.. والذين

---

(١) رواه البخاري برقم ٢٦٣٠ ومسلم برقم ١٧٧١.

(٢) رواه البخاري برقم ٤٤٢.

تزايدت أعدادهم طرداً مع مرور الزمن حتى كان فتح مكة.

وهذا يشير بدوره إلى أن ضغط هؤلاء المهاجرين كان أكبر من أن تسدَّ حاجاتهم غنائم خيبر.. ولهذا استمر الضيق الاقتصادي على ما كان عليه.

دار الضيافة:

واتخذ ﷺ داراً يُنزِل فيها الوفود، وهي دار رملة بنت الحارث من الأنصار، زوجة معاذ بن عفراء[١].

ونذكر أن بعض الوفود أنزلت في الصفة، ولكن لما كثر عدد الوفود وكان بعضهم غير مسلم.. ولأسباب أخرى.. من إشعارهم بالعناية بهم، كان إنزالهم بهذه الدار: ونذكر على سبيل المثال بعض الوفود التي نزلت فيها.

منها: وفد محارب. وكان بلال يأتيهم بغداء وعشاء.. فأسلموا[٢].

ومنها: وفد تغلب: وكانوا مسلمين ونصارى[٣].

ومنها: وفد حنيفة: وقد أجريت عليهم ضيافة، فكانوا يؤتون بغداء وعشاء، مرة خبزاً ولحماً، ومرة خبزاً ولبناً، ومرة خبزاً وسمناً، ومرة تمراً نثر لهم[٤].

ومنها: وفد النخع وكان عددهم مائتي رجل[٥].

ومنها: وفد بني فزارة[٦].

---

(١) لم أستطع تعرف سبب اتخاذ هذه الدار، وهل تبرعت هي بها؟ أم كانت دارها واسعة فاختيرت لذلك. فقد ذكر الواقدي عند ذكر وفد سلامان أنه ﷺ قال لثوبان: أنزل هؤلاء حيث ينزل الوفد، فخرج بنا ثوبان حتى انتهى بنا إلى دار واسعة، وفيها نخل، وفيها وفود من العرب، وإذا هي دار رملة بنت الحارث [عن كتاب نظام الحكومة النبوية، المسمى بالتراتيب الإدارية ١/٤٤٦].

(٢) طبقات ابن سعد ١/٢٩٩.

(٣) طبقات ابن سعد ١/٣١٦.

(٤) طبقات ابن سعد ١/٣١٦.

(٥) طبقات ابن سعد ١/٣٤٦.

(٦) المواهب اللدنية للقسطلاني ٢/٢٨٦.

مسؤولية الدولة:

إن الوفود التي قدمت على رسول الله ﷺ عادت إلى بلادها ومعها الهدايا والصِلات والجوائز. وقد يتساءل إنسان فيقول من أين قدّم ﷺ ذلك؟.

ونقول في الجواب على ذلك: إن جلَّ الوفود كان قدومها في السنة التاسعة للهجرة، وقد علمنا مما سبق أن الخمس من إنتاج خيبر كان تحت تصرف رسول الله ﷺ، وكذلك نصف إنتاج فدك، فقد كانت فيئاً خاصاً برسول الله ﷺ.. وكذلك جزية أهل تيماء..

هذه الموارد وما يشبهها بدأت تشكل نواة دخل للدولة، ولقد وصلت الحال في السنتين الأخيرتين بعد الفتح أن نثر المال في المسجد وأعطي الناس جميعاً منه، حتى أخذ العباس عم النبي ﷺ ما يستطيع حمله.

والدولة في المنهج الإسلامي، كما تطالب الناس في وقت الشدة أن يأخذوا دورهم في البذل والعطاء، فهي حينما يتوفر لديها الغنى فإنه يعود إلى الناس..

وقد رأينا في فصل سابق كيف أن الرسول ﷺ لم يكن يصلي على من مات وعليه دين. فلما تغير الوضع الاقتصادي للدولة، بين أن ذلك الحكم كان حكماً مؤقتاً..

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بالرجل المتوفى عليه الدين، فيسأل: هل ترك لدينه قضاء؟ فإن حُدِّث أنه ترك وفاء صلى عليه، وإلا قال: «صلوا على صاحبكم». فلما فتح الله عليه الفتوح قال: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفي وعليه دين فعليَّ قضاؤه، ومن ترك مالاً فهو لورثته»[1].

---

(١) رواه البخاري برقم ٢٢٩٨ ومسلم برقم ١٦١٩ واللفظ له.

وفي رواية: «من ترك مالاً فلورثته، ومن ترك كَلًّا[1] فإلينا»[2].

وفي رواية أخرى قال ﷺ: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة اقرؤوا إن شئتم ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، فأيما مؤمن مات وترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني، فأنا مولاه»[3].

وهكذا بين ﷺ مسؤولية الدولة تجاه الأفراد بكلمات يسيرة.

ولقد عاش المسلمون يجنون ثمرة هذا التشريع العظيم في كل وقت استقام فيه حكامهم مع منهج الله تعالى..

وقد سجل التاريخ ذلك في عهد الخلفاء الراشدين جميعهم. وفي عهد الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز، وفي عهد صلاح الدين.

وسوف يسجل ذلك كلما أتيح للإسلام أن يأخذ طريقه إلى حيز التطبيق.

---

(١) المراد هنا العيال، وأصله: الثقل.
(٢) رواه البخاري برقم ٢٣٩٨، ومسلم في كتاب الفرائض برقم ١٧.
(٣) رواه البخاري برقم ٢٣٩٩ واللفظ له، ومسلم في كتاب الفرائض برقم ١٦.

الفصل الخامس

التربية
في المرحلة الثالثة

نقصر الحديث في هذا الفصل على جانبين من جوانب التربية هما:

- التربية الجهادية.
- والتربية الاقتصادية.

١
التربية الجهادية

بين مرحلتين:

كانت سورة «محمد ﷺ»[١] قد نزلت - في أغلب الظن - بين غزوتي أحد والأحزاب، وفيها حث للمؤمنين على المشاركة في أعمال الجهاد، وعدم التباطؤ، وفيها تلك اللهجة القوية التي تتناسب مع أهداف السورة وما سميت به وهو «القتال». ويحسن بنا أن نذكر بعض آياتها..

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ (الآية ٤).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (الآية ٧).

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ (الآية ١١).

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ (الآية ٣١).

---

(١) تسمى هذه السورة أيضاً سورة القتال.

﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾ (الآية ٣٥).

﴿ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴾ (الآية ٣٨).

ولقد استقام المؤمنون مع هذه التوجيهات القرآنية والإرشادات النبوية التي كانت توضحها وتعضدها.

ولم يأت صلح الحديبية حتى كانت النفوس قد استوعبت هذه المعاني وأصبحت سجية من سجاياها. ولعل ما حدث من موقف المؤمنين بالنسبة للصلح كان بسبب هذا الاندفاع الجهادي الذي كان نتيجة للتربية في الفترة السابقة.

ويقارن سيد قطب رحمه الله بين سورتي القتال والفتح فيقول:

«وبالموازنة بينها ـ سورة الفتح ـ وبين إيحاءات سورة محمد.. يتبين مدى ما طرأ على الجماعة المسلمة في موقفها كله من تغيرات عميقة، في مدى السنوات الثلاث، التي نرجح أنها تفرق بين السورتين في زمن النزول. ويتبين مدى فعل القرآن الكريم، وأثر التربية النبوية الرشيدة لهذه الجماعة..

«واضح في جو سورة الفتح وإيحاءاتها أننا أمام جماعة نضج إدراكها للعقيدة، وتجانست مستوياتها الإيمانية، واطمأنت نفوسها لتكاليف هذا الدين، ولم تعد محتاجة إلى حوافز عنيفة الوقع كي تنهض بهذه التكاليف في النفس والمال، بل عادت محتاجة إلى من يخفض حميتها. وفق حكمة القيادة العليا للدعوة».

«لم تعد الجماعة المسلمة تُواجه بمثل قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟

﴿وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ ..﴾ ولا بمثل قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ..﴾. ولم تعد في حاجة إلى حوافز قوية للجهاد بالحديث عن الشهداء..».

«وإنما صار الحديث عن السكينة التي أنزلها الله في قلوب المؤمنين، أو أنزلها عليهم، والمقصود بها تهدئة فورتهم وتخفيض حميتهم..»[1].

وإذن فقد آتت التربية الجهادية ثمارها، وكانت هذه الفترة الأخيرة بدءاً من صلح الحديبية مواسم لقطف هذه الثمار. ونعطي نماذج لذلك.

* * *

في صلح الحديبية:

أخذت البيعة بعد احتجاز عثمان رضي الله عنه من قبل قريش، وقد تهيأت الأنفس للقتال على الرغم من أن أكثر الناس محرمون وليس معهم من أدوات القتال إلا السيوف.

ثم كان الصلح.. وكان الشرط الثاني قاسياً في حق المؤمنين. وقام عمر بدور فعال.. ولو استطاع أن يلغي هذا الصلح ليقاتل هؤلاء المشركين لفعل.

قال عمر: فأتيت نبي الله فقلت: ألست نبي الله حقاً؟ قال: «بلى»، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى»، قلت: فلِمَ نعطي الدنية في ديننا إذاً؟ قال: «إني رسول الله ولست أعصيه..».

ولم يكن هذا شأن عمر وحده، بل هو شأن عامة المسلمين، فقد أمر ﷺ بعد ذلك أصحابه بالنحر والحلق.. حتى قال ذلك ثلاث مرات فلم يقم أحد.. ثم كان أن قام ﷺ ففعل ذلك.. وتبعه الناس..

لقد كانوا من شدة صدمة الصلح وكأنهم لم يسمعوا..

---

(١) في ظلال القرآن، في تفسير سورة الفتح.

إنه الاستشعار لعزة الإيمان واسترخاص للأنفس والأموال في سبيل ذلك..

* * *

وفي غزوة مؤتة:

كان عدد جيش المسلمين ثلاثة آلاف.. ولما كانوا على مقربة من مكان اللقاء بلغهم أن عدد أعدائهم يزيد على مائة ألف..

ومكثوا ليلتين يفكرون.. ثم قال عبدالله بن رواحة: يا قوم، والله إن التي تكرهون، للتي خرجتم تطلبون، الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة.

فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة..

* * *

وفي غزوة تبوك:

التي سمي جيشها: جيش العسرة.. فقد دعي المؤمنون إلى الإنفاق وأنفقوا..

ومع كل ما بذل من نفقات.. فإنها لم تستوعب تجهيز الراغبين في المشاركة في الجهاد وتخلف أناس عن المشاركة لهذا السبب.

وقد أدى حزن بعض هؤلاء إلى البكاء.. وقد نص القرآن على ذلك فقال تعالى:

﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴾[1].

---

(١) سورة التوبة: الآية ٩٢.

وذهب واثلة بن الأسقع ينادي: ألا من يحمل رجلاً له سهمه؟.. والتقى بشيخ من الأنصار فقال: لنا سهمه على أن نحمله عقبة. وطعامه معنا... وخرج مع الخارجين.

وأبطأ بأبي ذر بعيره، فأخذ متاعه فحمله على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً..

تلك نماذج تبين لنا مدى ما وصلت إليه الرغبة في الجهاد لدى المسلمين، والحرص على المشاركة فيه. وما ذاك إلا من آثار التوجيه القرآني الكريم والتأسي بالرسول صلى الله عليه وسلم.

* * *

درس من حنين:

كان الخط العام في لقاء المسلمين مع أعدائهم، أن يكون عدد المسلمين هو الأقل، ويكون عدوهم أكثر عدداً وعدة..

إلا ما كان في غزوة حنين بعد فتح مكة.. فقد كان عدد جيش المسلمين على الضِّعف من عدد عدوهم، وكانوا كاملي العدة.. ولكنهم انهزموا في أول اللقاء ثم جمع رسول الله ﷺ بواسطة نداء عمه العباس بعض أصحاب الشجرة فقاتل بهم فانتصر.

إنه درس في القيمة العددية والاعتماد عليها. وقد سجل القرآن هذا الدرس في آياته الخالدة فقال:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۞ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾[1].

---

(١) سورة التوبة: الآيتان ٢٥ ـ ٢٦.

كان هذا الدرس ضرورياً لاستكمال التربية الجهادية من جميع جوانبها في ميدان المعركة. حتى تظل القواعد ثابتة في الاعتماد على الله والتوكل عليه، وإعداد العدة تنفيذاً لأوامره سبحانه وتعالى..

تقرير مكانة الجهاد:

كانت سورة التوبة من آخر سور القرآن الكريم نزولاً. وكان في جملة ما تحدثت عنه غزوة تبوك، التي كانت اللقاء الأول الذي يقوده ﷺ بنفسه مع الروم والنصارى..

أي إنه اللقاء الأول الذي يحمل هذه الدعوة إلى إطارها العالمي، ولذا فهي تقرر الأحكام النهائية في أمر الجهاد وبيان مكانته بين تعاليم الإسلام.

إن نشر الدعوة واجب، والجهاد لحملها وإيصالها إلى كل أرجاء الأرض واجب ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾[1] وهذا يتطلب حركة جهادية دائمة لا تتوقف.

ومن هنا يأتي الأمر القرآني الكريم موجهاً إلى المؤمنين عامة، يطلب إليهم المشاركة الجادة ببذل الأموال والأنفس..

قال تعالى: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2].

قرأ أبو طلحة سورة براءة فأتى على هذه الآية: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فقال: أرى ربنا استنفرنا شيوخاً وشباباً، جهزوني يا بني، فقال بنوه: يرحمك الله، قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات، ومع أبي بكر حتى مات، ومع عمر حتى مات، فنحن نغزو عنك فأبى، فركب البحر..

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٣٩. (٢) سورة التوبة: الآية ٤١.

وكان أبو أيوب يقول: قال الله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فلا أجدني إلا خفيفاً أو ثقيلاً.

وقال ابن جرير: حدثني حيان بن زيد الشرعبي قال: نفرنا مع صفوان بن عمرو، وكان والياً على حمص قبل الأفسوس، فرأيت شيخاً كبيراً هماً قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته، فيمن أغار، فأقبلت إليه فقلت: يا عم لقد أعذر الله إليك، قال: فرفع حاجبيه فقال: يا ابن أخي، استنفرنا الله خفافاً وثقالاً..[1].

وبهذا الإيمان سارع المخاطبون من المؤمنين إلى تلبية النداء، وإنه لمما يؤكد عموم هذا النداء، أن أحد المخلفين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك من غير عذر كان شيخاً كبيراً وهو هلال بن أمية، كما ورد ذلك على لسان زوجته بقولها: إن هلال بن أمية شيخ ضائع.. كما في البخاري، ومع ذلك لم يعذر.

ولماذا نبعد النجعة؟ فقد كان عمر الرسول ﷺ يوم قاد غزوة تبوك، قد تجاوز الحادية والستين.

وهكذا يستقر في خلد كل مسلم أنه لا بد له من المشاركة في الجهاد استكمالاً لمقتضيات إيمانه.

جاء في الحديث الصحيح قوله ﷺ: «من مات ولم يغز، ولم يحدث به نفسه، مات على شعبة من نفاق»[2].

وهذا يعني أن على كل فرد مسلم أن يسعى للمشاركة في الجهاد، ولا ينبغي له أن يموت دون هذه المشاركة، خلال حياته، وبهذا يصبح الجهاد من وجهة نظر الفرد فرض عين، ولذا ذهب الكثير من فقهاء الإسلام إلى اعتبار الجهاد الركن السادس من أركان الإسلام.

---

(١) عن تفسير ابن كثير في تفسير الآية المذكورة.

(٢) رواه مسلم برقم ١٩١٠ وأبو داود برقم ٢٥٠٢ وهو عند النسائي أيضاً.

وهذا لا يعارض ما استقر عليه الحكم الفقهي من كون الجهاد ـ في الأحوال العادية ـ فرض كفاية إذا قام به البعض سقط الإثم عن الباقي، فتلك نظرة تنطلق من الحكم على الجماعة ككل.

وفي الأحوال التي تحول فيها الموانع دون الفرد، فتمنعه من المشاركة فإن الإسلام يفتح له باباً للتعويض عن ذلك، فقد ورد في الحديث الصحيح قوله ﷺ: «من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا»[1].

* * *

وهكذا يستقر الجهاد ركناً أساسياً من أركان التربية الإسلامية، لا يجوز بحال من الأحوال إغفاله، أو غض النظر عنه، وقد هددت سورة التوبة الذين يتوانون في إقامة هذا الركن في حياتهم بالعذاب الأليم، قال تعالى:

﴿ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2].

قال صاحب الظلال رحمه الله، عند تفسير هذه الآية:

«والخطاب لقوم معينين في موقف معين، ولكنه عام في مدلوله لكل ذوي عقيدة في الله. والعذاب الذي يتهددهم ليس عذاب الآخرة وحده، فهو كذلك عذاب الدنيا. عذاب الذلة التي تصيب القاعدين عن الجهاد والكفاح، والغلبة عليهم للأعداء، والحرمان من الخيرات واستغلالها

---

(١) متفق عليه وهو عند مسلم برقم ١٨٩٥.
وجاء في صحيح مسلم عن أنس أن فتى من أسلم قال: يا رسول الله، إني أريد الغزو وليس معي ما أتجهز به قال: «ائت فلان فإنه قد تجهز فمرض»، فأتاه فقال: إن رسول الله ﷺ يقرئك السلام ويقول: أعطني الذي تجهزت به، قال: يا فلانة أعطيه الذي كنت تجهزت به ولا تحبسين منه شيئاً، فوالله لا تحبسي منه شيئاً فيبارك لك فيه.

(٢) سورة التوبة: الآية ٣٩.

للمعادين، وهم مع ذلك كله يخسرون من النفوس والأموال أضعاف ما يخسرون في الكفاح والجهاد، ويقدمون على مذبح الذل أضعاف ما تتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء، وما من أمة تركت الجهاد إلا ضرب الله عليها الذل، فدفعت مرغمة صاغرة لأعدائها أضعاف ما كان يتطلبه منها كفاح الأعداء..».

* * *

وتعود سورة التوبة في أواخرها ـ وهي من آخر ما نزل، كما قلنا ـ لتذكر أن قضية الجهاد جزء من الالتزام الإيماني، ولا بد من الوفاء بهذا الالتزام، إذ هو بيعة في عنق كل مسلم عليه الوفاء بها..

ذلك ما تقرره الآية التالية في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[1].

وقد آتت هذه التربية ثمارها، فوفى جيل الصحابة بعهده.. وتبعته الأجيال المؤمنة جيلاً بعد جيل.. وما انتشار الإسلام في أرجاء الأرض إلا الثمرة لهذا الوفاء وإذا أريد للإسلام أن يأخذ دوره مرة أخرى فلا بد من سلوك هذا الطريق في تربية الأجيال..

٢
التربية الاقتصادية

تناولت التربية الاقتصادية في هذه المرحلة جوانب متعددة، منها ما هو موَّجه إلى القادة، ومنها ما هو بيان للقيمة المالية للإنفاق، ومنها ما هو

---

(١) سورة التوبة: الآية ١١١.

تحذير وتخوف على المسلمين من الانغماس في الدنيا.. ونتحدث عن كل من هذه الجوانب.

توجيه للقادة:

إن القضايا المالية تظل لها مكانتها في نفوس الناس مهما كان شأنهم، وتلك فطرة الله التي فطر الناس عليها. ومطلوب من كل قائد وكل مسؤول يوكل إليه أمر ذلك أن يعدل بين الناس، وإذا كان هناك من وجهة نظر في تميز بعض الناس فليكن أمر هذه الوجهة واضحاً أمام الجميع، حتى لا يكون للشيطان مدخل إلى النفوس.

إن الرسول ﷺ حين أراد أن يوزع غنائم بني النضير جمع الأنصار، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه، وذكر الأنصار بما صنعوا من إكرام إخوانهم المهاجرين، قال: إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله علي من النضير، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكن في منازلكم..

فبين لهم وجهة نظره ﷺ في التوزيع على المهاجرين خاصة حتى لا يكون في النفوس شيء..

وهكذا كان أمره ﷺ في كل ما كان للشيطان منه مدخل، فإنه كان يغلق هذا المدخل(1).

وفي هذه الفترة التي نتحدث عنها كانت غنائم هوازن التي حصل عليها المسلمون إثر غزوة حنين:

وبدأ ﷺ بالأموال فقسمها، وأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس،

---

(1) من هذا الباب ما ورد في البخاري برقم ٢٠٣٥ بشأن زيارة صفية زوج النبي له أثناء اعتكافه في المسجد، فقام ﷺ معها ليوصلها إلى منزلها وفي الطريق مرَّ رجلان من الأنصار. فقال لهما النبي ﷺ: على رسلكما، إنما هي صفية بنت حيي. فقالا: سبحان الله يا رسول الله، وكبر عليهما، فقال النبي ﷺ: «إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً».

فأعطى أبا سفيان بن حرب مئة بعير، فقال: ابني يزيد؟ فأعطاه مئة بعير، فقال: ابني معاوية؟ فأعطاه مئة بعير.. وأعطى وأعطى..

كانت تلك الأعطيات الكبيرة في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء. فأثر ذلك في الأنصار، ووجدوا في أنفسهم، حتى قال قائلهم: لقي ـ والله ـ رسول الله ﷺ قومه، وقال بعضهم: يغفر الله لرسول الله ﷺ، يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم؟.

ودخل سعد بن عبادة على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء. قال: «فأين أنت من ذلك يا سعد؟» قال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومي. قال: «فاجمع قومك في هذه الحظيرة..».

جرى هذا الحديث من الأنصار والرسول ﷺ مشغول بتوزيع الغنائم، فلم يكن هناك وقت ليحدثهم عن أسباب هذا التوزيع، ولو انتظروا حتى يفرغ لكان جاء إليهم وشرح لهم الأسباب كما هي عادته ﷺ في مثل هذه المناسبات.

واجتمع الأنصار.. وجاء سعد فأبلغ رسول الله ﷺ..

وجاء ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال:

«يا معشر الأنصار، ما قالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها عليَّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله، وعالةً فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟».

قالوا: بلى، والله ورسوله أمنّ وأفضل.

ثم قال: «ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟».

قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المنّ والفضل.

قال: «أما والله، لـو شئتم لقلتم، فلصدقتم ولصُـدقتم: أتيتنا مكَـذَّباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلمـوا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضـون يا معشـر الأنصار أن يـذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لـولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولـو سلك الناس شِعباً وسلكت الأنصار شِعباً لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

فبكى الأنصار حتى اخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً، ثم انصرف رسول الله ﷺ وتفرقوا[1].

إن الأنصار، وهم من هم، حين لم يعرفوا وجهة نظر رسول الله ﷺ وجدوا عليه، رغم أن ما وزعه رسول الله إنما كان من الخمس ولم يكن من الغنيمة بكاملها، أي كان من القسم الذي للرسول ﷺ التصرف الكامل به حسب ما يراه، علماً أن الرسول ﷺ لم يعط أيضاً المهاجرين شيئاً..

ولكن الأنصار وجدوا أنفسهم أحق من أبي سفيان وأمثاله..

إن هذا البيان الذي بينه ﷺ للأنصار هو درس لكل القادة، مهما وثق بهم أتباعهم أنه لا بد من بيان أسباب بعض التصرفات التي ربما لـو أُغفلت كانت سبب التفرق، وأن تحمل النفوس الضغائن..

* * *

القوة الإنفاقية:

يعرف الناس اليوم ما يسمى «بالقوة الشرائية» في ميدان الاقتصاد، فالدرهم في يوم قد يشترى به أقل أو أكثر مما اشتري به في يوم سابق،

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٤٩٨.

فالدرهم هو الدرهم، ولكن عامل الزمن والظروف المتغيرة هي التي تحدد قيمته الشرائية.

وقد بين الله في هذه المرحلة أن ثواب الإنفاق في سبيل الله يختلف مقداره بين وقت وآخر، فعامل الزمن له أثر فعال في هذا الموضوع..

ورد هذا في قوله تعالى:

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾(١).

فالإنفاق قبل الفتح أعظم درجة عند الله من الإنفاق بعده..

وسواء أكان المقصود بالفتح فتح مكة، أو كان المراد به صلح الحديبية، فإن المبدأ ثابت.

«إن الذي ينفق ويقاتل والعقيدة مطاردة، والأنصار قلة، وليس في الأفق ظل منفعة ولا سلطان ولا رخاء.. غير الذي ينفق ويقاتل والعقيدة آمنة والأنصار كثرة، والنصر والغلبة والفوز قريبة المنال.. ذلك متعلق مباشرة بالله، متجرد تجرداً كاملاً لا شبهة فيه، عميق الثقة والطمأنينة بالله وحده.. لا يجد على الخير عوناً إلا ما يستمده مباشرة من عقيدته. وهذا له على الخير أنصار حتى حين تصح نيته ويتجرد تجرد الأولين»(٢).

روى الإمام أحمد عن أنس قال: كان بين خالد بن الوليد، وبين عبدالرحمٰن بن عوف كلام، فقال خالد لعبدالرحمٰن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها، فبلغنا أن ذلك ذكر للنبي ﷺ فقال: «دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم».

---

(١) سورة الحديد: الآية ١٠.

(٢) في ظلال القرآن عند تفسير الآية المذكورة.

وفي الصحيح: «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه»(١).

وهكذا كان لا بد من لفت النظر إلى هذا الأمر حتى يعرف لصاحب الفضل فضله وحتى يتدارك المتأخر نفسه «بالكم» إذ فاتته درجة «النوع».

ويسير في الاتجاه نفسه ما حدث في غزوة تبوك.. حيث حث الرسول ﷺ على الصدقة.. وتبرع المسلمون.. وكان من جملة من تبرع أبو عقيل، أحد الأنصار، فقد أتى بصاع من تمر وقال: بت ليلتي أجر بالجرير الماء حتى نلت صاعين من تمر، فأمسكت أحدهما وأتيتك بالآخر.. ولمزه المنافقون(٢).

وفي هذا المعنى جاء قوله ﷺ: «سبق درهم مائة ألف درهم»، قالوا: وكيف؟ قال: «كان لرجل درهمان، تصدق بأحدهما، ورجل له مال كثير فأخذ من عرض ماله مائة ألف فتصدق بها»(٣).

وهكذا يبين ﷺ أن الأجر لا ينظر إليه من زاوية واحدة وهي كثرة أو قلة المال المبذول، وإنما ينظر إليه أيضاً من زاوية حال المعطي والظروف المحيطة به، وقد رأينا في فصل ماضٍ كيف ربى الإسلام في نفوس أتباعه روح العطاء.

وبهذا قد تكون القوة الإنفاقية لدرهم تساوي آلاف الدراهم. وهذا ما يدفع كل فرد للمشاركة بما يستطيع، وأن لا يستقل ما يشارك به فالميزان عند الله غير ميزان الناس.. فالذرة لها حساب..

---

(١) أوردهما ابن كثير عند تفسير الآية المذكورة.
(٢) انظر تفسير ابن كثير في تفسير الآية ٧٩ من سورة التوبة.
(٣) رواه النسائي: في كتاب الزكاة، باب جهد المقل.

تحذير وتخوف:

ربي المسلمون ـ كما رأينا ـ على الصبر على تحمل أنواع المشاق على اختلافها، ومن جملتها الصبر على الفقر..

وتمر الأيام.. وتأتي الأيام الأخيرة من حياته ﷺ، وقد توطدت أركان الدولة، وأخذت الدعوة طريقها إلى القلوب على نطاق واسع.. وجاء الله بالغنى.. وتواردت الأموال على المدينة..

إن الصبر على الغنى قد يكون أصعب في حقيقته من الصبر على الفقر، فلئن كان الفقر يدفع بالإنسان إلى العمل ليدفع عن نفسه الحاجة إلى الناس، وحتى لا تكون يده هي السفلى.. فإن الغنى يدفع إلى الانغماس في الدنيا أكثر وأكثر، لأن من طبيعة الفطرة ـ كما رأينا في فصل سابق ـ أنه لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً.

وأمر آخر، وهو أن الغنى يجر إلى الطغيان إلا من عصم الله تعالى، وهذه حقيقة تقررها الآيات التالية:

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ * إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴾ (1).

من أجل هذا، كان لا بد من توجيه المسلمين وتحذيرهم من أن يسيطر عليهم الاهتمام بالدنيا.. وفي مقابل ذلك قد ينسون مهمتهم الأولى التي هي عبادة الله تعالى بمفهومها العام، وكذلك الدعوة إلى دين الله تعالى.

وكان هذا التوجيه في اللقاء التالي:

عن عمرو بن عوف: أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها.. فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمعَتِ

---

(1) سورة العلق: الآيات ٦ ـ ٨.

الأنصار بقدومه، فوافقت صلاة الصبح مع رسول الله ﷺ. فلما انصرف تعرضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم، وقال:

«أظنكم سمعتم بقدوم أبي عبيدة، وأنه جاء بشيء».

قالوا: أجل يا رسول الله.

قال: «أبشروا وأمِّلوا ما يسرُّكم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتلهيكم كما ألهتهم»[1].

وهكذا يبين لهم ﷺ تخوفه من أن تسيطر عليهم اهتمامات الدنيا وزخارفها وتجرهم بعيداً من حيث لا يشعرون عما خلقوا له. وفي هذا من البلاء ما فيه.

---

(١) رواه البخاري برقم ٦٤٢٥ ومسلم برقم ٢٩٦١.

القِسْمُ الرَّابِع

الوَصِيَّةُ بالثَّوابِتِ

تمهيد:

بعد هذه الرحلة مع الدعوة ـ ابتداء من منطلقها وحتى أواخر حياته ﷺ ـ يحسن بنا أن نتوقف لنتعرف على الوضع الذي وصل إليه المجتمع المسلم في ظل هذه التربية الكريمة التي كان ﷺ يقوم بها بنفسه، ويرعاها في كل صغيرة وكبيرة.

ولعل خير ما يوضح لنا ذلك، هو الحجة التي أعلن عنها رسول الله ﷺ ودعا الناس إليها والتي عرفت بحجة الوداع، والتي كانت قبل وفاته ﷺ بأشهر قليلة.

قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: كنا نتحدث بحجة الوداع، والنبي ﷺ بين أظهرنا، ولا ندري ما حجة الوداع[1].

لقد أراد ﷺ أن يودع أمته في هذا الموسم العظيم، وأن تأخذ عنه مناسك الحج، وأن يوصيها بما ينبغي أن تعمل به وتلتزمه في مستقبل أيامها.

وفي يوم عرفة من هذا الموسم، حيث كان النبي ﷺ يلقي خطبته المشهورة نزل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فكان نزول هذه الآية إيذاناً بانتهاء مهمته ﷺ، وقرب موعد وفاته، وهذا ما أدركه بعض الصحابة رضي الله عنهم.

على أن الآية الكريمة تحمل في ثناياها معان أخرى كثيرة، منها أنه ﷺ قد أكمل مهمته في تربية الأمة وتعليمها ووضعها على الصراط المستقيم، وأنَّ هذا الجيل استجاب للنبي ﷺ استجابة كاملة لكل ما أمر به، وانتهى عن كل ما نهي عنه، فكان خَيْرَ القرون كما أخبر عن ذلك النبي الكريم ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٠٢).

وإذن فقد كان هذا الجيل يمثل في حياته وتعامله المنهج الذي أراده الله لعباده، والذي على بقية الأجيال أن تسير على ما سار عليه.

وجاءت خطبته ﷺ في هذا الموسم لتؤكد على المعاني والقيم التي أقامها في المجتمع، ولتحذر الناس من الانصراف عنها وعدم الالتزام بها.

إنها قيم ماثلة عاشها الصحابة رضي الله عنهم وتربوا عليها يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة. إن كل كلمة كان يقولها ﷺ كانت الأسماع تتلقفها لتنقلها عملاً إلى واقع الحياة.

وبناء على هذا، فخطبة حجة الوداع كانت تلخيصاً لما ربى عليه النبي ﷺ أصحابه، ووصية لهم ولمن بعدهم أن يظلوا على هذا المستوى من التفاعل مع أوامر الله تعالى وتطبيقها.

وإذن: فالآية الكريمة تقرر أن الرسول ﷺ نجح أيما نجاح في مهمته فأدى الأمانة وبلغ الرسالة. وكان من نتيجة ذلك وجود الجيل الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه.

وفي هذا الباب أحاول الوقوف على الخطوط الرئيسة التي جاءت في خطبته ﷺ، باعتبارها خلاصة لمعالم نشأة الجيل الأول كما أنها تعد المنهج الذي ينبغي على الأجيال العمل على تحقيقه.. إنها معالم للطريق.

ويحسن بنا أن نقف على نص الخطبة أولاً، ثم الانتقال بعد ذلك إلى فهم ما هدفت إليه.

ولكن ليس بين أيدينا نصٌ واحدٌ يشتمل على الخطبة كاملة، إذ كل صحابي حفظ بعضًا منها ونقل ما حفظ، ولذا فنحن بحاجة إلى ذكر عدد من الأحاديث التي نقلت لنا ذلك مع حذف ما جاء فيها مكررًا.

نصوص الخطبة الشريفة:

١ ـ عن أبي بكرة ﷺ قال: قعد النبي ﷺ على بعيره، وأمسك إنسان بخطامه، ثم قال:

(إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات؛ ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر، الذي بين جمادى وشعبان).

(أي شهر هذا)؟ قلنا الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: **(أليس ذا الحجة)؟** قلنا: بلى.

قال: **(فأي بلد هذا)؟** قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: **(أليس البلدة)؟** قلنا: بلى.

قال: **(فأي يوم هذا)؟** قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: **(أليس يوم النحر)؟** قلنا: بلى.

قال: **(فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض.**

ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فلعل بعض من يبلّغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه)[1].

٢ ـ وعن عمرو بن الأحوص أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه، وذكر ووعظ.. وذكر ما جاء في الحديث السابق، ثم قال:

(ألا لا يجني جانٍ إلا على نفسه، ولا يجني والد على ولده، ولا ولد على والده.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧) (٤٤٠٦) ومسلم (١٦٧٩).

ألا إن المسلم أخو المسلم، فليس يحل لمسلم من أخيه شيء، إلا ما أحل من نفسه.

ألا وإن كل ربا في الجاهلية موضوع، لكم رؤوس أموالكم لا تظلِمون ولا تظلَمون، غير ربا العباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله.

ألا وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وأول دم أضع من دماء الجاهلية دم الحارث بن عبد المطلب، كان مسترضعًا في بني ليث فقتلته هذيل.

ألا واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنما هنَّ عوان عندكم، ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلًا.

ألا إن لكم على نسائكم حقًا، ولنسائكم عليكم حقًا، فأما حقكم على نسائكم: فلا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذنَّ في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وإن حقهن عليكم: أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن)[١].

٣ ـ وفي حديث **أبي نضرة**: أن رسول الله ﷺ قال:

(يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلغت)؟ قالوا: بلغ رسول الله.. ثم ذكر ما جاء في الحديث الأول[٢].

٤ ـ وفي حديث **جبير بن مطعم**: أنه شهد خطبة رسول الله ﷺ في يوم عرفة في حجة الوداع، فقال:

---

(١) حديث صحيح، أخرجه الترمذي (١١٦٣) وأبو داود (٣٣٣٤) وابن ماجه (١٨٥١).

(٢) حديث صحيح، أخرجه أحمد (٢٣٤٨٩).

(أيها الناس، إني والله لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد يومي هذا بمكاني هذا، فرحم الله من سمع مقالتي اليوم فوعاها، فرب حامل فقه ولا فقه له، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، واعلموا أن أموالكم ودماءكم حرام عليكم. . .) وذكر الحديث[1].

٥ ـ وفي حديث جابر بن عبدالله الذي وصف فيه حجة النبي ﷺ ذكر فيه خطبته يوم عرفة ومما جاء فيها:

(وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله، وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون)؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت[2].

٦ ـ وعن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ خطب الناس في حجة الوداع فقال:

(قد يئس الشيطان أن يعبد بأرضكم، ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحاقرون من أعمالكم، فاحذروه يا أيها الناس، إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا، كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، إنّ كل مسلم أخ المسلم، المسلمون إخوة، ولا يحل لامرئ من مال أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس، ولا تظلموا، ولا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض)[3].

(١) حديث صحيح، أخرجه ابن ماجه (٢٣١) (٣٠٥٦) والدارمي (٢٣٤).
(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨).
(٣) المستدرك (٣١٨).

الفصل الأول

كلمة وداع

يغلب على الظن أن جبير بن مطعم ﷺ نقل لنا في حديثه مطلع خطبة النبي ﷺ، وذلك قوله:

(أيها الناس، إني والله لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد يومي هذا بمكاني هذا.

فرحم الله من سمع مقالتي اليوم فوعاها، فربَّ حامل فقه ولا فقه له، وربَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه. . .).

والجملة الأولى وحدها كافية لشد انتباه الناس، واستماعهم بوعي كامل لما يقوله ﷺ، فهي نصيحة مودع.

ثم أكد ذلك بالدعوة بالرحمة لمن سمع ووعى.

والمستمع مطلوب منه أمران:

ـ أن يستفيد هو مما يسمع في خاصة نفسه.

ـ وأن ينقل ذلك لغيره حتى يستفيد الغائب الذي لم ينله شرف الاستماع.

وهكذا كان الصحابة ﷺ، ينقل الواحد منهم ممن حضر مجلسًا من مجالس النبي ﷺ إلى من غاب ما سمعه منه ﷺ.

بل بلغ الأمر أكثر من ذلك، حيث يتفق اثنان أن ينقل الحاضر للغائب منهما ما سمع، وذلك ما قصَّه علينا عمر بن الخطاب حيث قال: «كان لي صاحب من الأنصار، إذا غبت أتاني بالخبر، وإذا غاب كنت

آتيه بالخبر»[1].

وهكذا يظل كل واحد من الصحابة على صلة بما استجد من أحكام.

ولنقف أمام هذا المشهد الذي ينقل لنا صورة حية عن تعاون الصحابة في نقل المعلومة لمن غاب.

قال عقبة بن عامر ﷺ: كانت علينا رعاية الإبل، فجاءت نوبتي، فروَّحتها بعشي، فأدركت رسول الله ﷺ قائمًا يحدث الناس، فأدركت من قوله: (**ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه، ثم يقوم فيصلي ركعتين، مقبل عليهما بقلبه ووجهه، إلا وجبت له الجنة**).

قال: فقلت: ما أجود هذه، فإذا قائل بين يدي يقول: التي قبلها أجود، فنظرت فإذا عمر، قال: إني قد رأيتك جئت آنفًا، قال: (**ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء**)[2].

وما من شك في أن كل صحابي كان ينقل لزوجته وأهل بيته ما يسمع، ومما يؤكد هذا أن معظم ما روته أم الدرداء ﷺ كان مما سمعته من زوجها أبي الدرداء ﷺ.

وهكذا كانت المعلومة تنقل سريعًا إلى عامة الصحابة ﷺ.

فما حثَّ عليه النبي ﷺ كان معمولًا به، ولكنه في هذه الخطبة يؤكد عليه لما لَه من خطر.

وهذه المقدمة تؤكد على مكانة العلم في بنيان الأمة، ولذا كان

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩١٣) ومسلم (١٤٧٩).

(٢) رواه مسلم (٢٣٤).

التأكيد على ضرورة نقله وتداوله، فالعبادات لا تؤدى إلا بالعلم، والمعاملات لا تكون صحيحة إلا من عالِم بأحكامها.

وهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا نقل المعلومة إلى جاهل بها، ومن هنا كان الواجب إيصالها إليه بكل اللطف والبعد عن التجريح أو الانتقاص.

ولقد سمع الصحابة ﷺ من قبل قوله ﷺ: «**بلغوا عني ولو آية**»[1]، فعملوا بذلك، وكم من آية سمعها مسلم فغيرت مجرى حياته، وما قصة توبة الفضيل بن عياض رحمه الله إلا مثالاً من الأمثلة الكثيرة على ذلك.

(١) رواه البخاري (٣٤٦١).

الفصل الثاني

حفظ الدماء والأعراض والأموال

لقد امتن الله تعالى على قريش بالأمن الذي كانوا يعيشون فيه بمكة، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾.

وفي الحديث قوله ﷺ: (من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا)[1].

فالأمن حاجة أساسية لا غنى لمجتمع عنها، ولذا كان من أول الأعمال التي قام بها النبي ﷺ بعد قدومه إلى المدينة، إبرام ذلك العقد ـ الذي سبق الحديث عنه ـ بين سكان المدينة من مسلمين ومشركين ويهود لضمان الأمن وتعيين مسؤولية كل فريق في ذلك.

والقضايا الرئيسة التي يتركز حولها الأمن هي:

ـ أن يكون الإنسان آمنًا على نفسه فلا يعتدي عليه أحد.

ـ أن يكون آمنًا على عرض حريمه ونسائه فلا يعتدي عليهن أحد.

ـ أن يكون آمنًا على ماله فلا يعتدي عليه أحد.

ولقد كان في بيان الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ما فيه الكفاية لضمان الأمن في كل أمور الإنسان الخاصة به، بل إن الحدود التي فرضها الله تعالى في القرآن الكريم إن هي إلا الضمان الأوثق لذلك.

ـ فكان حد القصاص بالنفس عقوبة لمن اعتدى على غيره فقتله.

ـ وكان حد الزنى لمن اعتدى على أعراض الناس.

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٤٦) وابن ماجه (٤١٤١).

ـ وكان حد القطع لمن اعتدى على أموال الآخرين.

ولقد آتت هذه الحدود أكلها في ضمان أمن الناس، ومع ذلك فلِما لهذه القضية من مكانة في قيام المجتمع الصحيح السليم، كان لا بد أن يأخذ الحديث عنها مكانه في الخطبة العظيمة.

وعشرات الأحاديث التي نقلت لنا خطبته ﷺ نقلت هذا الجانب من حديثه، ولعل أوفاها في ذلك هو حديث أبي بكرة رضي الله عنه، وهو الحديث الأول في النصوص التي سبق ذكرها.

❊ ❊ ❊ ❊

وهذا الحديث يتألف من فقرتين، الأولى تتحدث عن الأشهر الحرم، والثانية تتحدث عن حرمة الدماء والأعراض والأموال.

وما الفقرة الأولى إلا التمهيد للفقرة الثانية، كما سنرى ذلك.

كان العرب في جاهليتهم يتمسكون بملة إبراهيم عليه السلام في تحريم الأشهر الحرم، وكان يشق عليهم تأخير القتال ثلاثة أشهر متواليات، فكانوا إذا احتاجوا إلى قتال أخروا تحريم المحرم إلى الشهر الذي بعده وهو صفر، ثم يؤخرونه في السنة الأخرى إلى شهر آخر. . .

ونتج عن هذا اختلاط الأشهر وعدم التأكد من أن يوم عرفة هو في الحقيقة اليوم الذي ينبغي لهم أن يؤدوا النسك فيه.

فأخبر رسول الله ﷺ في خطبته جموع الحجيج أن ذلك اليوم صادف اليوم الصحيح الموافق لليوم الذي جعله الله لأداء هذا النسك، ورجعت الأشهر إلى توقيتها الصحيح قبل أن يقوم العرب بالتأخير والتقديم ورجع شهر المحرم إلى توقيته الصحيح في تلك السنة.

وبهذا طمأن النبي ﷺ الناس على صحة حجهم بقوله: **(إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات؛ ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان)**.

وبهذا عاد التوقيت إلى الوضع الصحيح.

ثم سألهم عن الشهر الذي هم فيه بقوله: **(أي شهر هذا)؟** ثم سألهم عن البلد الذي هم فيه بقوله: **(فأي بلد هذا)؟** ثم سألهم عن اليوم الذي هم فيه بقوله: **(فأي يوم هذا)؟**.

وسكت القوم بعد كل سؤال، لأنه يسألهم عن أمر معروف، فظنوا أنه سيعطي أسماء جديدة لما يسأل عنه.

فكان ﷺ يقول لهم عقب سكوتهم: **(أليس ذا الحجة. . .)؟** فيقرر لهم ما كانوا على علم به، وكان فعله هذا ليلفت انتباههم إلى مكانة ما يسأل عنه.

- فالشهر الذي سألهم عنه شهر حرام.

- والبلد الذي سألهم عنه بلد حرام.

- واليوم الذي سألهم عنه يوم حرام.

كل ذلك كان منه ﷺ توطئة لما يريد تقريره من حرمة الدماء والأعراض والأموال.

ولهذا عقب على ذلك بقوله: **(فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا)**.

لقد كانت حرمة واحدة من هذه الحرم الثلاث كافية للتشبيه بها، ولكنها البلاغة النبوية الرفيعة أرادت تغليظ جريمة الاعتداء على هذه الحرمات، فكان هذا الأسلوب الذي لا نجد له مثيلًا في اللغة العربية.

إن حرمة المكان «مكة» كافية، وحرمة الشهر الحرام «ذي الحجة» كافية، وحرمة يوم عرفة وحدها كافية. فلنتصور هذه الحرمات وقد اجتمعت إلى بعضها. . فهي في حجمها هذا المتصور، هي حرمة الاعتداء على الأنفس والأعراض والأموال.

وفي هذا من التنفير ما فيه من أمر المساس بهذه الحقوق أو الاعتداء عليها.

إن قضية تقرير الأمن في المجتمع المسلم أمر لا مجال للتهاون فيه، ولذا كان في هذا التمثيل الرائع ما يقرب الفكرة التي أرادها ﷺ من فكر المستمع في بيان ما ينتظر المعتدي على هذه الحرمات من عقوبة عند الله تعالى في الآخرة، مضافًا إليها عقوبته في الدنيا والتي سبق الحديث عنها في بيان الحدود التي تقام على أصحاب هذه الجرائم.

والخلاصة: إنه كما ضبط الأمر في عهده ﷺ، فإنه يطلب من الأجيال الآتية بعده أن يحافظوا على ذلك، ولا يرجعوا بعده ضلالاً يضرب بعضهم رقاب بعض.

الفصل الثالث

الوضع الاجتماعي

كان الناس يوم بعث رسول الله ﷺ طبقات، يتعالى بعضها على بعض، فالعربي يرى لنفسه الفضل على العجمي، والقرشي يرى لنفسه الفضل على غيره من العرب، والرجل يتعالى على المرأة، والأبيض يرى لنفسه الفضل على الأسود.

وكان من مهمته ﷺ إزالة هذه الفوارق والحواجز بين الناس، ولم يكن من السهل التغلب على هذه المعضلة، الضاربة جذورها عبر الأجيال، فولد في ظلها الصغير، ونشأ عليها الكبير، ودان بها معظم الناس، حتى باتت عرفًا سائدًا لا يكاد ينكره أحد.

وفي مثل هذه الحال لم يكن من الممكن التخلص من هذا المرض الاجتماعي بالسرعة المطلوبة، واقتضت الحكمة أن تكون معالجته على مراحل وشيئًا فشيئًا.

وتبدأ معالجة هذا المرض في نفس الإنسان منذ اليوم الأول الذي يعلن إسلامه فيه، حيث يعلن عبوديته لله تعالى، ويتعلم أن كل الذين أعلنوا إسلامهم هم مثله عبيد لله تعالى، وبهذا يصبح هو وإياهم على قدم المساواة بغض النظر عن العرق واللون والجنس. . .

على أن هذا لم يكن كافيًا، فكان النبي ﷺ يتعهد أصحابه بالتسديد والتقويم كلما ظهرت بادرة تنم عن أن آثار المرض ما زالت باقية.

وبدأت الخطوات العملية تأخذ طريقها إلى الواقع، فالواقع العملي لا يعالج بالأقوال فحسب، فها هو ﷺ يزوج زينب بنت جحش ـ وهي القرشية ـ زيد بن حارثة، وها هو ﷺ يقول: (**سلمان منا أهل البيت**)، وها هو ﷺ يمنع مولاه أبا رافع من العمل على جمع الصدقات، ويجعل حكمه حكم آل النبي ﷺ ويقول له: (**مولى القوم أنفسهم، وإنا لا تحل لنا الصدقة**).

إنها قيم ومفاهيم جديدة تحل مكان العصبية والطبقية. . .

ـ فالمؤمن أخو المؤمن، وإنما المؤمنون أخوة.

ـ والمسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله. . .

ـ ويخاطب ﷺ المسلمين فيقول في الأرقاء: (**إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم. . .**) فجعل من رقيق الإنسان أخًا له.

ـ وقال ﷺ: (**من قتل عبده قتلناه**).

كل تلك الأمور كانت تهدف إلى أمر واحد، هو الوصول بالفرد المسلم إلى شعوره بأنه ليس أفضل من غيره، وأن يكون هذا الشعور نابعًا من ذاته وليس مفروضًا عليه.

وفي تقرير ذلك جاء قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

ويستوقفنا النداء بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ في هذه الآية الكريمة، وهي في سورة قصيرة قد ورد الخطاب فيها بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خمس مرات، وذلك لأنها تقرر أمرًا إنسانيًا عامًا يعرفه كل الناس. . فكلهم يرجع إلى أب واحد هو آدم عليه السلام، وتعدد الشعوب بعد ذلك وتفرعها إلى قبائل لا يغير من حقيقة وحدة الأصل.

وإذا كان الأمر كذلك، فلا ينبغي لأحد أن يتعالى على أحد أو يترفع عليه، فجميع الناس في الشرف بالنسبة الآدمية سواء، والتفاضل إنما يكون بالعمل الصالح وهو التقوى. على أن هذا الفضل نفسه لا يعطي مرتبة وشرفًا في الدنيا، وإنما الجزاء عليه عند الله يوم القيامة. لأن حقيقة العمل الصالح لا يعرفها إلا الله تعالى.

ولقد استقرت هذه المعاني في مجتمع الصحابة، وعاشها الناس حقائق في دنيا الواقع يرعى تطبيقها الرسول الكريم ﷺ.

وبما أن الصحابة بشر من البشر ينتابهم الخطأ، ويستفزهم الغضب بعض الأحيان فيخرجهم عن طبعهم المعتاد، فقد وقعت من بعضهم بعض التجاوزات في هذا الميدان، وكان الرسول ﷺ يقومها ويسدد المسار.

قال أبو ذر رضي الله عنه ـ كما جاء ذلك في «الصحيحين» ـ: إني ساببت رجلًا فعيرته بأمه، فقال لي النبي ﷺ: **(يا أبا ذر، أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية)** قال: على حال ساعتي هذه من كبر السن؟ قال: (نعم)[1].

وتفصيل الحادثة كما جاءت في غير «الصحيحين»:

أن أبا ذر تجادل مع رجل أسود، فلما برح به الغضب قال له: يا ابن السوداء، فشكا الرجل ذلك إلى النبي ﷺ، فقال لأبي ذر: **(أعيرته بأمه، إنك امرؤ فيك جاهلية)** وقال له: **(طف الصاع، طف الصاع، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى، أو بعمل صالح)**.

وكانت هذه الواقعة درسًا بليغًا لأبي ذر ولكل الصحابة، لِمَا رأوا من غضبه ﷺ.

كانت السنوات العشر التي قضاها ﷺ في المدينة قبل وفاته كافية للتخلص من أدران الجاهلية في هذا الأمر وغيره، ولما كانت خطبة حجة الوداع كان لا بد من الحديث عن هذا الموضوع الذي يقوم عليه الواقع الاجتماعي.

وهذا ما جاء في قوله ﷺ:

(يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، أبلغت)؟ قالوا: نعم...

إنه تقرير لما كان قائمًا، وتذكير للسامعين بالاستمرار على هذا النهج، ومنهج للأجيال القادمة كي تسير عليه.

---

(١) رواه البخاري (٣٠، ٦٠٥٠) ومسلم (١٦٦١).

لم يعد التفاخر بالآباء والأجداد والأعراق منقبة أو فضيلة، وإنما المناقب بالأعمال الصالحة. وهذه أيضًا ليست محل تفاخر لأن أجرها عند الله تعالى، والعمل الخالص لله تعالى لا يعلنه صاحبه ولا يتعالى به على الناس. ولكنه إذا عُرِفَ في الناس وشاع، وذكر الناس صاحبه بخير **فتلك عاجل بشرى المؤمن** كما قال رسول الله ﷺ.

ومن هذا السياق قول عمر رضي الله عنه ـ وهو من هو ـ: أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا.

كلمة يقولها أمير المؤمنين، ثاني الخلفاء الراشدين، في سياق نسبة الفضل لأهله، فلأبي بكر سابقته بالإسلام، ولبلال ـ مؤذن رسول الله ﷺ ـ الذي أعتقه أبو بكر، سابقته بالإسلام، ومن هنا جاءت السيادة لهما كما يرى عمر، رضي الله عنهم جميعًا.

وما كنا نتخيل أو يخطر ببالنا أن يصدر ذلك عن عمر، وبخاصة في حق بلال رضي الله عنهم جميعًا لولا هذا الإسلام العظيم.

هذا مع العلم بأن أبا بكر وبلالًا لا يرغبان في سماع ذلك فضلًا عن ادعائه.

إنها تربية هذا الرسول الكريم ﷺ قد آتت ثمارها يانعة.. وعاش الناس إسلامهم كما أراد الله سبحانه وتعالى.

الفصل الرابع

الوضع الاقتصادي

تكرر النهي عن الظلم في هذه الخطبة العظيمة، وتكرر النهي عن أكل أموال الناس بالباطل، وقد سبق بعض الحديث عن ذلك.

وقد منع الإسلام كل التعاملات التي تؤدي إلى أكل أموال الآخرين. فقد منع الغش، ومنع كل التعاملات التي يدخلها «الغرر» كما حرم الربا، الذي يأتي على رأس التعاملات السيئة التي تعتدي على أموال الناس.

وقد جاءت الآيات الكريمة في أواخر سورة البقرة بالتحريم القاطع لكل تعامل يدخله الربا. . .

وما من شك في أن المسلمين التزموا بالامتناع عن هذا التعامل، وبما أن آيات تحريم الربا نزلت متأخرة بعض الشيء، فقد أراد الرسول ﷺ أن يؤكد على ذلك في بيانه الأخير لأمته. فكان قوله في ذلك:

(ألا إن المسلم أخو المسلم، فليس يحل له من أخيه شيء، إلا ما أحل من نفسه، ألا وإن كل ربا في الجاهلية موضوع، لكم رؤوس أموالكم لا تظلِمون ولا تظلَمون. .).

وصورة «الربا» البسيطة التي كانت يومئذ: أن يقع الإنسان في ضيق مادي، ولا يجد من يقرضه، فيلجأ إلى بعض أصحاب الأموال فيستقرض منه المال إلى وقت محدود على أن يعيد له «المائة» التي استدانها: مائة وعشرة، فهذه العشرة الزيادة مقابل المدة، فكلما طالت المدة ازدادت الغرامة أو الفائدة. . .

فالدائن هنا يستغل حاجة الآخرين، وكلما كانت الحاجة ملحة أكثر كلما تحكَّم في رفع سعر الفائدة. . .

وهذه الصورة من التعامل حرمها الإسلام لأنها تتنافى وتتعارض مع نظامه الأخلاقي فالأصل الذي قرره الإسلام أن يكون المسلم عونًا لأخيه المسلم في وقت الأزمات لا أن يستغل وقت حاجته من أجل كسبه المادي.

ولهذا كان تمهيده ﷺ لحديثه عن الربا بقوله: **(ألا إن المسلم أخو المسلم، فليس يحل له من أخيه شيء)** فالأخ لا يظلم أخاه ولا يستحل ماله، والربا إنما هو استحلال لأموال الآخرين...

ولما تحدثت الآيات الكريمة عن الربا جعلته في مقابل الصدقات. قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

وهذا يوحي بأن المسلم في تصرفه عند حاجة أخيه إنما يكون بالصدقات والقرض الحسن لا بالربا.

بل جملة الحديث عن الربا في القرآن الكريم جاءت على هذا الأسلوب. ولنتأمل ذلك بإمعان في قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٤ ـ ٢٧٥].

إنهما صورتان، صورة الذي ينفق أمواله تقربًا إلى الله، والصورة الأخرى لآكل الربا... ولا ينبغي للصورة الثانية أن تكون في مجتمع المسلمين.

ولقد ظل آكل الربا ـ وما زال ـ منبوذًا في المجتمع الإسلامي، حتى جاء النظام المصرفي الذي انتقل بالتعامل الربوي من المجال الفردي إلى المجال المؤسساتي، ولم يعد التعامل به لحل أزمة خانقة حلت بفرد، وإنما يتعامل به ويستدينه أصحاب الأموال الكثيرة، ومالكو المؤسسات وأصحاب المعامل ليوسعوا أعمالهم ويزيدوا أرباحهم، وهذه هي الطامة

الكبرى أن يلجأ إلى القروض الربوية من ليس بحاجة إليها أصلًا.

إن هذه القروض التي يأخذها أصحاب المؤسسات والمعامل يتحمل أعباءها في النهاية المستهلك لهذه البضائع لأن صاحب المؤسسة أو المعمل سيجعل قيمة الفائدة التي يدفعها بعضًا من تكلفة السلعة المنتجة، وبهذا يتضرر المستهلك وهو لا يشعر.

ولقد حلّ الإسلام هذا الأمر باللجوء إلى توسيع رأس المال لمن أراد ذلك عن طريق ما يسمى في الفقه «شركة المضاربة» التي لا يكون من نتائجها أي ضرر على المستهلك، مما لا مجال لشرحه في هذا الفصل المختصر.

وخلاصة الأمر: أنه ﷺ أراد أن يذكر ويؤكد ما جاءت به الآيات الكريمة من تحريم الربا، وهو يعطي لأمته في خطبته تلك ما ينبغي أن يكون حاضرًا دائمًا في أذهانهم ومعمولًا به في حياتهم.

الفصل الخامس

مكانة المرأة في المجتمع

إن المرأة تشكل نصف المجتمع بشكل عام، قد تزيد قليلًا في بعض المجتمعات، وقد تنقص قليلًا في بعضها الآخر.

وهي تشارك الرجل في كل الأحكام التي سبق الحديث عنها في الفصول التي تقدمت، ولكن ما من شك في أن لها من الأحكام ما تنفرد به.

ومن حيث الجانب التاريخي، فإن المرأة ظلت مهضومة الحقوق، بل لا حقوق لها أصلًا في بعض المجتمعات، وفي بعض المجتمعات الأوربية ظلت مسألة إنسانية المرأة محل خلاف، هل هي إنسان أم حيوان أم نوع ثالث بين الإنسان والحيوان.. وكان هذا بعد مجيء الإسلام بعشرة قرون.

وكان شأن المرأة في المجتمع العربي قبل الإسلام لا يختلف كثيرًا عن وضعها في المجتمعات الأخرى، ولئن كانت أحسن في بعض الجوانب فهي ربما كانت أسوأ في جوانب أخرى.

وجاء الإسلام ليقرر أن المرأة هي كالرجل في كل الأحكام باستثناء ما يتعلق بخصوصياتها.

فهي مطالبة بكل العبادات التي كلف بها الرجل، ولها ذمتها المالية الخاصة بها، وهي ترث من مات من أقاربها، وتورث عند وفاتها، وهي مسؤولة عن تصرفاتها شأنها شأن الرجل في ذلك.

وهي مخاطبة تمامًا كالرجل بكل ما جاء في الخطاب القرآني، سواء أكان بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أم بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

وبهذا وأمثاله مما جاء به الإسلام، استعادت المرأة مكانتها وما قرر لها الله تعالى من حقوق.

وكل ذلك مدوّن في القرآن الكريم والسنة النبوية، ومع ذلك فإن النبي الكريم ﷺ في هذه الخطبة الجامعة الخاتمة يخصص قسطًا للحديث عن المرأة لا يقل عن حديثه في الأمور الأخرى، تأكيدًا منه على ما سبق تقريره، وإشعارًا بمكانة رعاية هذا الجانب من شؤون الأمة.

ويحسن بنا أن نذكر هذا النص مرة ثانية لدراسته ومحاولة فهم ما ورد فيه.

قال ﷺ: **(ألا واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنما هنَّ عوان عندكم، ليس تملكون منهن شيئًا غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً.**

ألا إن لكم على نسائكم حقًا، ولنسائكم عليكم حقًا.

فأما حقكم على نسائكم: فلا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذنَّ في بيوتكم لمن تكرهون.

ألا وإن حقهن عليكم: أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن).

* * * *

وأول ما يلفت النظر في هذا النص الشريف: أن الكلام فيه خاص بالحديث عن العلاقة بين الزوج وزوجته.

أما الأم والبنت والأخت وكل النساء الأخريات فإن النص لا يتناولهن، وذلك لأن هؤلاء النساء لا تقوم العلاقة بينهن وبين الرجل على مرتكز مادي، وإنما هي علاقة القرابة والرحم، وهي أعلا شأنًا من الارتباط المادي.

وقد جاء الحديث مفصلًا عنهن في القرآن الكريم والسنة المطهرة، وفيه ما يضمن حقوقهن المادية وما هو أجلُّ من ذلك من الإحسان إليهن وصلتهن.

ولهذا لم يأت النبي ﷺ على ذكرهن، وجاء الحديث مقتصرًا على

الزوجة باعتبار العلاقة بينها وبينه على عقد تمّ بموافقة كل من الطرفين، والجانب المادي (المهر) مكوّن من مكونات العقد إضافة إلى ما قد تشترطه المرأة من شروط.

وقد عظّم القرآن شأن هذا العقد، واعتبر الزوجة هي الجانب الضعيف، ولذلك جاء التعبير القرآني مشعرًا بذلك، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١]، فالمرأة هي التي أخذت العقد لتطالب بحقوقها إن لزم الأمر. والتعبير بـ ﴿غَلِيظًا﴾ يؤكد قوة هذا العقد ومتانته واختلافه عن بقية العقود.

بل إن الشروط التي ترافقه تعد من أوثق الشروط التي ينبغي الالتزام بها وتنفيذها. وقد جاء هذا في الحديث المتفق عليه وهو قوله ﷺ: **(أحق الشروط أن توفوا به، ما استحللتم به الفروج)**[١].

والغالب أن الشروط في هذا العقد تكون من قبل الزوجة، وذلك لأن الرجل لا يحتاج إلى ضمانات ففي يده الطلاق يستطيع به أن ينهي هذه العلاقة إذا لم يوافقه الطرف الآخر.

وإذن فالتأكيد على الوفاء بشروط هذا العقد إنما هو ضمان لما ترغب به المرأة.

❋ ❋ ❋ ❋

وإذا كان هذا شأن العقد والشروط المرتبطة به، فيحسن بنا أن نرجع قليلًا إلى ما قبل العقد من إتاحة الحرية الكاملة للمرأة في اختيار الزوج الذي تراه، سواء أكانت بكرًا أم ثيبًا.

ففي الحديث المتفق عليه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **(لا تُنكح الأيم حتى تُستأمر، ولا تُنكح البكر حتى تُستأذن)** قالوا: يا رسول الله، وكيف إذنها؟ قال: **(أن تسكت)**[٢].

---

(١) رواه البخاري (٢٧٢١) ومسلم (١٤١٨).

(٢) رواه البخاري (٥١٣٦) ومسلم (١٤١٩).

وعن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: **«الأيم أحق بنفسها من وليها، والبكر تُستأذن في نفسها، وإذنها صُماتها»**[1].

والأيم: هي المرأة الثيب، التي سبق لها أن تزوجت.

وأما صمات البكر: فكان الباعث عليه الحياء من التصريح بإجابتها، فإذا تغيرت الأعراف ولم يعد الحياء مانعًا من ذلك فالمطلوب عندئذ التصريح برغبتها شأنها شأن الثيب.

ولم يبق هذا الأمر في نطاق الأوامر والتوجيهات، بل وجد من الوقائع ما يثبته ويحققه.

فقد جاء عن خنساء بنت خدام الأنصارية: أن أباها زوجها ـ وهي ثيب ـ فكرهت ذلك، فأتت رسول الله ﷺ فردَّ نكاحه[2].

وعن ابن عباس: أن جارية بكرًا أتت النبي ﷺ، فذكرت أن أباها زوجها وهي كارهة، فخيّرها النبي ﷺ[3].

وعن بريدة قال: جاءت فتاة إلى النبي ﷺ فقالت: إن أبي زوجني ابن أخيه ليرفع بي خسيسته، قال: فجعل النبي ﷺ الأمر إليها، فقالت: قد أجزت ما صنع أبي، ولكن أردت أن تعلم النساء أنَّ ليس إلى الآباء من الأمر شيء[4].

❊ ❊ ❊ ❊

يتبين لنا مما سبق أن الإسلام أتاح للفتاة في أمر الزواج ما ليس موجودًا في الأنظمة الأخرى: من حرية الاختيار أولًا، ثم ضمن لها في العقد ما يضمن لها حقوقها وما ترغب به من شروط..

وبعد هذه المقدمة نعود إلى النص النبوي الكريم.

---

(١) رواه مسلم (١٤٢١).

(٢) رواه البخاري (٥١٣٨).

(٣) رواه أبو داود (٢٠٩٦) وابن ماجه (١٨٧٥) وهو حديث صحيح.

(٤) رواه ابن ماجه (١٨٧٤) وهو عند النسائي عن عائشة (٣٢٦٩) وصححه في «الزوائد»، وضعفه الألباني.

يشتمل النص على ثلاثة أمور:

ـ الوصية بالنساء خيرًا.

ـ بيان حقوق كل من الزوج والزوجة.

ـ بيان متى يسمح للزوج أن يضرب زوجته.

١ ـ أما الوصية بهن خيرًا، فذلك ما تكرر منه ﷺ كثيرًا يدلنا على ذلك كثرة الأحاديث الواردة في الموضوع، ومن ذلك:

ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **(أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلُقًا، وخياركم خياركم لنسائهم خُلُقًا)**[١].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **(خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي)**[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما مثل حديث عائشة[٣].

وهذه الأحاديث وغيرها كثيرة تجعل خير الناس هو الأحسن معاملة لأهله، وتجعل مقياس فضل الرجل هو في معاملته لأهله. وهذه قضية بدهية، فالإنسان الذي لا يحسن معاملة أهله، وهناك من الروابط والدواعي الشيء الكثير الذي يدعوه لذلك، كيف تكون معاملته حسنة مع بقية الناس؟!

والرسول ﷺ يجعل نفسه أسوة في هذا الأمر ـ وكذلك هو في غيره ـ فيقول: **(وأنا خيركم لأهلي)**.. وهذا يعني: أن على المسلمين التأسي به ﷺ فيحسنوا معاملة أهليهم.

٢ ـ وأما حقوق الزوج على زوجته: فهي حسن رعاية بيته في غيبته، فلا تدخل بيته من لا يأذن له، ولا تجلس فيه من لا يرغب بدخوله عليه.

---

(١) حديث صحيح، رواه أبو داود (٤٦٨٢) والترمذي (١١٦٢).
(٢) حديث صحيح، رواه الترمذي (٣٨٩٥).
(٣) حديث صحيح، رواه ابن ماجه (١٩٧٧).

وأما حقوق الزوجة على زوجها، فهو حسن معاملتها الذي سبق الحديث عنه، فهي بحكم الأسيرة عنده كما جاء في الحديث: (**فإنما هن عوان عندكم**)، ومن حسن المعاملة تلبية حاجتهن في الطعام والكسوة وكل الأمور الأخرى كالدواء، وما هو من ضرورات الحياة واقتصار الحديث على ذكر الطعام والكسوة، لأنهما أهم الضرورات ولا يعني ذلك أن الزوج ليس مطالبًا ببقية الحاجات.

٣ ـ وأما مسألة ضرب الزوجة فقد وردت في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

وقبل البدء بالحديث نحب أن نقف أمام هذا الحديث:

روى الإمام مسلم في «صحيحه»: أن عبدالله بن عمر ضرب غلامًا لهُ، ثم قال له: هل أوجعتك؟ قال: لا، قال: فأنت عتيق.

ثم أخذ عبدالله شيئًا من الأرض فقال: ما لي في عتقه من الأجر ما يزن هذا، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**من ضرب غلامًا له حدًا لم يأته، أو لطمه، فإن كفارته أن يعتقه**)(١).

وهكذا جعل رسول الله ﷺ على مالك العبد الرقيق إذا ضربه أن يعتقه، وذلك كفارة عن صنيعه.

وهذا يعني: أن يضرب الإنسان غيره ليس أمرًا يتسامح به، ويعني أن ضرب الزوجة لا يكون إلا عند أمر خطير. وهو ما نصت عليه الآية الكريمة، وبيّنه ﷺ في خطبة حجة الوداع.

ونطرح الأسئلة الآتية، لمَ يضرب الرجل زوجته؟

ألأنها قصرت وتأخرت في الطبخ وإعداد الطعام؟

أم لأنها قصرت في كنس البيت وتنظيفه؟

---

(١) رواه مسلم (١٦٥٧).

أم لأن الطعام الذي أعدته كان مالحًا؟

أم لأنها قصرت في غسل ثياب زوجها؟

أم لأنها..؟.

ونتساءل، وبناءً على معاملة الرقيق التي فرضها الإسلام وسبق ذكرها:

لو أن أمة رقيقة عند رجل، قصرت في إعداد ما سبق ذكره، هل يجرؤ على ضربها؟

والجواب: إنه لن يفعل، لأن ذلك سيضطره إلى عتقها...

فهل الزوجة أقل من الخادمة يستطيع أن يضربها ولا يسأل؟

إذن، وكما سبق القول فقضية ضرب الزوجة لا تكون إلا في أمر خطير يهدد بنيان الأسرة.

ويوضحه حديثه ﷺ في خطبته: (**إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهن..**).

ونتساءل ما هي الفاحشة المبينة؟

ويأتي الجواب في حديث جابر الذي نقل لنا فيه خطبة الوداع، وفيها:

(**فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرح**)[1].

وهذا ما ذكره حديث ابن الأحوص الذي نحن بصدده، والذي جعل حق الرجل على امرأته أمرًا واحدًا لم يذكر غيره وهو: (**فلا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون**).

إن إدخال الزوجة إلى بيت زوجها من لا يرغب الزوج دخوله،

---

(١) رواه مسلم (١٢١٨).

وبخاصة إذا كان رجلًا غريبًا. . . هو الفاحشة المبينة كما نص عليه حديث جابر ورتب عليه الإذن بالضرب وهو قوله: (**أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن فاضربوهن. .**).

هذه هي الحالة الوحيدة التي يسمح للزوج فيها بضرب زوجته، لأن هذا الفعل مؤشر على بداية انحراف خُلقي، وهو الأمر المخوف.

والآية بسياقها تؤكد هذا المعنى فهي تبدأ بالحديث عن أمر يتخوف منه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ. . .﴾.

إن مجرد استشعار الانحراف الخُلقي عند الزوجة وتطلعها إلى رجل آخر يجعل من حق الرجل أن يتبع الخطوات التي ذكرتها الآية. . .

وقد يسأل بعضهم: لماذا هذه الخطوات والأمر خطير، فلماذا لا يكون الضرب مباشرة؟

والجواب: إن بعض الرجال لديهم من الغيرة ما هو متجاوز لحد الاعتدال كما ذكر عن سعد بن عبادة رضي الله عنه، وقد يكون ظن الرجل في غير محله، فالتمهل والتريث والتثبت أمر مطلوب.

وإذن، فالضرب يكون بعد مرحلتين هما: الوعظ والهجر. . وهذا يعني: أن الريبة غالبة على الظن، فإذا رأى الرجل المصلحة في الضرب وأن ذلك سيصلح الأمور فذلك خير، على أن ذلك ليس واجبًا عليه، بل يستطيع مفارقة زوجته دون أن يضربها، ويذهب كل منهما في سبيله.

على أن عملية الضرب لها شروط كثيرة، في مقدمتها ما ورد في الحديثين السابقين: أن يكون ضربًا غير مبرح، وأكتفي بذكر ما قاله ابن حزم في هذا الموضوع، إذ لا مجال لذكر الشروط الأخرى.

قال ابن حزم: «ضربها بما لا يؤلم، ولا يجرح، ولا يكسر، ولا

يعض، فإن ضربها بغير ذلك أقيدت منه، وإنما أباح الشارع الضرب ولم يبح الجراح، ولا كسر العظام، ولا تعفين اللحم، قال تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ فصح أنه إن اعتدى عليها بغير حق فالقصاص عليه»[1].

هذه هي مسألة ضرب المرأة، إنها محدودة ومحصورة في سلوك واحد لا تتجاوزه إلى غيره.

* * *

وإذا كان ﷺ قد تكلم في خطبته عن الخطوط العريضة في وضع المرأة في المجتمع الإسلامي، وواجب الإحسان إليها، فقد كان في سلوكه ﷺ مع زوجاته مما نقل إلينا ما صحح مسار المسلمين مما لا مجال للحديث عنه، ولكني أكتفي بذكر أمثلة منه:

١ ـ قال عمر بن الخطاب: والله إن كنا في الجاهلية ما نعدُّ للنساء أمرًا، حتى أنزل الله فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم.

قال: فبينا أنا في أمر أَتَأَمَّره إذ قالت امرأتي: لو صنعت كذا وكذا، قال: فقلت لها: ما لكِ ولما هاهنا، فيما تكلُّفكِ في أمر أريده؟

فقالت لي: عجبًا لك يا ابن الخطاب، ما تريد أن تراجع أنت، وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حق يظلَّ يومه غضبان.

فقام عمر فأخذ رداءه مكانه، حتى دخل على حفصة، فقال لها: يا بنية، إنكِ لتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان؟

فقالت حفصة: والله إنا لنراجعه.

فقلت: تعلمين أني أحذرك عقوبة الله، وغضب رسوله ﷺ...

قال: ثم خرجت حتى دخلت على أم سلمة لقرابتي منها، فكلمتها.

---

(١) المحلى (٤١/١٠).

فقالت أم سلمة: عجبًا لك يا ابن الخطاب، دخلت في كل شيء، حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه؟

قال عمر: فأخذتني والله أخذًا كسرتني عن بعض ما كنت أجدُ، فخرجت من عندها[١].

ولا شك بأن عمر بعد مقابلته لابنته ولأم سلمة تبين له أمر كان يجهله من سلوكه ﷺ، فكان ذلك درسًا في تصحيح سلوكه مع امرأته.. لأنه ـ كما هو شأن كل صحابي ـ حريص على اتباع مسلك الرسول ﷺ في كل أموره.

ولا شك بأن ما نقل إلى عمر كان يتناقله زوجات الصحابة فيكون ذلك داعيًا لهم لتعديل سلوكهم.

٢ ـ وسن الرسول ﷺ الاستفادة من رأي أزواجه في الأمور العامة.

ففي صلح الحديبية، وبعد إبرام الصلح وكتابته ـ وكان بعض الصحابة غير راض لما رأى فيه من غبن للمسلمين ـ قال رسول الله ﷺ لأصحابه: (**قوموا فانحروا ثم احلقوا**) فما قام رجل منهم، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس.

فقالت أم سلمة: يا نبي الله، أتحب ذلك، اخرج لا تكلم أحدًا منهم كلمة، حتى تنحر بدنك، وتدعو حالِقك فيحلِقك.

فخرج، فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالِقه فحلقه.

فلما رأوا ذلك قاموا، فنحروا، وجعل بعضهم يحلِق بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا[٢].

---

(١) رواه البخاري (٤٩١٣) ومسلم (١٤٧٩).

(٢) رواه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

لقد كان في مشورة أم سلمة رضي الله عنها حلًا لمشكلة شعر الصحابة بعظمها بعد ذلك حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا كما ورد في الحديث.

نكتفي بهذين المثلين، فقد كانت سيرته ﷺ في بيته ومع أزواجه نموذجًا يتأسى به النساء وينقلن ذلك لأزواجهن.

وبهذا بلغت المرأة غاية ما يصلح لها من سلوك وفق تشريع الله تعالى خالقها والعالِم بما يصلح لها ويصلحها.

الفصل السادس

المسؤولية الفردية

كانت قضية الأخذ بالثأر في الجاهلية قبل الإسلام عرفًا قائمًا لا ينكره أحد، فإذا قتل فرد شخصًا من قبيلة غير قبيلته، فإنه وقبيلته يعد محلًا لأخذ الثأر منهم، فأي فرد تمكنت قبيلة المقتول من الوصول إليه من قبيلة القاتل، فهو محل لأخذ الثأر منه.

وجاء الإسلام، فأبطل هذا العرف وجعل المسؤولية شخصية، فالقاتل هو المسؤول وحده وهو محل القصاص إذا ثبتت الجريمة عليه وأنه مرتكبها.

قال ثعلبة بن زهدم: انتهى قوم من بني ثعلبة إلى النبي ﷺ وهو يخطب فقال رجل: يا رسول الله، هؤلاء بنو ثعلبة الذين قتلوا فلانًا - رجلًا من أصحاب النبي ﷺ - فقال النبي ﷺ: **(لا تجني نفس على أخرى)**[1].

ومفهوم الحديث: أن بني ثعلبة قتلوا رجلًا من أصحاب النبي ﷺ. ثم بعد زمن جاء وفد منهم إلى رسول الله ﷺ، فقال رجل من الصحابة: هؤلاء بنو ثعلبة.. يذكّر النبي ﷺ بأنهم قتلوا سابقًا أحد الصحابة على أمل أن يأخذ رسول الله بثأر ذلك الصحابي ممن حضر من قبيلته في ذلك الوفد، فأعلمه رسول الله ﷺ أن الذين حضروا ليسوا هم القتلة، ولا يسألون عن فعل غيرهم وإن كان من قبيلتهم.

وقد عمل رسول الله ﷺ على تقرير هذا المعنى طول إقامته بالمدينة مدة نزول التشريع، بل إن القرآن الكريم أكد على هذا المعنى وكرره كثيرًا، ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

---

(١) رواه النسائي (٤٨٤٨).

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

والآيات الكريمة كثيرة في هذا الشأن.

وهذا الحكم التي تتحدث عنه الآيات الكريمة يتناول ما هو كائن في الحياة الدنيا، وفي الآخرة عند الحساب يوم القيامة.

وهذا من العدل الإلٰهي المطلق: أن يكون كل إنسان مسؤولًا عن عمله، ولا يسأل عن عمل غيره حتى ولو كان أقرب الناس إليه.

جاء في الحديث عن أبي رمثة قال: انطلقت مع أبي نحو النبي ﷺ، ثم إن رسول الله ﷺ قال لأبي: (ابنك هذا)؟ قال: إي ورب الكعبة، قال: (حقًا)؟ قال: أشهد به. قال: فتبسم رسول الله ﷺ ضاحكًا من ثبت شبهي في أبي، ومن حلف أبي عليَّ.

ثم قال ﷺ: **(أما إنه لا يجني عليك، ولا تجني عليه)** وقرأ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾(١).

وآية سورة فاطر التي سبق ذكرها، تصور بعض المشهد يوم القيامة: فالنفس التي أثقلتها الذنوب تحاول أن تدعو من يحمل عنها بعض الإثم الذي ارتكبته، فلا تجد من يستجيب لها ولو كان ذا قربى وصلة بها، وذلك لأنه في ذلك اليوم، لا تزر وازرة وزر أخرى.

إنه حكم إلٰهي أن يسأل الإنسان عن عمله.

وكان من نتيجة ذلك في التطبيق في الحياة الدنيا، تقليل عدد

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٠٨) والنسائي (٤٨٤٧) وغيرهما.

الجرائم، وحصرها في نطاق محدود، فالقاتل يعاقب وحده، ولا علاقة لأحد من قرابته بالأمر.

بينما كان الأمر في الجاهلية: أنه إذا قتل إنسان رجلًا من قبيلة أخرى. كان لكل فرد من قبيلة المقتول أن يقتل أي فرد من قبيلة القاتل، ثم ترد قبيلة القاتل بمثل ذلك.. ويستمر القتل...

وجاء الإسلام فقضى على ذلك.

ولما لهذه المسألة من خطر في تأمين أمن المجتمع واستقراره، فقد ذكرها رسول الله ﷺ في خطبته، مذكرًا بهذا الحكم ومؤكدًا على الالتزام به، فكان قوله في ذلك:

(ألا لا يجني جانٍ إلا على نفسه، ولا يجني والد على ولده، ولا ولد على والده).

ثم أكد هذا القول بتطبيق عملي فقال:

(ألا وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وأول دم أضعه من دماء الجاهلية دم الحارث بن عبد المطلب، كان مسترضعًا في بني ليث فقتلته هذيل).

وهكذا بدأ ﷺ بنفسه، فتنازل عن الدم الذي يخصه وهو دم الحارث ابن عبد المطلب ليبطل ذلك العرف الذميم، ويقوم مقامه الحكم الذي جاء به القرآن الكريم والسنة المطهرة.

الفصل السابع

الوصية بكتاب الله تعالى

جاء في آخر الخطبة بحسب حديث جابر ﷺ، قوله ﷺ:

(وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله، وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون)؟

قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت.

فقال بإصبعه السبابة، يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «**اللَّهمَّ اشهد، اللَّهمَّ اشهد، اللَّهمَّ اشهد**» ثلاث مرات.

وجاء في حديث ابن عباس ﷺ، قوله ﷺ:

(إني تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا، كتاب الله وسنة نبيه ﷺ).

* * *

والحديثان يؤكدان على أمر واحد، هو الاعتصام بكتاب الله، والعمل بسنته ﷺ هو بعض الاعتصام بكتاب الله تعالى، لأننا مأمورون فيه بالتأسي به ﷺ وبطاعته.

وأولى الخطوات في طريق الاعتصام بكتاب الله، هي الصلة اليومية الدائمة به، فقد كان له ﷺ حزب يقرؤه، ولا يخل به.

وقد أوصى ﷺ عبدالله بن عمرو بن العاص أن يقرأ القرآن في شهر.

والمهم أن تكون الصلة دائمة، فيكون للمسلم جزء من القرآن يقرؤه بحسب ما يستطيع.

وحتى تكون التلاوة نافعة يحسن بنا أن نستمع إلى كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في ذلك:

«إذا أردت الانتفاع بالقرآن، فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

والتلاوة الحقة هي التي أثنى الله على أهلها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١].

والمعنى: يتبعون كتاب الله حق اتباعه.

وقال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النمل: ٩١ ـ ٩٢].

فحقيقة التلاوة في هذه المواضع هي التلاوة المطلقة التامة، وهي تلاوة اللفظ والمعنى.

فتلاوة اللفظ جزءُ مسمى التلاوة المطلقة.

وحقيقة اللفظ إنما هي الاتباع.

يقال: اتلُ أثر فلان، وتلوت أثره، بمعنى تبعته خلفه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾﴾ [الشمس]، أي: تبعها في الطلوع بعد غيبتها.

والتلاوة الحقيقية: هي تلاوة المعنى واتباعه، تصديقًا بخبره، وائتمارًا بأمره، وانتهاء عن نهيه، وائتمامًا به، حيث قادك انقدت معه.

فتلاوة القرآن: تتناول تلاوة لفظه ومعناه.

وتلاوة المعنى أشرف من مجرد تلاوة اللفظ، وأهلها هم أهل القرآن الذين لهم الثناء في الدنيا والآخرة.

وبالجملة: فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر، فهو الذي يورث: المحبة، والشوق، والخوف والرجاء، والإنابة والتوكل، والرضا والتفويض والشكر والصبر، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب.

وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة.

فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر.

وهذه كانت عادة السلف، يردد أحدهم الآية إلى الصباح.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قام بآية يرددها حتى الصباح، وهي قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨][1].

هذا ما قال الإمام ابن القيم، وهو كلام نفيس.

وقد سبقت إلى هذا الفهم أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خُلُق رسول الله ﷺ فقالت: **«كان خُلُقه القرآن»**.

أي: إنه ﷺ كان ينفذ كل ما جاء في القرآن من أوامر، وينتهي عما نهى عنه.. أي: إن قراءته للآيات الكريمة تتحول إلى سلوك.

ونعتقد أن هذا ما قصده ﷺ بوصيته بكتاب الله تعالى والاعتصام به، وهل يكون الاعتصام إلا بالقيم والثوابت التي جاءت فيه.

وإنما أخَّر ﷺ هذه الوصية إلى آخر خطبته، لأن العمل بها يحقق كل ما سبق من التوجيهات والأوامر في الخطبة.

---

(١) «الهدي النبوي في الفضائل والآداب» (٣٣ ـ ٣٦)، نشره المكتب الإسلامي.

ثم ختمها بإشهاد الله تعالى أنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة، بعد أن شهد له الصحابة بذلك رضي الله عنهم.

وبعـــد:

فتلك كانت خطبته ﷺ في حجة الوداع، توقفنا عند الخطوط العريضة والرئيسة فيها، وحق على كل مسلم أن يعود إليها مرة بعد مرة ليتذكر ما ورد فيها..

قال ابن عباس رضي الله عنهما: فوالذي نفسي بيده إنها لوصيته إلى أمته (فليبلغ الشاهد الغائب)[١].

---

(١) رواه البخاري (١٧٣٩).

خاتمة

وبعد:

أرجو أن أكون قد بلَغْت بعض ما قصدت إليه في هذا البحث من بيان لحركة الدعوة والمراحل التي مرت بها.

وأملي أن يسهم ذلك في فهم أعم وأشمل للسيرة المطهرة، والاستفادة منه بالتالي في ميدان التطبيق العملي ممن يمارسون الدعوة إلى الله تعالى إلتزاماً بإسلامهم وسعياً في ابتغاء مرضاته سبحانه وتعالى.

وإذا كان لي من استدراك فبل ختام قولي، فهو أني لم أقف عند التعابير الاصطلاحية، وخاصة في القسم الأول، بل تجاوزت ذلك، لأني إنما أردت نقل الواقع دون محاولة لتحويل البحث إلى نظرية.. ولهذا لما تحدثت عن التربية، وقفت عند القضايا الأساسية، ثم انتقلت إلى المسارات والمسالك. وهي عناوين أخذتها من الواقع، دون أن أدخل عليها عمليات الزخرفة والتجميل، وذلك أقرب لطبيعة البحث.

هذا وأحمد الله تعالى، الذي بنعمته تتم الصالحات، أن وفَّق لإنجاز هذا العمل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الثالثة	٣
مقدمة الطبعة الأولى	٥
منهج البحث	٧
بين يدي الكتاب	٨
القسم الأول: حركة الدعوة في مكة	١٣ ـ ١٠٤
الباب الأول: مراحل سير الدعوة	
تمهيد	١٦
الفصل الأول: الاستخفاء بالدعوة	١٧
الدعوة سرًا	١٧
لم يستخف ﷺ بدعوته	١٨
دار الأرقم	٢١
لم يكن الاستخفاء عامًا	٢٢
الحكمة من فترة الاستخفاء	٢٤
الفصل الثاني: الجهر بالدعوة	٢٧
جهره ﷺ بالدعوة	٢٧
جهر الصحابة بالدعوة	٣٠
الباب الثاني: التربية في مكة	
الفصل الأول: العقيدة هي الأساس	٣٧
الفصل الثاني: الصبر هو العدة	٤٧
الفصل الثالث: التصور الصحيح عن عالمية الدعوة	٥٣
الفصل الرابع: القاعدة الصلبة	٥٧
الباب الثالث: مسارات التربية وسماتها	
تمهيد	٦٢
الفصل الأول: التربية الذاتية للنفس	٦٣

الموضوع	الصفحة
التخلص من رواسب الجاهلية	٦٣
المنهج الخلقي	٦٦
الفصل الثاني: التربية للمواجهة الخارجية	٧٣
الفصل الثالث: المسار الاجتماعي للتربية	٨٤
تربية الفرد في إطار الجماعة	٨٤
آصرة العقيدة	٨٦
مفهوم المساواة	٨٩
لا هجرة إلى مكة	٩٠
الفصل الرابع: المسار الاقتصادي للتربية	٩٢
الصد عن الدعوة	٩٢
التوجيه القرآني	٩٤
التربية والواقع العملي	٩٥
الفصل الخامس: سمات التربية	٩٩
تربية أمة	٩٩
التربية بالأحداث	١٠٠
تربية وئيدة الخطى	١٠٢
التربية وقيمة العمل	١٠٣
خلاصة المرحلة المكية	١٠٤
القسم الثاني: الهجرة	**١٠٥ ـ ١٢٩**
الفصل الأول: الهجرة إلى الحبشة	١٠٧
ملخص الحادثة	١٠٧
أسباب الهجرة	١٠٨
لم يهاجر الفقراء	١٠٨
هل كانت الحبشة بدء محاولة لهجرته ﷺ	١١١
لماذا الحبشة إذن؟	١١٢
الفصل الثاني: الهجرة إلى المدينة	١١٤
العام العاشر من البعثة	١١٤

الموضوع	الصفحة

البحث عن قاعدة للدعوة ١١٥
التمهيد والإعداد ١١٧
طلائع المهاجرين ١٢١
هجرته ﷺ ١٢٣
استمرار الهجرة وبناء القاعدة ١٢٣
هل انقطعت الهجرة؟ ١٢٧

القسم الثالث: العهد المدني
(بناء الدولة) ١٣١ ـ ٣١٢

تمهيد ١٣٢

الباب الأول: بناء القاعدة

الفصل الأول: الإمساك بزمام السلطة ١٣٧
السلطة بيده ﷺ ١٣٧
التنظيم الاجتماعي والسياسي ١٤٠
أمن المدينة ١٤٤
الفصل الثاني: الوضع الاجتماعي ١٥١
الوضع السكاني ١٥١
تتابع وصول المهاجرين ١٥٢
المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ١٥٣
بناء المسجد ١٥٥
مسكن النبي ﷺ ١٥٦
الفصل الثالث: حركة الدعوة في المرحلة الأولى ١٥٨
مكة بعد الهجرة ١٥٨
الأوس والخزرج ١٥٩
اليهود ١٥٩
باحث عن الحق ١٦٢
موقف القبائل العربية ١٦٣
الفصل الرابع: الوضع الاقتصادي (١) ١٦٤

الموضوع	الصفحة

مكة والمدينة ١٦٤
ترحيب الأنصار بالمهاجرين ١٦٥
عفة المهاجرين وعملهم ١٦٩
السوق التجارية ١٧١
الفصل الخامس: الوضع الاقتصادي (٢) (الصفة) ١٧٢
التعريف بالصفة ١٧٢
أهل الصفة ١٧٥
نفقة أهل الصفة ١٧٧
من أسباب ضيق العيش ١٧٩
عمل أهل الصفة ١٨٠
إيضاح وبيان ١٨٢
نهاية دور الصفة ١٨٥
الخطأ الفادح ١٨٦
الخلاصة ١٨٨
الفصل السادس: التربية في المرحلة الأولى ١٨٩

الباب الثاني: الكفاح الدامي

تمهيد ١٩٤
الفصل الأول: الوضع السياسي والعسكري ١٩٥
١ ـ يوم الفرقان ١٩٥
٢ ـ غزوة أُحد ٢٠٠
٣ ـ غزوة الأحزاب ٢٠٢
الفصل الثاني: الوضع السكاني في المرحلة الثانية ٢٠٥
تغير الخارطة السكانية ٢٠٥
المهاجرون ٢٠٦
الفصل الثالث: حركة الدعوة في المرحلة الثانية ٢٠٨
النفاق ٢٠٨
حركة الدعوة خارج المدينة ٢١٢
الفصل الرابع: الوضع الاقتصادي في المرحلة الثانية ٢١٦

الموضوع	الصفحة

ليسوا عالة ٢١٧
انفراج الأزمة ٢١٩
اقتصاد الأزمات ٢٢٣
المرافق العامة ٢٢٥
١ ـ سوق المدينة ٢٢٥
٢ ـ بئر رومة ٢٢٦
الإحصاء ٢٢٨
الفصل الخامس: التربية في المرحلة الثانية ٢٣٠
١ ـ التربية الجهادية ٢٣٠
● إخلاص وتجانس ٢٣١
● درس بدر ٢٣٤
● درس أُحد ٢٣٦
● درس الأحزاب ٢٣٧
٢ ـ التربية الأخلاقية ٢٣٩
٣ ـ التربية الاقتصادية ٢٤٦
● غنى النفس ٢٤٧
● العمل ٢٤٩
● الاكتفاء الذاتي ٢٥٠
● تربية العطاء ٢٥٢

الباب الثالث: انتشار الدعوة

تمهيد ٢٥٦
الفصل الأول: الوضع السياسي والعسكري ٢٥٧
١ ـ صلح الحديبية ٢٥٧
● عمرة أم غزوة؟ ٢٥٩
● عقد الصلح ٢٦١
٢ ـ ما بعد الصلح ٢٦٣
● أمر اليهود ٢٦٣
● تتابع الغزوات والسرايا ٢٦٦

الموضوع	الصفحة

٣ ـ فتح مكة وما بعده ٢٦٧
الفصل الثاني: الوضع السكاني ٢٧٠
الفصل الثالث: حركة الدعوة في المرحلة الثالثة ٢٧٤
العوائق ٢٧٤
الآثار العملية للصلح ٢٧٥
فتح مكة ٢٧٨
الكتب والرسل ٢٨٠
الوفود ٢٨٢
يدخلون في الدين أفواجًا ٢٨٤
الدعوة والمجال العالمي ٢٨٦
استمرار الكيد والتآمر ٢٨٧
حركة الدعوة والاقتصاد ٢٨٨
الفصل الرابع: الوضع الاقتصادي ٢٩٠
أسباب الضيق ٢٩٠
غنائم خيبر ٢٩٢
ردّ المنائح ٢٩٣
الصفّة ٢٩٣
دار الضيافة ٢٩٤
مسؤولية الدولة ٢٩٥
الفصل الخامس: التربية في المرحلة الثالثة ٢٩٧
١ ـ التربية الجهادية ٢٩٧
● بين مرحلتين ٢٩٧
● درس من حنين ٣٠١
● تقرير مكانة الجهاد ٣٠٢
٢ ـ التربية الاقتصادية ٣٠٥
● توجيه للقادة ٣٠٦
● القوة الإنفاقية ٣٠٨
● تحذير وتخوف ٣١١

الموضوع	الصفحة

القسم الرابع: الوصية بالثوابت ٣١٣ ـ ٣٥١

تمهيد ٣١٥
نصوص الخطبة الشريفة ٣١٧
الفصل الأول: كلمة وداع ٣٢٠
الفصل الثاني: حفظ الدماء والأعراض والأموال ٣٢٣
الفصل الثالث: الوضع الاجتماعي ٣٢٧
الفصل الرابع: الوضع الاقتصادي ٣٣١
الفصل الخامس: مكانة المرأة في المجتمع ٣٣٤
الفصل السادس: المسؤولية الفردية ٣٤٥
الفصل السابع: الوصية بكتاب الله تعالى ٣٤٨
خاتمة ٣٥٢
الفهرس ٣٥٣